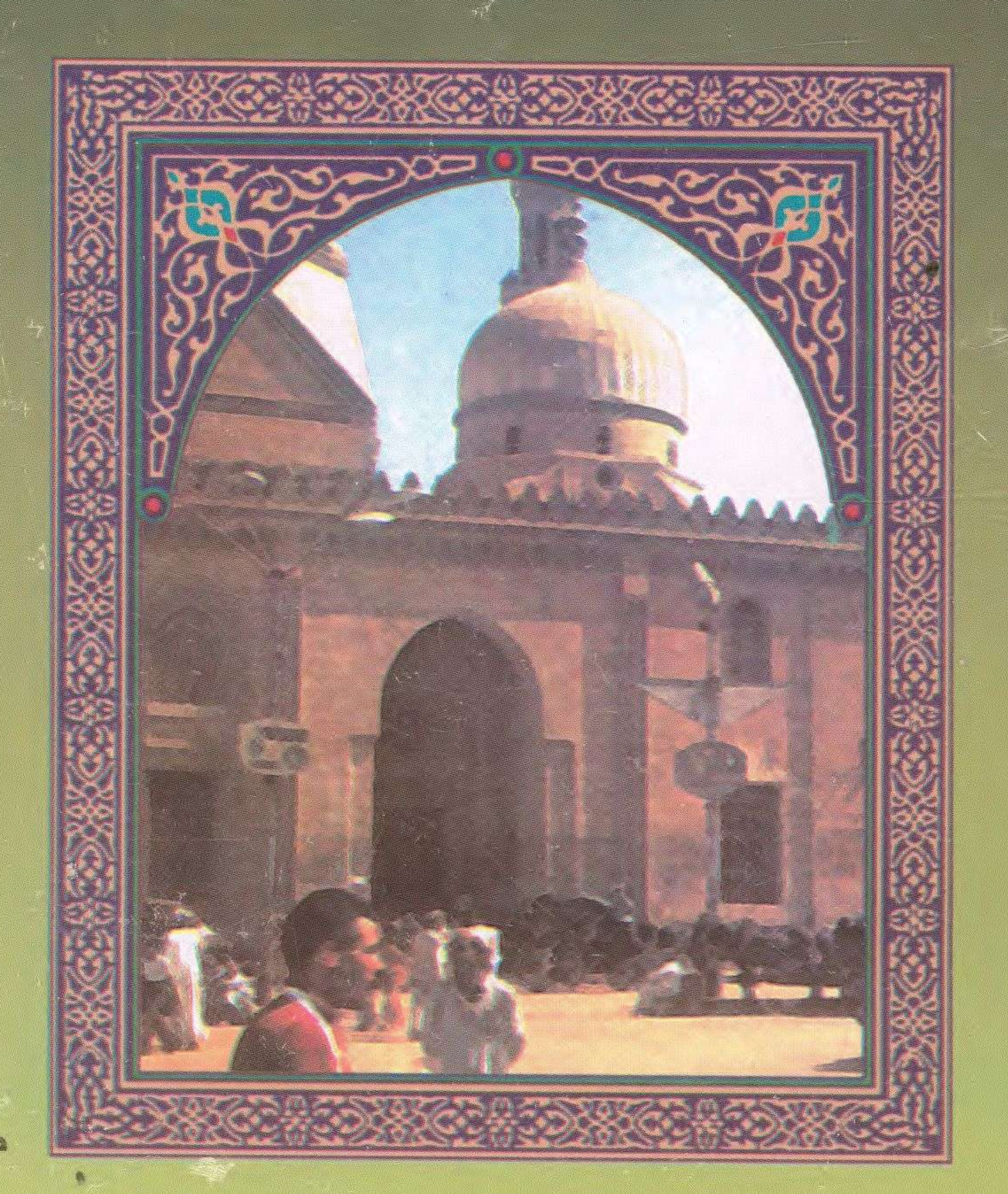
دكتور أحمد فكرى

مساجد القاهرة ومدارسها

الجزء الثانى

العصر الأيوبى




دار المعارف


mohamed khatab

مساجد القاهرة ومدارسها

تأليف

الدكتور أحمد فكرى

الجزء الثانى

العصر الأيوبى

وضع الفهارس والكشافات

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

الطبعة الثانية



دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فكرى ، أحمد .
مساجد القاهرة ومدارسها .
تأليف : أحمد فكرى .
وضع الفهارس والكشافات : د / محمد زينهم محمد عزب .
- ط ٢ - القاهرة : دار المعارف ،٢٠٠٨ .
مج ٢ ؛ ٢٤ سم ، (المحتويات العصر الأيوبى)
تدمك ٦ - ٧١٦١ - ٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١- المساجد - مصر
(أ) عزب ، محمد زينهم محمد (واضع)   (ب) العنوان .

ديوى ٩٦٢, ٢١٥

رقم الإيداع ٩٤٧٦ / ٢٠٠٨   ٦٤/ ٢٠٠٥ /١

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

كتب ظهرت للمؤلف

(أ) باللغة العربية:

١ – المسجد الجامع بالقيروان:

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر سنة ١٩٣٦م

٢ – مساجد القاهرة ومدارسها – المدخل:

دار المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٦٢م

٣ – مساجد القاهرة ومدارسها: الجزء الأول – العصر الفاطمى

دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥ م.

(ب) باللغة الفرنسية:

1 – L'Art Roman du Puy et les Influences Islamiques, Paris, Leroux, 1933.

2 – La Grande Mosquèe de Kairouan, Paris, Laurens, 1934.

كتب معدة للطبع:

١ – مساجد القاهرة ومدارسها – الجزء الثالث: عصر دولة المماليك البحرية. (إلى نهاية أسرة قلاوون).

٢ – مساجد القاهرة ومدارسها – الجزء الرابع: عصر دولة المماليك البحرية (إلى نهاية الدولة).

٣ – الحضارة العربية فى فجر الإسلام.

٤ – قرطبة ومسجدها الأعظم – جزءان.

٥ – قبة الصخرة.

٦ – عصر الأغالبة وآثارهم فى إفريقية (تونس).

تصدير

المســاجد والمــدارس الأثريــة أدلة مرئية ملموســة خالدة تشــهد أكثر من أى إنتــاج آخر من ثمار الحضارة الإســلامية العربية بأهمية التراث الــذى قدمته هذه الحضارة فى النواحى الدينية والاجتماعيــة والعلمية التعليميــة والعمرانية والفنية. وهى فى مجال الفنــون والآثار المنبع الذى تفرعت منه جميع النظم والعناصر المعمارية والزخرفية فى العالم الإســلامى. ولهذا فهى جديرة بأن تحتل موضع الصدارة فى الدراسات الأثرية.

والمساجد والمدارس فى القاهرة تمتاز بأنها أكثر عددًا وأعظم أهمية من نظرائها فى أى عاصمة من العواصم الإســلامية، وكذلك تمتاز بأن تواريخها تمتد فى حلقة متصلة من صدر الإســلام إلى وقتنا هذا.

وهذه الأســباب هــى التى دفعتنى إلى اختيار «مســاجد القاهرة ومدارســها» موضوعًا لهذا البحــث الذى أعكف عليه منذ أكثر من عشــرين ســنة، والذى أقدم منــه اليوم إلى القراء هذا الجــزء الثانــى «العصر الأيوبى»، لاحقــا بزميليه، «المدخل»، الذى ظهر فى ســنة ١٩٦٢م، والذى اقتصر على الآثار السابقة لإنشاء القاهرة، والجزء الأول، «العصر الفاطمى»، الذى ظهر فى ســنة ١٩٦٥م. وإنى أرجو أن أتبعه قريبًا بالجزأين التاليين عن آثار المساجد والمدارس فى عصر المماليك البحرية.

وقد حرصت فى كل من هذه الأجزاء الثلاثة على أن يسبق عرض الموضوع مقدمة تاريخية عن آثار العصر وفنونه، حتى يستطيع القارئ أن يحدد أهمية المساجد والمدارس بالنسبة لجملة الآثار المتخلفة من هذه العصور.

وفى هذا الجزء، «العصر الأيوبى»، اســتعرضت فى الفصول الثلاثة الأولى تاريخ اتساع القاهرة وامتدادها، وازدهار الفنون فيها، والآثار التى تخلفت من ذلك العصر، من أسوار ومشاهد ومآذن. واستعرضت فى الفصلين الرابع والخامس تاريخ المدارس التى أنشئت فى القاهرة، ما اندثر منها، وما تبقت آثار منه. وحاولت أن أشرح هذه الآثار وأوضح معالمها وعناصرها المعمارية والزخرفية.

وإذا كان عــدد الآثــار المتخلفة من هذا العصر الأيوبى ضئيلاً. نســبيًا، وإذا كانت لم تتخلف «مســاجد» منه، إلا أن أهميته عظيمة من حيث تطور العناصر المعمارية، مثل القباب، والقبوات والمآذن، ومن حيث ازدهار الأشكال الزخرفية، مثل التوشيح العربى والخط النسخى.

وتتضح هذه الأهمية بصفة خاصة من نظم «المدارس» وهى نظم جديدة لم تظهر فيما سبق هذا العصر. ولهذا فقد تطلب البحث أن يمتد ليشمل نظم المدارس منذ ظهورها فى العمارة الإسلامية، فى القرن الخامس الهجرى، حتى نهاية العصر الأيوبى، وخاصة فى بلاد الشام. وهذا موضوع الفصل السادس من هذا الجزء.

وارتبط هذا الموضوع بموضوع آخر، اقتضى البحث أن أطرقه تفصيلاً، فى الفصول الثلاثة الأخيرة من هذا الكتاب، وهو موضوع أصول نظم المدارس ومصادرها ووظائفها. وقد شغل هذا الموضوع المتشعب بعض علماء الآثار المستشرقين، طيلة سبعين سنة، وحاولوا أن يوفوه بحثا ليستخرجوا عناصره، ويحددوا مصادر «المدرسة» ولكنهم، كما سيرى القارئ، زادوه تشعبًا وتعقيدًا، لأن نظرياتهم فيه اختلفت، وتضاربت مذاهبهم.

وقد يبدو للقارئ أننى تحاملت على هؤلاء المستشرقين، وخاصة على زعيم من زعمائهم، هو الأستاذ (كريسويل). ولكننى مقتنع تمامًا بأننى التزمت المنهج العلمى فى نقدى لآراء هؤلاء المستشرقين، وتمحيصى لنظرياتهم، وبأننى لم أتعد حدود هذا المنهج، ولم أحمِّل النصوص التاريخية والعناصر الأثرية فوق مدلولها ومفهومها. فإذا كان التحامل قد بدأ من هذا النقد والتفنيد فإنه حتميًّا لالتزامى المنهج العلمى، ذلك المنهج الذى يستهدف الحقيقة ويستنكر المحاباة، كما يستبعد المغالاة. وأود أن أؤكد هنا ما سبق أن اعترفت به منذ ثلاثين سنة من أن الأستاذ (كريسويل) أستاذ كبير، وأن كتبه فى الآثار الإسلامية «عظيمة الشأن»، وأنها تعتبر «ذخرًا ثمينا بما تحويه من بحوث ومعلومات واسعة، وصور ورسومات دقيقة نفيسة»[1]. وإذا كان هذا الأستاذ الكبير قد تعرض لنقدى أكثر من غيره، وإذا كانت نظرياته قد تعرضت فى كتابى لتحليل دقيق مفصل، فذلك لأنه كان أكثر العلماء المستشرقين عنفًا فى نقد آراء زملائه ومهاجمة نظرياتهم، التى يصفها تارة بأنها «ركيكة»[2]، وتارة بأنها «انهدمت»[3] أو «تحطمت»[4] بفضل بحوثه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان الأستاذ (كريسويل) أكثر هؤلاء المستشرقين ادعاء، إذ بينما كان هؤلاء العلماء يقدمون نظرياتهم على أنها أقرب النظريات صحة، أو أقلها افتراضا، فإنه كان

---

(١) انظر كتاب «المسجد الجامع بالقيروان» للمؤلف، مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٦م، صفحتا ح و ط

(٢) انظر الحاشية (٢) من صفحة ١٦٢ فيما بعد

(٣) انظر صفحة ١٢٥ فيما بعد.

(٤) انظر صفحة ١٣١ فيما بعد.

يصف نظريته بأنها «حقيقة تاريخية ثابتة»[1]. فكان لزامًا على أن أتناول نظريات الأستاذ (كريسويل) بالبحث الدقيق المفصل للتأكد من مدى صحة هذا الادعاء، ومبلغ ثبوت هذه «الحقيقة» ولم أشأ أن أكتفى فى ذلك بما انتهى إليه بحث أحد العلماء المستشرقين الذى وصف فيه هذه الحقيقة التاريخية الثابتة» بأنها قد «انهارت» تمامًا[2].

تصدى المستشرقون للبحث عن مصادر المسجد الجامع، وتعارضت آراؤهم وتضاربت، مما شرحته تفصيلاً فى الفصلين الأول والتاسع من «المدخل»، وفى الفصل السادس من الجزء الأول، «العصر الفاطمى»[3]. وقد جعل هذا التضارب اثنين من هؤلاء العلماء يقران بأن جميع النظريات التى قدمت عن مصادر نظام المسجد الجامع «سخيفة»[4]، أو «ضعيفة»[5]. ورأيت لزامًا علىّ إزاء تزعزع هذه النظريات، أن أحاول إيضاح نظم المساجد الجامعة، وأن أدلى بنظريتى عن مصادرها، وهذا ما خصصت له الفصلين التاسع والعاشر من «المدخل»، والفصل السادس من الجزء الأول، «العصر الفاطمى».

وكذلك تصدى المستشرقون للبحث عن مصادر «المدرسة»، وكذلك تعارضت آراؤهم وتضاربت نظرياتهم، مما جعل أحدهم يعترف بأن هذه المصادر «ما تزال موضع شك»[6]، وأن هذه النظريات لم تجد بعد «حلا نهائيًا»[7]. وقد شرحت ذلك تفصيلا فى الفصلين السابع والتاسع من هذا الجزء، «العصر الأيوبى». ورأيت لزامًا علىّ كذلك، إزاء التشكك فى هذه النظريات وتأرجحها، أن أحاول إيضاح نظم المدارس ووظائفها، وأن أدلى بنظريتى عن مصادرها. وهذا ما خصصت له الفصلين السادس والثامن من هذا الجزء. فاستعرضت فيهما نظم المدارس الأثرية المعروفة حتى نهاية العصر الأيوبى، واستخلصت الصفات المشتركة فيها، واستعرضت كذلك النصوص التاريخية المعروفة عن نشأة التدريس وإنشاء المدارس فى الإسلام، واستخلصت منها الوظائف المنوطة بها.

وقد انتهيت من هذا البحث إلى التأكيد على حقيقتين، تدعمهما النصوص التاريخية والعناصر المعمارية والتخطيطية، وهما: أولاً، أن «المدارس» استمدت كيانها ونظمها من كيان «المساجد الجامعة»

---

(١) انظر صفحة ١٣٠ فيما بعد.

(٢) انظر صفحة ١٢٨ فيما بعد.

(٣) وكذلك شرحت هذا الموضوع فى البابين الثالث والرابع من كتابى «المسجد الجامع بالقيروان».

(٤) انظر «المدخل».

(٥) انظر «المدخل».

(٦) انظر الحاشية (١) فى صفحة ١٥٩ فيما بعد.

(٧) انظر صفحة ١٣٢ فيما بعد.

ونظمهــا ، هذه مصــدر لتلك ، وتلك حلقة تطور متصلة بهذه ، وثانيــاً أن «المدارس» اتخذت اسمها وتعريفها من البيوت المخصصة فيها لسكنى الشيوخ والفقهاء، لا من قاعات التدريس والمدرسين، وأنها – فى أداء هذه الوظيفة السكنية فحسب – تمتاز عن المساجد الجامعة.

وإنى أود فى ختام هذا التصدير أن أقدم الشــكر إلى «دار المعارف بمصر» على عنايتها وعناية المســئولين فيها بإخراج هذا الكتاب ، كما أشــكر الســيد الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، على المجهود الكبير الذى تبرع به وصرفه فى إعداد فهارس الأجزاء التى ظهرت من هذا الكتاب. وأكرر الشــكر إلى الأســتاذ يوســف شكرى ، رئيس الإدارة الفنية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، على المعاونة المتواصلة التى قدمها لى فى تنفيذ معظم الرسوم الهندسية والزخرفية ، المنشورة فى أجزاء هذا الكتاب وعلى غلافاته.

بغداد فى
ذى الحجة سنة ١٣٨٨هـ
مارس ١٩٦٩م

دكتور أحمد فكرى
أستاذ تاريخ الحضارة الإسلامية
بجامعة الإسكندرية (سابقًا)
وأستاذ الآثار الإسلامية بجامعة بغداد

الفصل الأول

القاهرة فى العصر الأيوبى

١ - امتداد القاهرة وحدودها الأيوبية.

٢ - ازدهار القاهرة وفنونها فى العصر الأيوبى.

الفصل الأول

القاهرة فى العصر الأيوبى[1]



امتداد القاهرة

تفتحت للقاهرة آفاق جديدة بتولى صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة فى ٢٣ جمادى الآخرة من سنة ٥٦٤هـ / ٢٤ مارس ١١٦٩م على عهد الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله. ويعتبر هذا التاريخ بداية فعلية للدولة الأيوبية، وإن كان عهد الدولة الفاطمية لم ينته إلا بعد ذلك بثلاث سنوات، فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ / ١٣ سبتمبر ١١٧١م وهو اليوم الذى توفى فيه العاضد، آخر خلفاء هذه الدولة.

ويرجع الفضل فى قيام الدولة الأيوبية إلى شخصية صلاح الدين وعبقريته وإقدامه ومقدرته الحربية وجهاده المتواصل. ولم يكن لصلاح الدين من العمر حين تولى الوزارة غير ست وعشرين سنة، وكانت الخمس والعشرون سنة التى تولى الحكم فيها حتى وفاته فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ / ٤ مارس ١١٩٣م حلقة ممتدة من الحروب والفتوحات اتسعت بها حدود الدولة حتى

---

(١) أهم مراجع تاريخ القاهرة فى العصر الأيوبى هو كتاب «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار فى مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار» المشهور بـ «الخطط»، لمؤلفه المقريزى (الشيخ تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر)، المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م والمعروف بالمقريزى، جزءان، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م. وأهم مراجع تاريخ الدولة الأيوبية هو كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمؤلف نفسه، المقريزى، وقد بدأ نشر هذا الكتاب فى سنة ١٩٤٣م الدكتور محمد مصطفى زيادة، وظهر منه جزءان فى ستة أقسام إلى سنة ١٩٥٨م، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكتاب «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» لمؤلفه ابن واصل (جمال الدين أبو عبد الله)، المتوفى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م، والذى بدأ نشره المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال فى سنة ١٩٥٣م، وظهر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء، القاهرة، ١٩٥٣م - ١٩٦٠م. وكتاب «الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية» لمؤلفه أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى) المتوفى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م، تحقيق الدكتور محمد على أحمد ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٢م.

وفى كتاب «مصر فى عصر الأيوبيين» تأليف الدكتور السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٦٠م، وهو تاريخ موجز للعصر الأيوبى، بيان بالمراجع الهامة التى سنشير إلى معظمها فى حواشى هذا الكتاب؛ كما سنشير إلى المراجع الخاصة بآثار القاهرة فى العصر الأيوبى.

شملت اليمن والشام وشمال الجزيرة، واستردت أهم المراكز التى كان يحتلها الصليبيون، بعد أن أخرجهم الملك الناصر صلاح الدين من بيت المقدس فى شهر رجب سنة ٥٨٣هـ / أكتوبر سنة ١١٨٧م[1].

وبالرغم من أن تلك الحروب والفتوحات قد اضطرت صلاح الدين إلى التغيب طويلاً عن عاصمة ملكه، إذ إن إقامته فيها لم تزد على ثماني سنوات، إلا أن عهده قد أضفى على القاهرة طابعًا بقيت مطبوعة به أكثر من سبعة قرون، وظلت ذكراه فيها قائمة إلى اليوم أكثر من أىٍّ من حكامها السابقين واللاحقين، حتى إنها طغت على ذكر منشئها، المعز لدين الله،

(١) تولى صلاح الدين الحكم على الديار المصرية فى جمادى الآخرة من سنة ٥٦٤هـ / مارس ١١٦٩م باعتباره وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد، وذلك خلفًا لعمه شيركوه. ثم إن صلاح الدين كان يتولى الحكم نيابة عن السلطان نور الدين زنكى منذ وفاة العاضد فى المحرم من سنة ٥٦٧هـ / سبتمبر ١١٧١م واستقل بهذا الحكم بعد وفاة السلطان نور الدين فى شوال من سنة ٥٦٩هـ / يونية ١١٧٤م. ولم يلبث أن توطد ملكه منذ بعث إليه الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله، فى رمضان من سنة ٥٧٠هـ / مايو ١١٧٥م تقليدًا يفوض إليه فيه «سلطنة بلاد مصر والشام» واليمن والمغرب «وكل ما يفتحه بسيفه».

وفى سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م توفى صلاح الدين، فخلفه على حكم مصر ابنه الملك العزيز عثمان الذى مات فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م، وتولى الحكم بعده ابنه الملك المنصور، ولكنه خلع بعد سنة وبضعة أشهر من ولايته، وتبوأ العرش الملك العادل سيف الدين، أخو صلاح الدين، وكان العادل من قبل نائبًا عن صلاح الدين فى حكم مصر فى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ثم أتابكا للملك العزيز عثمان فى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م، ثم ملكًا على الكرك فنائبًا عن الملك المنصور بن العزيز الذى كان طفلاً فى العاشرة من عمره يوم وفاة أبيه فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م، فخلعه العادل واستقل بملك مصر وبقى على كرسى السلطنة ثمانى عشرة سنة إلى أن مات فى سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م، فخلعه ابنه السلطان الملك الكامل الذى دامت أيام ملكه عشرين سنة. وتولى من بعده ابنه الملك العادل الصغير، ولكنه خلع بعد سنتين، وبويع بالملك أخوه الصالح نجم الدين فى سنة ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م ومات بعد ذلك بعشر سنوات، فى شعبان ٦٤٧هـ / نوفمبر ١٢٤٩م، وخلفه ابنه توران شاه الذى دبرت شجرة الدر، زوجة أبيه، بالاتفاق مع مماليك الملك الصالح مؤامرة لقتله. وكان نجاح هذه المؤامرة، ومصرع توران شاه فى ٢٧ المحرم سنة ٦٤٨هـ / ٣٠ أبريل ١٢٥٠م نهاية لحكم الدولة الأيوبية فى مصر، ذلك الحكم الذى دام ما يقرب من ثمانين سنة، وهى فترة من تاريخ مصر شملها الاطمئنان والاستقرار النسبى، وازدهرت فيها التجارة وانتشرت مظاهر الرخاء. وكان أهم حدث سياسى اجتماعى فى تاريخ هذه الفترة هو الانقلاب المذهبى، وتحول دين الدولة الرسمى من الشيعة إلى السنة.

وامتاز تاريخ الدولة الأيوبية من الناحيتين السياسية والدينية كذلك بالجهاد ضد الفرنج والصليبيين لإخراجهم من البقاع الإسلامية التى كانوا يحتلونها فى القدس والشام، ذلك الجهاد الذى امتد طوال حياة هذه الدولة، والذى أسفر، أولاً، عن الانتصار العظيم فى موقعة حطين فى ٢٥ ربيع الآخرة من سنة ٥٨٣هـ / ٤ يوليو ١١٨٧م. وأعقب ذلك الانتصار استرداد القدس ودخول صلاح الدين منتصرًا فيها فى ٢٧ رجب من السنة نفسها / ٢ أكتوبر. وأسفر ذلك الجهاد، ثانيًا، عن صد الصليبيين فى حملتهم الخامسة عن الديار المصرية، وانتصار السلطان الملك الكامل انتصارًا عظيما فى المنصورة فى ٧ من رجب سنة ٦١٨هـ / ٨ سبتمبر ١٢٢١م. ويشوب تاريخ هذه الدولة أنه كان سلسلة متصلة من الصراع بين أمرائها فى الشام من جهة، وبين ملوكها فى مصر من جهة أخرى، ذلك الصراع الذى كان من أخطر الأسباب التى أدت إلى انحلال الدولة الأيوبية ونهايتها.

إذ إن صلاح الدين رسم لتطورها العمرانى خطوطًا واتجاهات تابعتها منذ ذلك الحين، وجعلت منها أعظم عاصمة فى البلاد العربية جميعًا، وفى منطقة الشرق بأسرها.

كان أول أمر أولاه صلاح الدين عنايته هو أن يربط بين القاهرة وشقيقتها الكبرى الفسطاط، ويفتح ما بينهما من أبواب، ويزيل الفوارق والعوائق، ويملأ الفضاء الذى كان قائمًا بينهما بالعمران. وما كادت تمضى سنتان على توليه الوزارة حتى شرع فى تجديد أسوار القاهرة الفاطمية. كان ذلك فى سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م وبعد ذلك بسنتين تولى تعمير مسجد عمرو العتيق بالفسطاط. وفى سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م، أمر صلاح الدين ببناء «سور يحيط بالقاهرة ومصر وقلعة الجبل، وأقام على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى، فشرع فى بناء قلعة الجبل وعمل السور وحفر الخندق حوله»[١].

وكانت أعمال صلاح الدين هذه ترمى إلى غرضين: الغرض الأول تحصين العاصمة تحصينًا محكمًا ضد احتمال هجوم الصليبيين، والغرض الثانى إقامة مدينة محصنة، أو قلعة داخل حدود العاصمة نفسها لحماية السلطان، فى حالة قيام فريق من أهلها بالثورة أو العصيان. ولهذا كان مشروع صلاح الدين يتضمن تزويد هذه المدينة بجميع حاجيات الوالى وحاشيته وعسكره، وإعدادها بحيث تضم - بجوار القصور والمعسكرات والإصطبلات - المساكن والمتاجر. وكان المفروض كذلك أن تحاط القلعة نفسها بأسوار تحميها من جميع الجوانب، بما فى ذلك الجانبان اللذان تطل منهما على مصر والقاهرة.

غير أن صلاح الدين ظل يقيم بدار الوزارة التى كان قد سكنها فى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م[٢]، ولم ينزل بالقلعة الجديدة التى أنشأها، ولا بقصر الخلافة فى القاهرة، بالرغم من استيلائه

---

(١) انظر صفحة ٢٣٣ من الجزء الثانى من كتاب «الخطط» لمؤلفه المقريزى. وكان لصلاح الدين فرقة خاصة من الحرس سميت «الصلاحية» وذلك - بالإضافة إلى الفرقة «الأسدية» التى كان قوامها ٥٠٠ مملوك والتى كان قد كونها أسد الدين شيركوه. وقد اختار صلاح الدين من فرقة «الصلاحية» أحد مماليكه المدعو «قراقوش» وعهد إليه بأعمال البناء فى القاهرة ويذكر المقريزى فى صفحة ٢٠٤ من الجزء الثانى من «الخطط» أن قراقوش هذا كان يستخدم فى أعمال البناء «خمسين ألف أسير» وأنه كان يجلب الحجارة من أهرامات صغيرة بالجيزة.

(٢) كان صلاح الدين قد قدم مصر مع عمه شيركوه فى الحملة التى كان يقودها ضد الصليبيين من قبل السلطان نور الدين زنكى، والتى كان من نتيجتها انسحاب الملك (آمورى) بجيشه، ومصرع شاور، وزير الخليفة الفاطمى العاضد، الذى قلد شيركوه الوزاره عقب ذلك، ومات شيركوه بعد ذلك بشهرين فى ٢٢ جمادى الآخرة من سنة ٥٦٤هـ / ٢٣ مارس ١١٦٩م، وكان قد عهد إلى ابن أخيه، صلاح الدين، قبل وفاته بالتصرف فى كل أمور الدولة، ولم يلبث الخليفة العاضد أن قلده الوزارة، وتلقب بالملك الناصر صلاح الدين.

على هذا القصر بعد موت العاضد[1]. ويقال: إنه مع هذا كان يذهب إلى القلعة للإقامة فيها أيامًا[2]، وكانت دار الوزارة الفاطمية تسمى فى العهد الأيوبى بالدار السلطانية، وقد نزل بها من بعد صلاح الدين، ابنه الملك العزيز، فابنه الملك المنصور محمد، ثم أخوه الملك العادل، فابنه الملك الكامل[3].

وكان الملك الكامل هذا هو أول من انتقل من القاهرة، وأقام بالقلعة وسكنها مع أهله وحاشيته. وكان انتقاله هذا فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م أيام كان نائبًا عن أبيه الملك العادل[4]. ثم سكن القلعة الملوك من بعد الكامل إلى عهد المقريزى[5] بل إلى عهد محمد على. أصبحت القلعة إذن منذ أيام الكامل، ولأكثر من ستة قرون مقر الملك، ومدينة هامة. وقد ذكر السيوطى أن «حاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام: الفسطاط، وهى بناء عمرو بن العاص، وهى المسماة عند العامة بمصر العتيقة، والقاهرة، بناها جوهر القائد لمولاه الخليفة المعز، وقلعة الجبل، بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين بن المظفر يوسف بن أيوب»[6]، والواقع أن القلعة لم تصبح مدينة عظيمة – على حد قول السيوطى – إلا فى عصر المماليك.

كان مشروع صلاح الدين فى توسيع القاهرة عظيمًا. وقد تم فى عهده من هذا المشروع تعمير أسوار بدر الجمالى وتكملتها ومد حدودها الشمالية غربًا من باب القنطرة إلى باب الشعرية فباب البحر شكل (١)، وهناك بنى «قلعة المقس وهى برج كبير وجعله على النيل»[7]. وكان هذا البرج يعرف بقلعة قراقوش. وتم كذلك مد الأسوار شرقًا فجنوبًا، ممايلى باب النصر إلى

(١) انظر صفحتى ٦١ و ٦٢ من الجزء الأول من «الخطط» لمؤلفه المقريزى، وكان موت العاضد فى ١٠ المحرم من سنة ٥٦٧هـ / ١٣ سبتمبر ١١٧١م.

(٢) انظر صفحة ٢٠٣ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٣) انظر صفحتى ٣٦٤ و ٤٣٨ من الجزء الأول من «الخطط».

(٤) نقلاً عن كازانوفا، «تاريخ قلعة القاهرة ووصفها»، صفحة ٥٧٣ الحاشية رقم (٢):

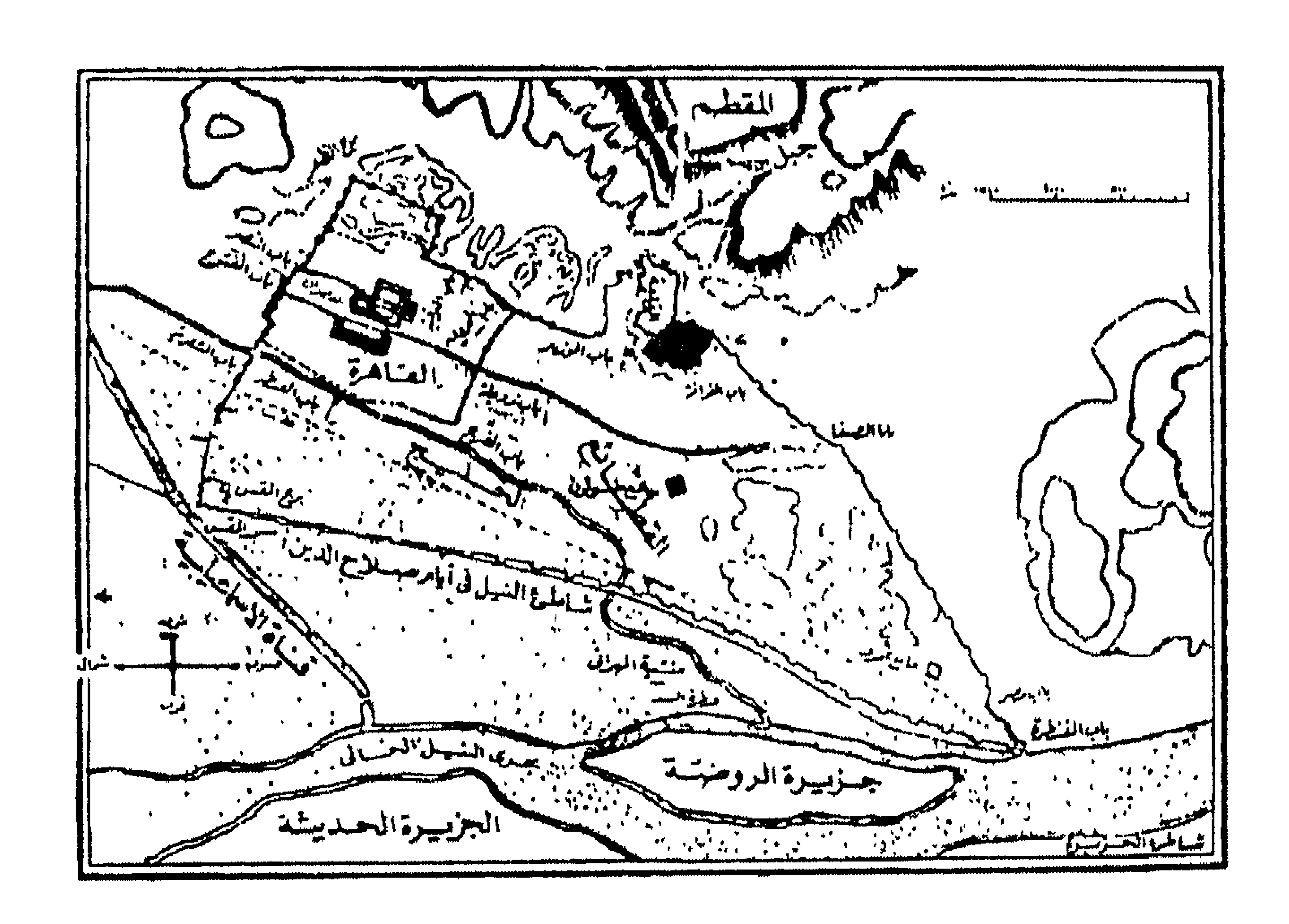
CASANOVA. P . Histoire Et Description de la Citadelle du Caire. Mémoires publiés par les Membres de la Mission Archéologique Française au Caire. Tome VI. 1894 pp 509-781.

(٥) انظر صفحة ٣٤٨ من الجزء الأول من «الخطط».

(٦) انظر صفحة ٢٣٥ من الجزء الثانى من كتاب «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» لمؤلفه السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)، المتوفى سنة ٩١١هـ / ١٦٠٥م، جزءان. طبع بالمطبعة الأميرية، ببولاق ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م.

(٧) انظر صفحة ٣٧٩ من الجزء الأول من «الخطط»

باب البرقية[1] وإلى خارج باب الوزير فأسوار القلعة نفسها. وكان مشروع صلاح الدين يشمل إحاطة الفسطاط بسور جنوبى يضم العسكر والقطائع ويمتد إلى القلعة، وبسور غربى يمتد على ضفاف النيل حتى يصل إلى برج المقس. ولكن هذا السور الأخير لم يشيد اكتفاء بجسر النيل، أما السور الجنوبى فقد كتب المقريزى عنه أنه لم يتهيأ لصلاح الدين «أن يصل سور قلعة الجبل بسور مصر»[2]، وإن كانت الحفائر الأثرية قد دلت على أن جزءًا من هذا السور قد أقيم فعلاً. كما دلت هذه الحفائر على أن الأسوار الشرقية أقيمت أيضًا، وقد تبقى منها برج الظفر، كما كشف منذ سنوات قلائل عن جزء كبير منها. وكانت آثار هذه الأسوار الشرقية ظاهرة فى عهد المقريزى «لمن تأملها فيما بين آخر السور إلى جهة القلعة»[3].



شكل (١) - حدود القاهرة فى العصر الأيوبى

(١) انظر شكل (٢) من الجزء الأول، العصر الفاطمى، من «مساجد القاهرة ومدارسها» للمؤلف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥م.

(٢) انظر صفحة ٣٨٠ من الجزء الأول من «الخطط».

(٣) انظر الصفحة المشار إليها فى الحاشية السابقة.

غير أن المقريزى يقرر أن هذا السور الشرقى «لم يكمل له»[1] و لم يتح لصلاح الدين أن يرى تتمة الأعمال التى أمر بها، ولكن العادل، ومن بعده الكامل، واظبا على تعهد هذه الأعمال، وأتما جزءًا كبيرًا من مشروع صلاح الدين، وكان هذا المشروع يشمل أيضًا حفر خندق عميق ممتد يحيط بالأسوار الشمالية والشرقية. وقد شاهد المقريزى «آثار الخندق باقية، ومن ورائه سور بأبراج له عرض كبير مبنى بالحجارة، إلا أن الخندق انطمّ، وتهدمت الأسوار التى كانت من ورائه»[2]. وكان هذا الخندق طبيعيًا فى مناطق منه، وحفر الجزء الباقى فى العصر الأيوبى، وكان من شأنه أن يزيد فى مناعة الأسوار، بالإضافة إلى المرتفعات الصخرية التى كانت تحد أجزاءً منها، جنوبًا وشرقًا.

ويغلب على الظن أن صلاح الدين قد سجل تواريخ أعماله وما تم منها أولا بأول. وقد تبقى من هذه النقوش المسجلة لوحتان، إحداهما على باب القرافة، وهو الباب الوسيط الشرقى من قلعة الجبل، والثانية داخل باب المدرّج، وهو الباب الشمالى المقابل لباب القرافة، الأولى من سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م، والثانية من سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م[3].

مات صلاح الدين قبل إتمام مشروعه، وكمّل الملك العادل الأجزاء التى كانت تجرى فيها الأعمال، فأتم السور الشرقى، وبهذا كملت أسوار قلعة الجبل. ولكن الملك الكامل هو الذى اهتم بعمارة القلعة، «عمارة أبراجها البرج الأحمر وغيره، فكملت فى سنة أربع وستماية وتحول إليها من دار الوزارة»[4]. وأنشأ الكامل فيها فيما أنشأ وفيما نعرفه، إيوانًا أو قصرًا، وباب السر الذى كان يصل بين هذا القصر وقلعة الجبل، وفتح باب القُلّة بين القلعتين، وشيد أبراجًا فيها وأبراجًا للحمام، وخزانة للكتب ومسجدًا جامعًا وقاعة كان يطلق عليها «قاعة الصاحب»، وإصطبلات للخيل. وأغلب الظن أن الدارين اللتين عمَّرهما السلطان الظاهر بيبرس فيما بعد، وهما «دار الذهب» و «قبة الأعمدة» كانتا قائمتين فى أيام الكامل[5] ولعل دار الأعمدة كانت تضم قبة محمولة على اثنى عشر عمودًا.

---

(١) انظر صفحة ٣٤٧ من الجزء الأول من «الخطط».

(٢) انظر صفحة ٣٨٠ من الجزء الأول من «الخطط».

(٣) انظر نص النقشين فى صفحتى ١٠٨ و ١٢٣ من الجزء التاسع من (كومب) و (سوفاجيه) و (فييت)، «مرجع الكتابات العربية».

COMBE SAUVAGET & WIET, Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. 16 vols. le Caire. 1931 – 1964

صدر الجزء السادس عشر فى سنة ١٩٦٤م بإشراف (اليسيف) و (رايس) و (فييت) = ELISSEEFF RICE, WIET.

(٤) انظر صفحة ٢٠٤ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٥) انظر صفحة ١٩٠ من الجزء السابع من كتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، لمؤلفه أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى)، المتوفى سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م، صدر منه ١٢ جزءًا، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٩م – ١٩٥٦م.

استقرت معالم القلعة فى عهد الكامل، وانقسمت إلى قسمين واضحين، الأول، القلعة، وهو القسم الجنوبى الغربى، وكانت تحوى القصور والدور والخزانات «السلطانية»، والثانى، وهو القسم الشمالى الشرقى، وكان يسمى «قلعة الجبل»، وكانت تضم الجنود ومعسكراتهم ومعداتهم. وكان لكل من القلعتين أسوار وأبراج تحيط بها، وكان يحدهما سور مشترك مازال قائمًا إلى اليوم، وكان يصل بينهما باب عام وباب سرى، شكل (٢).

وأخذت القلعة تتعاظم شأنًا منذ عهد الكامل، وتجرى فيها أعمال التعمير والزيادة. وقد عمر الملك الصالح نجم الدين أيوب أحد قصورها وسماه «القاعة الصالحية»[1]. وتضاعف الاهتمام بالقلعة فى عصر المماليك، ولكن شأنها أخذ يتضاءل فى عهد الأتراك العثمانيين، وشوهت معظم آثارها الأيوبية والمملوكة واختفى كثير من معالمها[2].

---

(١) انظر صفحة ٢١٢ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٢) أخذت المبانى تزداد فى القلعة منذ عهد الكامل، وفى عصر المماليك اهتم السلطان الظاهر بيبرس بمبانيها وبنى بها «دار العدل» فى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م وعمر فيما عمره فيها «الدار الجديدة» فى سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، (صفحة ٢٠٥ من الجزء الثانى من «الخطط»)، وفى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م «شرع السلطان الملك المنصور قلاوون فى عمارة برج عظيم على جانب باب السر الكبير وبنى علوه مشترفات وقاعات مرخمة لم ير مثلها»، انظر (شرحه، صفحة ٢٠٤)، وهو الذى أنشأ بالقلعة «الإيوان»، الذى جدده ابنه الملك الأشرف خليل، ثم هدمه الملك الناصر محمد وأعاد بناءه، انظر (شرحه، صفحة ٢٠٦)، وأنشأ الملك الأشرف خليل هذا فى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م قصرًا سماه «الأشرفية»، كما عمر بها «الرفوف»، انظر (شرحه صفحة ٢١٢).

والمعروف أن أهم الأعمال التى أجريت بالقلعة بعد ذلك تمت فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، فيما بين سنة ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م وسنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١م، وقد بدأ بهدم بعض آثار أسلافه، وأقام عوضًا عنها عمارة عظيمة. وإذا كان لم يتبق من هذه المبانى غير مسجده الفخم، فإن نقوشًا كتابية عديدة على أبواب أبراج فى القلعة مازالت تشهد بأهمية أعماله فيها. وقد ذكر المؤرخون أن القلعة فى عهد الملك الناصر محمد «كملت بمبانيه معانيها»، انظر (أبو المحاسن، «النجوم الزاهرة»، جزء ثالث، صفحة ٣٧٣)، وقالوا إنه شيد بها «القصر الأبلق» من حجارة ثمينة مختلفة الألوان، صفراء سوداء، كما شيد الإيوان الكبير الذى كان يضم حرس السلطان، وكان يجلس فيه أيام المواكب والحفلات.

ويذكر المؤرخون كذلك أنه أجريت بالقلعة أعمال هامة فى عهد السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، الذى أنشأ دار البيسرية فى سنة ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م، وفى عهود السلاطين جقمق، ٨٤٢هـ إلى ٨٥٧هـ/ ١٤٣٨م إلى ١٤٥٣م، والأشرف قايتباى من سنة ٨٧٢هـ إلى ٩٠١هـ/ ١٤٦٨م إلى ١٤٩٦م وجانبولاط، فى سنتى ٩٠٥هـ و ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م و ١٥٠١م، وطومانباى فى سنتى ٩٢٢هـ و ٩٢٣هـ/ ١٥١٦م و ١٥١٧م.

أما ولاة مصر فى عهد الأتراك العثمانيين فقد هدموا بعض مبانى القلعة، ونهبوا أجزاء كثيرة منها، ولكنهم أضافوا إليها مبانى جديدة. وأهم ما تبقى من عهودهم مسجد سيدى سارية، الذى عثر فيه على حجر منقوش عليه بالخط الكوفى اسم هذا الشيخ وتاريخه سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م. وكذلك أقيم برجان عظيمان أمام باب العزب، كانا يواجهان ميدان الرميلة، أقامهما رضوان كتخدا فى سنة ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م.

وقد هدم محمد على القصر الأبلق، ونقل منه أعمدة إلى قصر رأس التين بالإسكندرية، ولكنه أقام عوضًا عنه قصر الجوهرة، كما أنه أقام المسجد المعروف باسمه. =



ازدهار القاهرة وفنونها

بناء القلعة وحده دلالة على ازدهار القاهرة فى العصر الأيوبى، وسنعود إلى التحدث عنها فى الفصل التالى لنوضح أعمال الأيوبيين بها وأهميتها المعمارية. ولكن عمران القاهرة فى ذلك العصر لم يقتصر على أبنية القلعة، فقد أتاح امتداد الأسوار شمالا فغربًا وجنوبًا، وازدياد الروابط بين القاهرة والفسطاط أن تنمو العاصمة نموًّا عظيمًا، وأن تزخر بالدور الفخمة والمنازل الرحبة والمدارس والخوانق والمشاهد والأسواق والحمامات[1]. وقد زار المؤرخ العلامة عبد اللطيف البغدادى القاهرة على عهد الأيوبيين ووصفها وصفًا مسهبًا، وأشار فى هذا الوصف إلى نشاط حركة العمران نشاطًا كبيرًا منتظمًا، وإلى العناية الفائقة ببناء الحمامات التى كانت فسيحة وكانت تحتوى على عدة أحواض ومقاصير، وكان فى وسط كل منها بركة مرخمة «عليها أعمدة وقبة، وجميع ذلك مزوق السقوف، مبيض الجدران»[2]. وكانت المارستانات منتشرة، ومنظمة تنظيمًا دقيقًا، بحيث كان المرضى يلقون رعاية تامة داخلها وخارجها.

وسنرى فيما بعد مدى اهتمام الأسرة الأيوبية وصلاح الدين بصفة خاصة بالتعليم وإنشاء المدارس، وكان لذلك أثر بالغ فى نشر المذاهب السنية ومكافحة الشيعة وتبع الاهتمام بالتعليم ظهور طبقة من الفقهاء وعلماء الدين والأدباء كان من بينهم ابن زين التجار والشريف القاضى

= وأصيبت القلعة وقلعة الجبل فى القرنين التاسع عشر والعشرين باحتلال الجيوش الأجنبية والمصرية لها، وإقامة مبان حديثة فيها وتحوير بعض مبانيها القديمة وإهمال البعض الآخر، مما شوه كثيرًا من معالمها القديمة. وتعنى مصلحة الآثار منذ سنوات بصيانة آثار القلعة وإظهار ما خفى من معالمها. وتجد وصفًا مفصلا للقلعة كما كانت تبدو عليه فى أوائل القرن التاسع (الخامس عشر الميلادى) فى كتاب «الخطط» للمقريزى، الجزء الثانى صفحة ٢٠٣ و ٢٠٤، وفى الجزء الثالث من كتاب «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»/ صفحات ٣٧٢ إلى ٣٧٩. لمؤلفه القلقشندى (الشيخ أبو العباس أحمد)، المتوفى سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨م، ١٤ جزءًا، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩١٣م – ١٩١٩م.

(١) انظر صفحة ٣٧٨ من الجزء الأول من «الخطط»، وصفحة ٣٧٠ من الجزء الثالث من «صبح الأعشى» للقلقشندى.

(٢) انظر صفحة ٣٩ وما يليها من كتاب «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، لمؤلفه البغدادى (موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن أبى سعد) المتوفى سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م، القاهرة، ١٨٧٠ والعرينى، «مصر فى عصر الأيوبيين»، صفحة ٢١٣.

العسكر[1]. وكان القاضي الفاضل أكثر الكتاب شهرة، وله رسائل بديعة الصياغة وتعليقات وقصائد مشهورة. وقد توفى سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م. وظهر من الشعراء جمال الدين بن مطروح وبهاء الدين زهير وابن قلاقس وابن الفريد وابن سناء الملك، الذى اشتهر بالموشحات[2].

وإذا كانت القاهرة قد ازدهرت ازدهارًا عمرانيًا كبيرًا فى العصر الأيوبى فإنه مما يؤسف له أن بعضًا من هذا الازدهار قد سبقه أو تبعه انهيار قطاع كبير من التراث الفنى والمعمارى الفاطمي. وكان صلاح الدين نفسه أول من قرع معاول الهدم فيها، إذا إنه نزل بدار الوزارة التى كان أمير الجيوش بدر الجمالى قد ابتناها لنفسه بالقرب من باب النصر، والتى سميت فى العصر الأيوبى بالدار السلطانية[3]. وظلت مقرًا للملك، إلى أن تحول عنها السلطان الملك الكامل فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م، وسكن قلعة الجبل وجعلها مقرًّا للسلطنة[4]. وكان من جراء ذلك أن القصر الشرقى الفاطمى، قصر المعز لدين الله، «خلا من ساكنيه حتى خرب»[5]، وكان صلاح الدين قد هدم جزءًا منه وبنى عليه البيمارستان[6]، وكان مصير القصر الغربى، قصر العزيز بدين الله، مثل ذلك المصير. إذ إن صلاح الدين أنزل «الغزّ» به فى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وبنى به هؤلاء «إصطبلات» وسكنوها[7].

وأخذت معالم القصرين تختفى منذ ذلك التاريخ، وتبعتهما الدور الفخمة والقصور الفاطمية اليانعة، حتى لم يتبق من آثار الفاطميين غير ما أشرنا إليه فى الجزء الأول من هذا الكتاب[8].

---

(١) انظر صفحة ٣٦٤ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٢) امتد زهاء القاهرة فى العصر الأيوبى إلى بلاد الشام، وظهرت فيها كذلك طبقة من الشعراء والأدباء والمؤرخين نذكر منهم عماد الدين الأصفهانى، المعروف بالعماد الكاتب، صاحب «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» وبهاء الدين ابن شداد، صاحب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، المعروفة بسيرة صلاح الدين، وابن الأثير، صاحب «الكامل فى التاريخ»، وابن الجوزى، صاحب «مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان»، وشهاب الدين أبا شامة، صاحب «الروضتين فى أخبار الدولتين»، وابن واصل، صاحب «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب». وانظر حمزة (عبد اللطيف)، «الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول» القاهرة ١٩٤٧م

(٣) انظر صفحتى ٦١ و ٦٢ من الجزء الأول من «الخطط».

(٤) انظر صفحتى ٣٦٤ و ٤٣٨ من الجزء الأول وصفحة ٢٠٤ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٥) انظر صفحة ٣٥٢ من الجزء الثالث من «صبح الأعشى» للقلقشندى.

(٦) انظر صفحة ٥٥ من الجزء السادس من «النجوم الزاهرة» لأبى المحاسن.

(٧) انظر صفحة ٤٥ من القسم الأول من الجزء الأول من «السلوك» للمقريزى.

(٨) انظر الجزء الأول، (العصر الفاطمى)، من «مساجد القاهرة ومدارسها» للمؤلف.

وكذلك استولى صلاح الدين على كنوز الفاطميين، ووزعها وفرّقها، وقد أورد المؤرخون بيانا بالتحف التى كانت بالقصور الفاطمية، والتى أرسلها صلاح الدين هدية للسلطان نور الدين زنكى فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، وكان من بينها مصاحف من القرآن الكريم «مضبّبة بصفائح ذهب وعليها أقفال من ذهب مكتوبة بخط ذهب». وكان من بينها كذلك قطع من البلّور وأباريق محلاة بالمينا المذهبية وأوان فاخرة عظيمة القدر، وغير ذلك «مما قدر قيمتها بمائتى ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار»[1]. وقيل إن صلاح الدين قد وجد فى خزائن القصر «من الأعلاق الثمينة والتحف ما يخرج عن حد الإحصاء»[2].

وقد وصف المؤرخون كذلك مكتبة القصر الفاطمى ومحتوياتها النفيسة وذكروا أن صلاح الدين أمر ببيعها، وأن البيع استمر عشر سنوات، حتى لم يبق منها شيء[3].

وبالرغم من كل ذلك فقد ظلت الفنون مزدهرة فى العصر الأيوبى، وظلت الأساليب الفنية الفاطمية متبعة فى كثير من الصناعات، وخاصة فى أوائل ذلك العصر، ولعل خير ما يعبر عن ذلك المجموعات الهائلة المتخلفة من شبابيك القلل. غير أن العصر الأيوبى امتاز بانتشار الخط النسخى فى النقوش الحجرية والخشبية، كما امتاز فى زخارفه النباتية بمزيد من العناية بإظهار الدقة والإتقان، وخاصة فى التحف الخشبية. وقد سبق أن أشرنا إلى ازدهار هذه الصناعة فى العصر الفاطمى وإلى ظهور أسلوب جديد، يتمثل فى محراب السيدة رقية[4]، يتكون من حشوات مجمعة فى أشكال هندسية، مضلعات مختلفة التنسيق، يتشكل من اجتماع أطرافها أشكال نجوم، نحتت مع مسطحاتها زخارف نباتية من خطوط رقيقة، تتخللها أشكال وريقات العنب وعناقيده وحباته.

---

(١) انظر صفحات ٥٤ و ٥٥ من القسم الأول من الجزء الأول من «السلوك» للمقريزى. ومما ذكره المقريزى فى صفحة ٤٥ من نفس الكتاب أنه كان بحاصل القصر الغربى الصغير «مائة صندوق كسوة فاخرة، ما بين موشح ومرصع، وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة وغير ذلك من ذخائر عظيمة»، كل ذلك وزع وفرق.

(٢) انظر صفحة ٤٧٨ من الجزء الثالث من «صبح الأعشى» للقلقشندى، ومما ذكره أبو المحاسن، فى صفحة ٢١ من الجزء السادس من «النجوم الزاهرة»، أن صلاح الدين قد أرسل إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله «من ذخائر مصر وأسلاب المصريين شيئًا كثيرًا».

(٣) جاء ذكر ذلك تفصيلاً فى صفحة ٢٨٦ وما يليها من القسم الثانى من الجزء الأول من كتاب «الروضتين فى أخبار الدولتين» لأبى شامة وكذلك فى صفحات ٢٥٣ إلى ٢٥٥ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٤) انظر حاشية (١)، ولوحة رقم ٧٦ من الجزء الأول، (العصر الفاطمى)، من «مساجد القاهرة ومدارسها».

وقد تخلف من العصر الأيوبى تحف خشبية رائعة، صناعة وزخرفًا، منها تابوت المشهد الحسينى بالمتحف الإسلامى بالقاهرة، لوحة رقم (١)، وتابوت زوجة الملك العادل بقبة الإمام الشافعى. وأكثرها شهرة وأهمية تابوت الإمام الشافعى، وعليه نص بتاريخه فى سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م، واسم صانعه عبيد النجار المعروف بابن معالى. وعلى هذا التابوت زخارف غاية فى الإبداع، وكتابة تارة بالخط النسخى، وتارة بالخط الكوفى المزهر[١]. وبالمتحف الإسلامى بالقاهرة مصراعًا باب تخلفا عن المدرسة الصالحية صنعا كذلك من حشوات خشبية مزخرفة، وحليت واجهتهما بصفائح من النحاس[٢]. وازدهرت كذلك صناعة العاج، امتدادًا لازدهارها فى العصر الفاطمى، غير أن زخارفها اقتصرت على الأشكال النباتية والهندسية، ولم يعن فيها بتمثيل الحيوان والإنسان، كما كان متبعًا فى ذلك العصر.

أما التحف المعدنية[٣]، فكان لها شأن كبير يرجع إلى هجرة عمال هذه الصناعة من الموصل إلى القاهرة ودمشق. وقد تخلفت من ذلك العصر تحف تضمها المتاحف العالمية، والمجموعات الفردية، أهمّها صينية من النحاس رائعة الزخارف، مكفتة بالفضة عملت للملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل، أو برسم «الطشت خاناه العادلية»، وهى تحمل اسم صانعها: أحمد بن عمر المعروف بالزكى النقاش، وهى محفوظة بمتحف اللوفر فى باريس، وتاريخها حوالى سنة ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م. ويعرف للزكى النقاش هذا تحفة أخرى بالمتحف البريطانى فى لندن، عبارة عن إبريق من النحاس يحمل اسمه، وتاريخه سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م، مما يدل على أن نشاط مصنعه كان مستمرًا فترة طويلة. وبمتحف المتروبيلتان فى نيويورك إبريق معدنى من عصر السلطان الملك الكامل مكفت بالفضة، تجرى على جداره زخارف نباتية تتخللها رسوم آدمية وأشكال هندسية، وتدور حوله إزارات كتابية نسخية وكوفية، سجل عليها تاريخ صناعته فى سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م، واسم صانعه عمر بن الحاجى جلدك «غلام أحمد الزكى»، وهو تلميذ النقاش أحمد بن عمر.

---

(١) انظر فى صفحات ١٩٠ إلى ٢٠١ من المرجع السابق دراسة لتطور الخط الكوفى.

(٢) انظر (بوتى)، «الأخشاب المنحوتة» و (فايل)، «الأخشاب المنقوشة بالكتابات»:

PAUTY (Edmond). Les Bois Sculptés jusqu'*á* l'Epoque Ayyoubide, (Catalogue Général du Musée Arabe du Caire), Le Caire, 1931

WEILL (Jean David), Les Bois á Epiqraphes jusqu'á L'époque Mamlouke, (Catalogue Général du Musée Arabe du Caire), Le Caire, 1931.

(٣) انظر (فييت)، «التحف المعدنية»:

WIET (Gaston) Objets en Cuivre, (Catalogue Général d Musée Arabe du Caire), Le Caire. 1932.

وبمتحف بوسطن شمعدان من النحاس المكفت بالفضة، من عصر الملك الكامل كذلك، تجرى عليه زخارف بديعة من التوشيح العربى، تتداخل فى أشكال آدمية وحيوانية، وسجل عليه تاريخ صناعته فى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م. وبالمتحف البريطانى فى لندن أسطرلاب من العصر نفسه نقش عليه سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م، واسم صانعه: عبد الكريم المصرى الأسطرلابى. وقد أحيطت الأشكال الفلكية فيه بزخارف محزوزة، وأخرى مكفتة بالفضة، تنبثق منها أشكال من التوشيح العربى المختلطة به رسوم آدمية وحيوانية.

وبالمتحف الإسلامى بالقاهرة صينية سجل عليها اسم السلطان الصالح نجم الدين وألقابه، رسمت عليها صور الكواكب بين الزخارف النباتية والأشكال الآدمية والحيوانية. وتوجد تحفتان نحاسيتان سجل عليهما اسم الملك الكامل محمد، إحداهما صينية فى مجموعة خاصة، تاريخها ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م، والأخرى أسطرلاب فى متحف بورجيا (Borgia)، تاريخه ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م.

وظهرت فى العصر الأيوبى صناعة الزجاج المرصع بالمينا، وهو الذى كانت تحلى به المسطحات الخارجية للأوانى، ومن ذلك قنينة بديعة المظهر والزخرف، محفوظة بالمتحف الإسلامى بالقاهرة، سجل عليها اسم الملك الناصر يوسف الأيوبى، الذى كان سلطانًا لحلب ودمشق، والذى توفى فى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م[1]. وبالمتحف الإسلامى كذلك قنينة ثانية وأجزاء من قنان أخرى، لا يعرف مصدرها ولا تاريخها، ومن المرجح أنها من العصر الأيوبى كذلك.

وكذلك كانت صناعة الخزف مزدهرة. وتخلفت من ذلك العصر أجزاء من أوان بديعة الصناعة تمتاز بالرقة، وتمتاز زخارفها بالأناقة ورشاقة الحركة. ويحتفظ المتحف الإسلامى ببعض قطع رسمت عليها غزلان وأرانب تجرى بين الأزهار، مشقت سيقانها كأنها فروع أشجار وأغصان. وبهذا المتحف قطعة خزفية بديعة رسم على أرضيتها البيضاء، باللونين الأزرق والأسود، قارب ذو شراع بداخله شخصان يبدوان فى مظهر طبيعى وشكل لطيف، لوحة رقم (٢).

ولاشك فى أن صناعة المنسوجات كانت رائجة كذلك، وكانت تتبع التقاليد الفاطمية، وإن كانت لم تصل إلينا منها تحف مشهورة.

---

(١) انظر (فييت)، «مشكاوات وقنان» وخاصة اللوحات ١ و ٢ و ٣:

WIET (Gaston), Lampes et Bouteilles en Verre Emaillé, (Catalogue Général du Musée Arabe du Caire), Le Caire 1929

والحق أن التحف الفنية المتخلفة من العصر الأيوبى قليلة نادرة، نظرًا لقصر هذا العصر الذى لم يمتد أكثر من ثمانين سنة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه التحف لم تدرس بعد دراسة وافية منظمة. وبالرغم من ذلك فإن المتبقى المعروف منها، والذى أشرنا إلى أكثره شهرة وأهمية، يكفى دليلا على أن الفنون الزخرفية والصناعية كانت مزدهرة بالقاهرة فى العصر الأيوبى مثل ازدهارها فى العصر الفاطمى، أو قريبًا من ذلك.

الفصل الثانى

آثار الدولة الأيوبية فى القاهرة

(أ)

بناء القلعة

١ - وصف القلعة وعناصرها المعمارية.

الفصل الثانى

آثار الدولة الأيوبية فى القاهرة



١ بناء القلعة

صحب قيام الدولة الأيوبية نشاط معمارى كبير فى مصر وبلاد الشرق، وأقيمت فى الثمانين سنة التى دام فيها حكم هذه الدولة عدد وافر من العمائر الهامة فى أنحاء الدولة كلها. وقد أشاد المؤرخون بهذه المبانى وسجلوا ماشيده ملوك هذه الدولة وأمراؤها من قلاع وحصون وأسوار وجسور ومساجد ومدارس ومستشفيات ودور وقصور.

وإذا كانت غالبية هذه المبانى قد اندثرت، ولم يبق منها غير قليل، فإنه مما يؤكد روايات المؤرخين عن وفرة النشاط المعمارى فى عهد هذه الدولة كثرة ما تبقى من نقوش كتابية سجلت فيها هذه الأعمال[١]. واحتفظت المتاحف والآثار من هذه النقوش بأكثر من ثلاثمائة نقش مؤرخ عن مبان أنشئت أو جددت فى عصر تلك الدولة. ويذكر المؤرخون أن الأمراء الأيوبيين أنشئوا فى دمشق وحدها خمسين مدرسة وفى مصر والقاهرة عشرين مدرسة[٢]؛ وهذا مثل واحد من نواحى نشاطهم المعمارى.

وكان اهتمام هؤلاء الملوك والأمراء بالعمارة يرجع إلى عاملين رئيسيين: العامل الأول، هو أنه كان للصليبيين معاقل وجيوش فى القدس والساحل الشامى، مما حفز الملوك الأيوبيين إلى تحصين بلادهم وتجديد أسوار مدنها وقلاعها، وتعمير ما كان قد تهدم منها إثر الحروب والحرائق، وإنشاء قلاع غيرها لدرء هجوم الأعداء. أما العامل الثانى، فكان دينيًا. ذلك أن صلاح

(١) انظر (فان برشم)، «موسوعة النقوش العربية»:
VAN BERCHEM (Max). Corpus Inscriptionum Arabicorum. Iére partie. Egpte, Mémoires publiés par les Membres de la Mission Archéologique Francaise au Caire, Tome XIX. Paris. 1894.

وانظر (كومب)، «مرجع الكتابات العربية».

(٢) انظر صفحات ٢٠١ إلى ٢٠٧ من الجزء الثانى من «الخطط».

الدين قضى على الشيعة، وأنه كان حريصا على نشر السنّة، وتبع ذلك اهتمامه واهتمام خلفائه بتجديد المساجد وتعميرها، ورعاية التعليم الدينى بإنشاء المدارس، وإقامة الأضرحة[1].



وصف القلعة وعناصرها المعمارية

القلعة فى شكلها الحالى مدينة عظيمة تحدها أسوار وأبراج ضخمة من جميع الجهات، شكل (٢) ولوحة رقم (٣). وقد وصفها المؤرخون فى عهودهم وصفًا مسهبًا[2].

وهى تنقسم إلى قسمين واضحين: قسم شمالى شرقى، وقسم جنوبى غربى. وتحد كلا من القسمين أسوار من الجهات الأربع، ويتصلان معًا فى جزء مشترك من هذه الأسوار.

وبينما يدل مظهر القسم الجنوبى الغربى دلالة واضحة على أنه قد اشترك فى بنائه وبناء أسواره وأبراجه ولاة متعاقبون منذ عهد الملك صلاح الدين إلى عهد محمد على، فإن مظاهر الأسوار فى القسم الشمالى الشرقى تدل على تناسق فى البناء وعلى انتمائها إلى عصر واحد. وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن هذا القسم أقيم فى عصر الدولة الأيوبية نفسها، وخاصة فى عهود صلاح الدين والعادل والكامل[3]، لوحة رقم (٤).

---

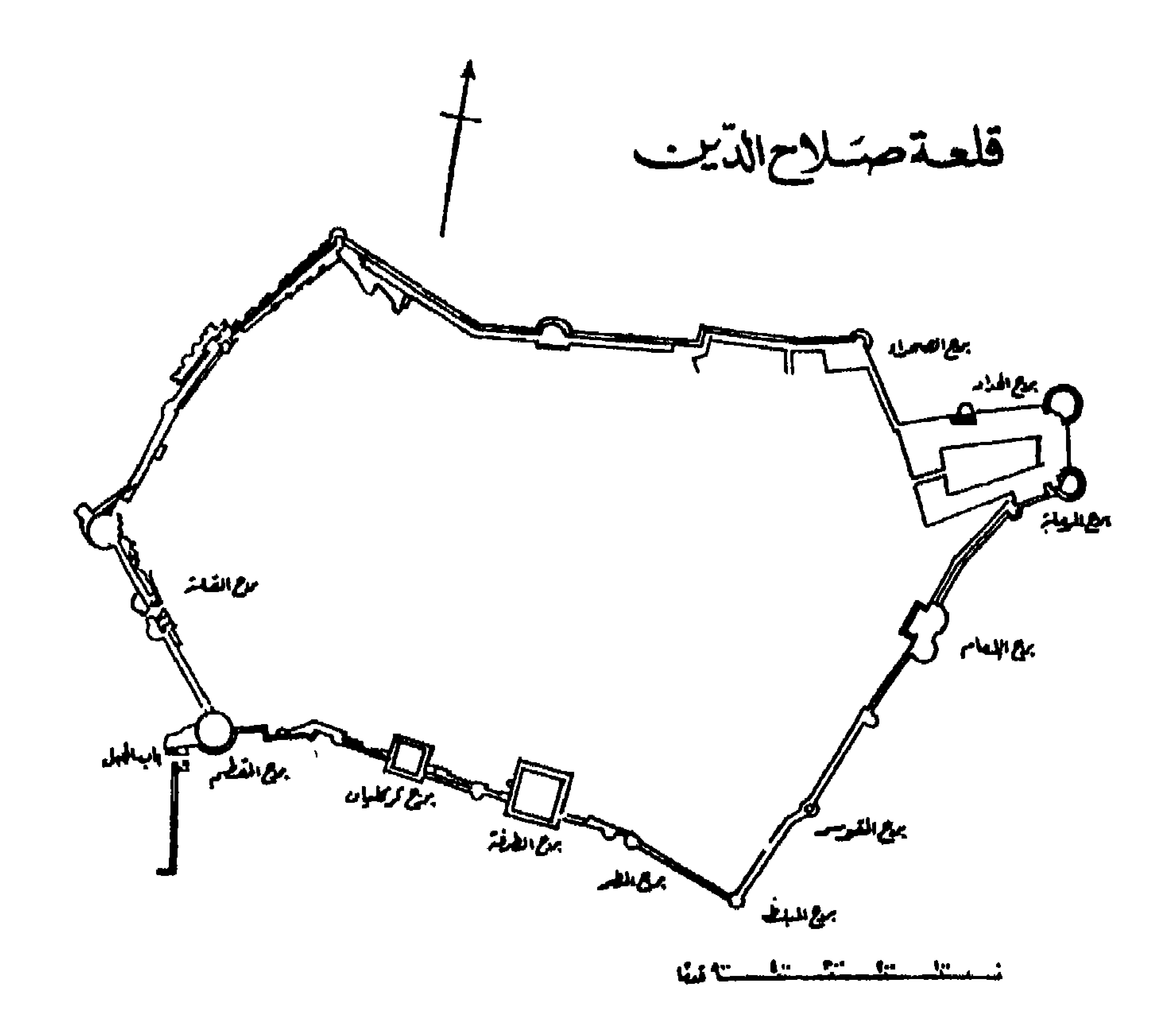
(١) اندثرت كما ذكرنا، معظم آثار الأيوبيين، وتنحصر الآثار المتخلفة فى القاهرة من عهدهم، بالإضافة إلى القلعة وأسوارها، وكذلك المتبقى من أسوار القاهرة (برج الظفر) وأسوار الفسطاط، على ما يلى:

١ – قبة الإمام الشافعى (٦٠٨هـ / ١٢١١م)، ٣ – آثار من إيوان الثعالبة وبوابته (٦١٣هـ / ١٢١٦م)، ٣ – آثار المدرسة الكاملية (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)، ٤ – مئذنة المشهد الحسينى (٦٣٤هـ / ١٢٣٦م)، ٥ – قبة الخلفاء العباسيين (حوالى ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م)، ٦ – المدرسة الصالحية (٦٤١هـ / ١٢٤٣م)، ٧ – ضريح الصالح نجم الدين أيوب (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)، ٨ – قبة شجرة الدر (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)، ٩ – مئذنة زاوية الهنود (نهاية العصر).

هذا وقد جاء فى سجل مصلحة الآثار (فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، مصلحة المساحة سنة ١٩٥١م) أن قبة أبى الغضنفر أسد الفائزى تنتمى كذلك إلى العصر الأيوبى، وقد سبق لنا أن أوضحنا أنها ترجع إلى العصر الفاطمى، انظر الجزء الأول (العصر الفاطمى) من «مساجد القاهرة ومدارسها» للمؤلف. وكذلك سجلت مصلحة الآثار مئذنة الهنود على أنها أول أثر مملوكى، وسترى فيما بعد أنها أقرب إلى العصر الأيوبى.

(٢) انظر، مثلا، المقريزى «الخطط» جزء ثان، صفحتا ٢٠٣، ٢٠٤، القلقشندى «صبح الأعشى»، الجزء الثالث، صفحات ٣٧٢ إلى ٣٧٩.

(٣) أهم الأبحاث الأثرية التى نشرت عن القلعة هى: =



شكل (٢) – رسم تخطيطى لأسوار القلعة وأبراجها (القسم الشمالى الشرقى) – قلعة الجبل

وهذا القسم الشمالى الشرقى ينحصر فى مستطيل غير منتظم الأضلاع يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٥٦٠ مترًا، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٣١٧ مترًا، ومحيطه حوالى ألفى متر، ويمتد السور المشترك بينه وبين القسم الجنوبى ١٥٠ مترا، وهو سور سميك ضخم ينتهى طرفاه ببرجين عظيمين وتتوسطه بوابة كبيرة معروفة باسم «باب القلّة»، أو «برج القلّة»، وتسمى كذلك «البوابة الداخلية»، ويحف بها برجان عظيمان.

= (كازانوفا)، «تاريخ قلعة القاهرة ووصفها»، وصفحات ١ إلى ٦٣ واللوحات ١ إلى ٢١ من الجزء الثانى من كتاب (كريسويل)، «العمارة الإسلامية فى مصر»:
CRESWELL. K. C., Muslim Architecture of Egypt. Vol. 2. Ayyubides and Early Mamelouks. .Clarendon Press. Oxford. 1959

و «قلعة مصر»، لمؤلفه عبد الرحمن زكى، المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩٥٠م.

أما القسم الجنوبى الغربى فهو أصغر قليلاً من القسم الأول وينفصل عنه بزاوية حادة، وشكله غير منتظم، وتبلغ أقصى المسافة فيه من الشمال إلى الجنوب ٥١٠ أمتار، ومن الشرق إلى الغرب ٢٧٠ مترًا. وتختلف أسوار هذا القسم مظهرًا وبناء على أسوار القسم الشمالى، إذ بينما تستند هذه الأسوار على أبراج عديدة مستديرة وشبه مستديرة، فإن أسوار القسم الجنوبى تكاد تمتد على هيئة ستارة لا تعترضها أبراج.

ويظهر الفرق أيضًا من داخل الأسوار، فإن القسم الشمالى يبدو بمظهر قلعة حربية، أما القسم الجنوبى، فإنه مازال يحتفظ بمظهر مدينة ملكية، تحتوى على قصور ومساجد، ويتضح من دراسة أسوار هذا القسم الجنوبى أنها لم تكن قد تمت فى العصر الأيوبى، أو أن المدينة الملكية لم تكن كلها محاطة بأسوار فى ذلك العهد[1].

وهكذا تختلف أسوار القسمين ولا تظهر على صفة متناسقة واحدة. وكان هذا التعارض ظاهرًا فى عهد المقريزى، الذى كتب أن «صفة قلعة الجبل بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى ينتهى إلى القصر الأبلق، ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية، على غير أوضاع أبراج القلاع»[2].

ولهذا كان القسم الشمالى من القلعة يسمى «قلعة الجبل» ويتميز بهذه الصفة عن القسم الجنوبى. والسور الجنوبى لهذا القسم الشمالى من القلعة، يبدأ غربا ببرج مستدير هائل، قطره ٢٤ مترًا، وارتفاعه ٢٥ مترا، يسمى برج المقطم، وهو من العهد العثمانى لوحة رقم (٥ ب). ويتوسط هذا السور ثلاثة أبراج عظام أولها، غربًا، شبه مستطيل، طوله ٣٥ مترًا وعرضه ٢٥ مترًا ويسمى برج «الصُّفّة»، والثانى، مربع، طول ضلعه ٢٠ مترًا، يسمى برج «كركيالان»، لوحة رقم (٥ ب)، والثالث، مربع كذلك، طول ضلعه ٣٠ مترًا، ويسمى برج «الطَّرفة»، وهذه الأرقام تفصح عن ضخامة البناء وعظمته. وينتهى هذا السور الجنوبى شرقًا ببرج شبه دائرى، ويسمى برج «المبلط». ويتخلل السور، بالإضافة إلى هذه الأبراج الأربعة، أبراج أخرى صغيرة نسبيًا، شبه دائرية، عددها أربعة كذلك، يقع أحدها، وهو برج «العلوة»، فيما بين برج «الصُّفة» وبرج «كركيالان»، ويقع الثانى فيما بين هذا البرج الأخير وبرج «الطرفة»، ويقع الاثنان الآخران، وهما متجاوران، فيما بين برج «الطرفة» والبرج «المبلط»، ويطلق عليهما برج «المطر». ويتضح من دراسة عناصر البنيان فى هذه الأبراج الأربعة أنها بنيت فى وقت واحد مع بقية أبراج السور الجنوبى وأسواره.

---

(١) انظر صفحة ٥٧٦ من «تاريخ قلعة القاهرة ووصفها» لمؤلفه (كازانوفا)

(٢) انظر صفحة ٢٠٤ من الجزء الثانى من «الخطط».

ثم إن هذا السور ينحرف عند برج «المبلط»، فيتجه شمالا فى خط شبه مستقيم طوله ١٧٠ مترًا، وهو السور الشرقى لقلعة الجبل، لوحة رقم (٥ أ). ويتخلله برجان شبه دائريين، يسمى أولهما برج «المقوصر»، ثم ينتصب بعدهما برجان آخران، قطاعهما نصف دائرى، وهما المعروفان باسم برج «الإمام» أو «باب القرافة»، لوحة رقم (٦)، وهما برجان بارزان خارج السور، بناؤهما ضخم. ويقوم إلى الشمال منهما برج خامس صغير نصف دائرى كذلك، ويتلوه برج سادس هو برج «الرملة»، لوحة رقم (٤)، قطاعه مثل برج «المقوصر» شبه دائرى. ثم ينتصب أخيرًا برج سابع عظيم آخر، يسمى برج «الحداد»، لوحة رقم (٨)، قطاعه شبه دائرى كذلك قطره ٢٢ مترًا، يقع شمالى برج «الرملة» وعلى بعد ٢٢ مترًا منه، وهذان البرجان الأخيران هما اللذان يحدان الركن الشمالى الغربى من قلعة «الجبل»، لوحة رقم (٤).

أما الضلع الشمالى من الأسوار، فيقوم فيه برجان عظيمان شبه دائريين، يسمى أولهما برج «الصحراء»، وينسب الثانى إلى الملك العادل، كما يقوم فى هذا الضلع برج ثالث نصف دائرى يقع فيما بين برجى «الحداد» و «الصحراء». وأغلب الظن أن برج «الصحراء» وبرج «العادل»، المقابل له فى الركن الشمالى الغربى، قد بنيا من حجارة سبق استعمالها فى مبان أخرى، إذ إن بعض قطع هذه الحجارة مسنمة[1]. والبعض الآخر منها مصقولة.

وتنتمى معظم هذه الأبراج إلى عهد صلاح الدين. وقد أحاط الملك العادل بعضها بأبراج خارجية ملتصقة بها، تزداد بها مناعتها وضخامتها، مثل برج «الإمام»، أو «باب القرافة»، ومثل برجى «الرملة» و «الحداد»، ومثل البرج المربع القائم فى الركن الشمالى الغربى بالقرب من باب «المدرج»، وكذلك أضاف العادل إلى أبراج صلاح الدين برجَىْ «الطرفة» و «كركيالان» وبرجًا ثالثًا فى الركن الشمالى الغربى.

وكان لقلعة «الجبل» بابان رئيسيان، هما باب «المدرج» فى السور الغربى، لوحة رقم (٧)، وكان يسمى أحياناً باب «سرية»، وباب «القرافة» فى السور الشرقى. أى أنه كان للقلعة بابان، أحدهما يؤدى إلى «الدور السلطانية» والمدينة، والآخر إلى خارج البلد أو إلى الجبل. وكان الطريق الذى يؤدى باب «القرافة» إليه طريقًا صعبًا وعرًا. وقد رأينا أن الملك الكامل فتح فى أسوار القلعة بابًا ثالثًا، هو باب «القلّة». وكان هذا الباب يتوسط السور الجنوبى الغربى المشترك بين القسمين، وكذلك جعل الملك الكامل فى هذا السور بابا سريًّا آخر.

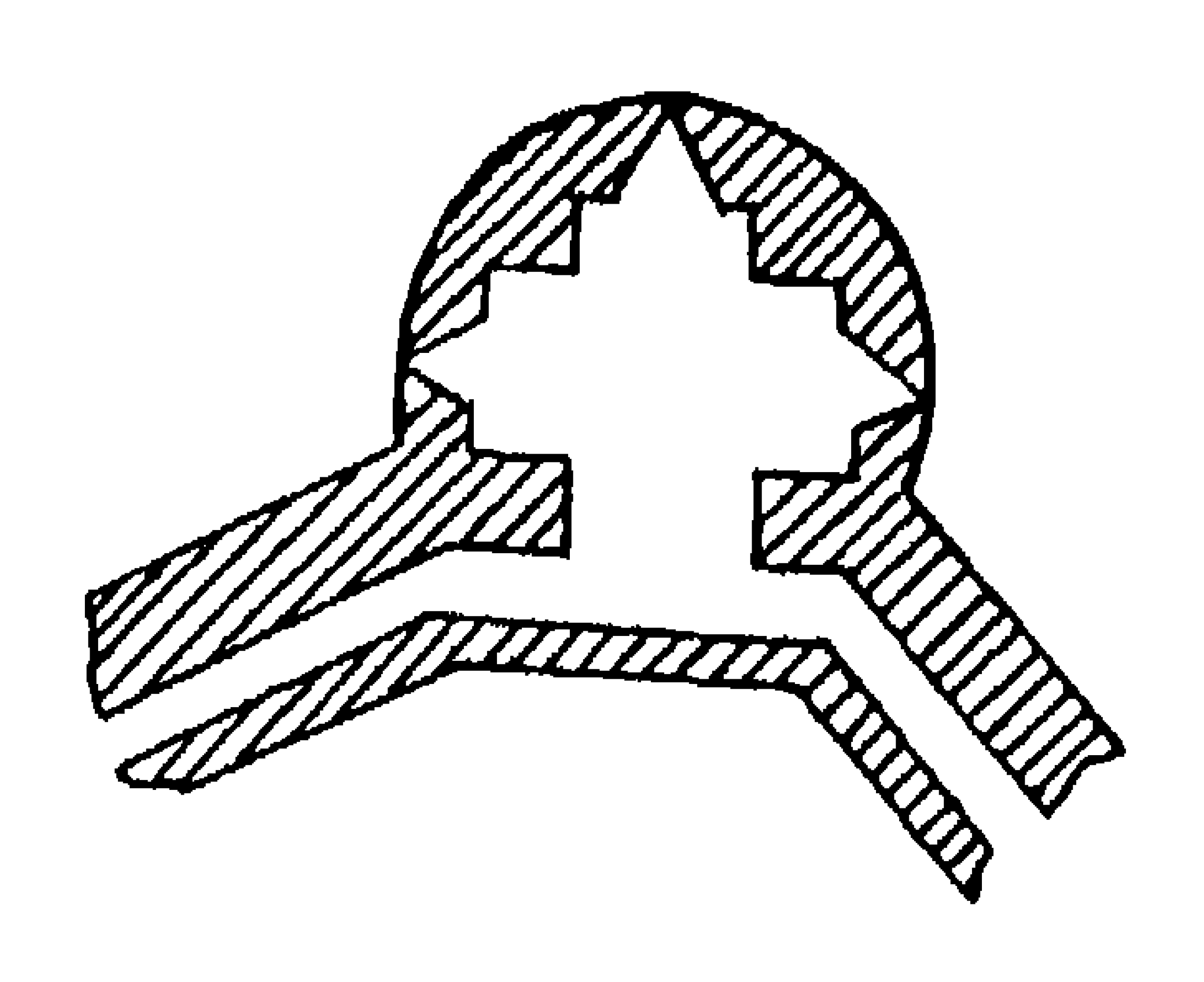
---

(١) الحجارة المسنمة هى المعروفة بالإنجليزية (rusticated) وبالفرنسية (bossage). وهى حجارة منقورة السطح بحيث تظهر عليه كتل بارزة. وكانت مثل هذه الحجارة تستخدم فى البناء من قبل وكانت معروفة فى مصر منذ القرن الأول الميلادى.

وأسوار قلعة الجبل ضخمة يبلغ سمكها ثلاثة أمتار، ويزيد ارتفاعها من الداخل فى المتوسط على عشرة أمتار، كما يزيد ارتفاع الأبراج أحيانا على عشرين مترًا[1]، ويتخللها ممر يبلغ عرضه تسعين سنتيمترًا، يؤدى إلى غرف ضيقة مربعة طول ضلع كل منها متران ونصف المتر، وارتفاعها مثل ارتفاع المر يبلغ مترين وربع المتر، وتبتعد الغرف، الواحدة عن الأخرى، مسافة تتراوح بين ثمانية أمتار ونصف المتر واثنى عشر مترًا، وذلك على امتداد المر. وقد فتحت فى هذا المر، فيما بين الغرف، فتحات عديدة تطل على الداخل كالنوافذ لإضاءته. أما من الخارج فليس فى الأسوار فتحات، فيما عدا فتحات الغرف، وهى التى أعدت على شكل مخروطى لتستخدم منافذ للسهام، ويبلغ عدد هذه المنافذ فى معظم الغرف ثلاثة. وفى الأبراج غرف كذلك، ولكنها مستطيلة وأكبر حجمًا، طولها يزيد على الخمسة أمتار، وعرضها مثل عرض غرف المرات، وتتفتح فى كل منها غرفتان جانبيتان على هيئة ذراعين وبكل منها منافذ للرماح. وكذلك يختلف عددها، وهو فى المتوسط ثلاثة منافذ لكل غرفة، إلا أن هذا العدد يزيد فى بعض الغرف، ويبلغ ستة فى برج «الحداد»، وتسعة فى البرج الشمالى الغربى.

وللممرات سُقُف مسطحة مبنية من كتل حجرية، ترتكز على مساند مثبتة أطرافها الداخلية فى الجدران، وللغرف كذلك سقف مثلها، ولكن كتلها الحجرية تستند على عدد أكبر من المساند، يعلو بعضها الآخر بتدرج عكسى، وأغلب الظن أنه قد مدت سراديب فى الأسوار تحت هذه الممرات. كما أنه مدت من فوقها الممرات العليا المكشوفة. وقد نظمت أدراج فى جهات متباعدة من الممرات الوسطى، وفى الأبراج نفسها، لاستخدامها فى الصعود إلى الممرات العليا والشرفات.

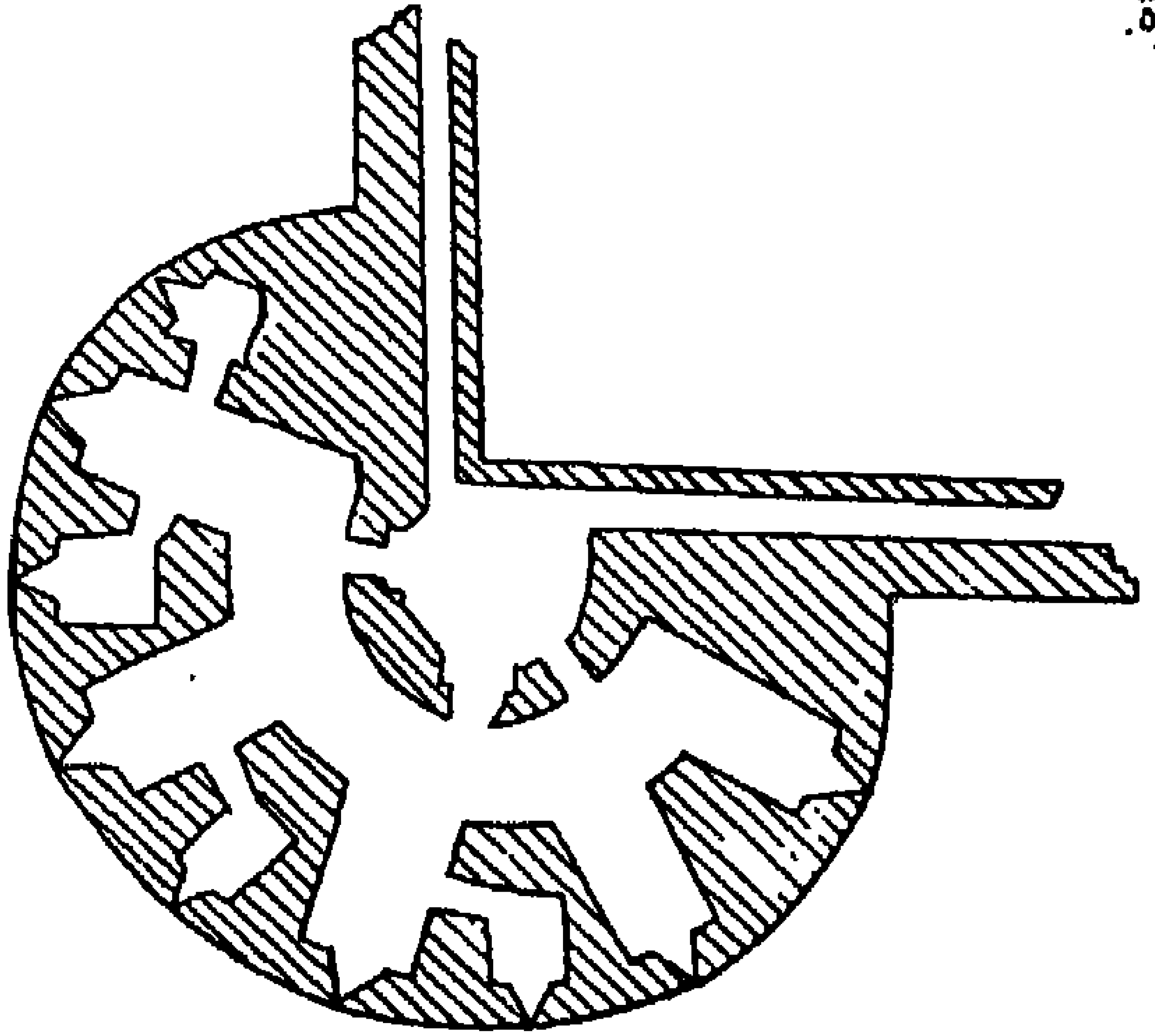
وقد سبق أن أشرنا إلى أن أسوار «قلعة الجبل» تستند على أبراج أقيمت على مسافات متقاربة فى جهاتها المختلفة، وقد أتضح أن الأبراج التى أقيمت فى عهد صلاح الدين تتخذ جميعها شكل أنصاف الدوائر المتكاملة أو المتجاوزة، حسب موقعها من تلك الأسوار، شكل (٣) ولوحة رقم (٦). أما الأبراج التى أقامها الملك العادل فهى مربعة القاعدة وتمتاز بأن لكل منها ثلاثة طوابق: طابقان مسقوفان، وطابق مسطح مكشوف، كما تمتاز بعدد الغرف فى داخلها وتعدد منافذ الرماح، شكل (٤) ولوحة رقم (٨).



شكل (٣) – تخطيط برج من عهد صلاح الدين

(١) يختلف الارتفاع باختلاف مسطحات الأرض، والارتفاع الذى ذكرناه مقاس من أرضية القلعة الداخلية.

يظهر بوضوح من مشاهدة أسوار القلعة وأبراجها، بالرغم من مضى أكثر من ثمانية قرون على إنشائها، شدة العناية التى بذلت فى بنائها، مما يشهد بمهارة العمال الذين استخدموا فى قطع حجارتها وصقلها ورصها، وقد تم بناء هذه المبانى الضخمة العظيمة التى أشرنا إليها فى «مدة يسيرة»[1] لم تزد على سبع سنوات من سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م إلى ٥٧٩هـ / ١١٨٣م، وذلك يثير الإعجاب والدهشة. وقيل: إن الحجارة التى استخدمت فى البناء قد جلبت من أهرامات صغيرة كانت قائمة بالجيزة.



شكل (٤) - تخطيط برج من عهد الملك العادل

وتدل مظاهر عديدة من بناء هذه الأسوار والأبراج على أنها ظلت تحتفظ بالأساليب التى اتبعت فى بناء أسوار القاهرة فى عصر بدر الجمالى[2]، وخاصة فى بناء القبوات المتداخلة والقباب المستندة على مقرنصات مثلثة، وفى العناية بصف الحجارة. واستخدمت كذلك الصنج المعشقة فى باب المدرج مثلا، مثلما استخدمت فى العصر الفاطمى، وجعلت إطارات مستطيلة لبعض الأبواب، مثلما يشاهد فى بوابة النصر من عهد بدر الجمالى. واتخذت لبعض الأبراج شرفات مثل شرفة باب النصر كذلك، غير أنها تعددت، فقد أقيم منها مثلا فى برج الحداد ثلاث، وفى برج كركيالان، خمس[3].

(١) انظر صفحة ٢٠٢ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٢) انظر «مساجد القاهرة ومدارسها»، الجزء الأول، العصر الفاطمى.

(٣) ظهرت الشرفات البارزة إلى الخارج فى أعلى الأبراج أول ما ظهرت فى القاهرة فى باب النصر فى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م، وقد عرفت من قبل فى العمارة الإسلامية منذ أوائل القرن الثانى الهجرى فى بوابة قصر الحير الغربى (حوالى سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م)، وفى بوابة قصر الحير الشرقى فى السنة التالية (١١٠هـ)، وذلك فى عهد =

غير أنه ظهرت فى أسوار العصر الأيوبى عناصر معمارية جديدة، منها استدارة الأبراج، ومنها تنسيم الحجارة فى مواضع[1]. والجديد كذلك فى بناء أسوار القلعة وأبراجها أن قواعدها تبرز إلى الخارج منحنية انحناءً شديدًا إلى ارتفاع ملحوظ، مما يزيد فى ثبوتها ومناعتها.

بقيت القلعة أثرًا خالدًا من آثار العمارة، حتى إن شهرتها طغت على غيرها من الآثار التى تبقت من العصر الأيوبى، غير أن لهذه الآثار، كما سنرى فى الفصول التالية، أهمية تفوق أهمية القلعة، بالرغم من ضخامة بنائها، سواء من حيث تخطيطها وعناصرها المعمارية والزخرفية، أم من حيث الغاية التى أنشئت من أجلها.

= الخليفة هشام بن عبد الملك. وهى المعروفة باللغات الإفرنجية بلفظة (machicoulis). وتمتاز هذه الشرفات بأن لها فتحات سفلى بين ساندها الخارجية، كانت تستخدم لصب الزيوت الحارقة على الأعداد المندفعين إلى الأبراج. ومن القاهرة انتشر استعمال هذه الشرفات فى عهد الملك العادل فى دمشق والشام ومنها انتقلت إلى الصليبيين ثم إلى العمارة الحربية فى أوربا فى العصور الوسطى.

(١) انظر الحاشية رقم (١) صفحة ٣١ فيما سبق.

الفصل الثالث

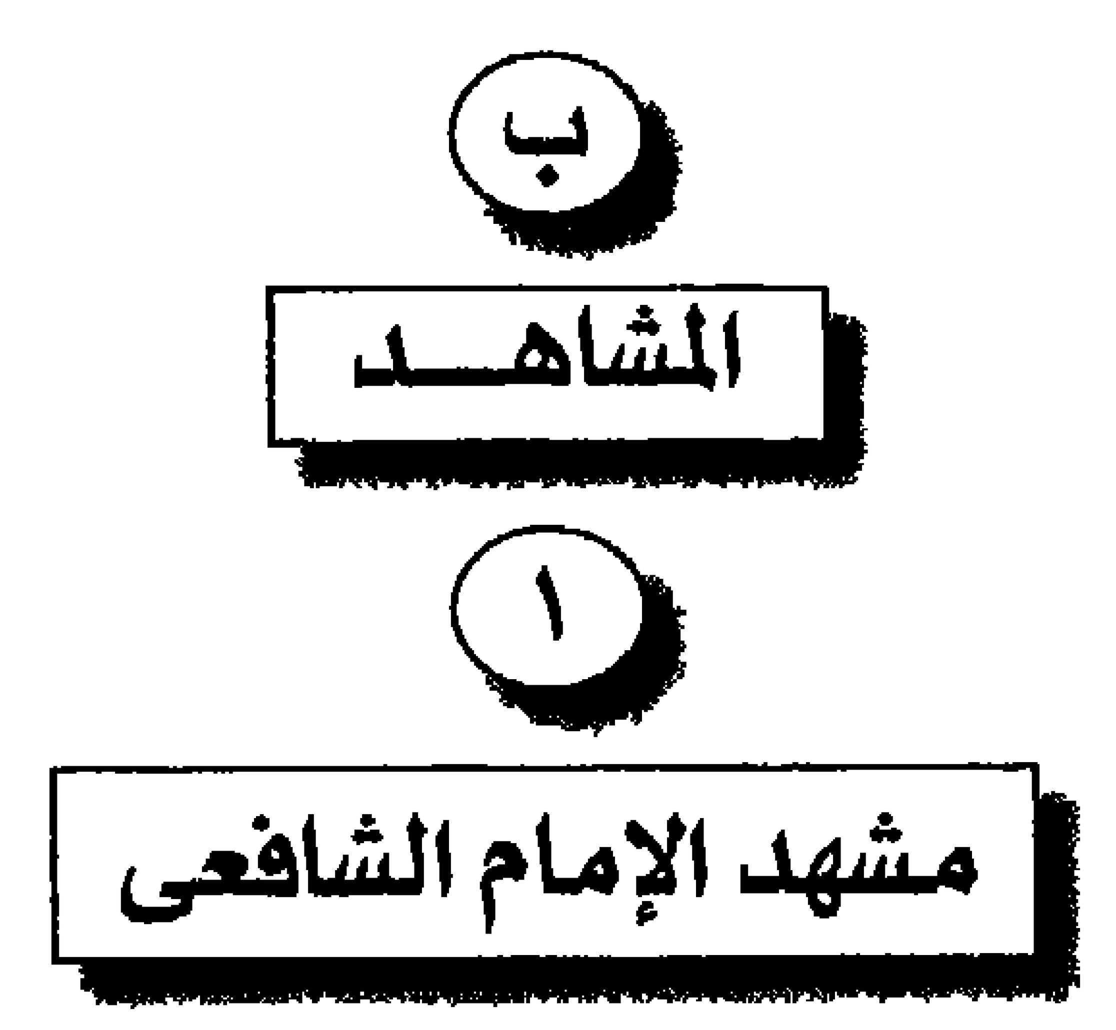
آثار الدولة الأيوبية فى القاهرة
(ب)

المشاهد

١ - مشهد الإمام الشافعى.
٢ - مشهد الثعالبة.
٣ - مشهد الخلفاء العباسيين.
٤ - مئذنة المشهد الحسينى.
٥ - قبة شجرة الدر.
٦ - ضريح الصالح نجم الدين.
٧ - مئذنة زاوية الهنود.

الفصل الثالث

آثار الدولة الأيوبية فى القاهرة



أمر السلطان الكامل فى سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م بتشييد ضريح عظيم للإمام الشافعى رضى الله عنه، الذى توفى فى سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م، وكان قبره فى موضع ذلك الضريح(١)، وجدد الضريح مرة فى عهد قايتباى فى سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م، كما جدد فى عهد على بك الكبير فى سنة ١١٨٦هـ / ١٨٧٢م، وأضاف عبد الرحمن كتخدا فى سنة ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م إلى مدخل الضريح أرضية رخامية وعمر المسجد المجاور له، وكانت تقوم فى موضعه المدرسة الصلاحية التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى.

وقد تبقى من عصر الكامل القسم الخارجى جميعه من الضريح إلى الارتفاع الذى تحده الأوتاد الخشـــبية المنقوشـــة بالخط الكوفى، تحت القبة، لوحة رقم (٩أ)، وكذلك القسم الداخلى المقابل

---

(١) دفن الإمام الشافعى بالقرافة الصغرى، «وكان موضوع دفنه ساحة، حتى عمر تلك الأماكن السلطان صلاح الدين يوسف، ثم أنشأ الملك الكامل محمد القبة على ضريحه، وهى القبة الكائنة اليوم على قبره» انظر: أبو المحاسن، «النجوم الزاهرة»، جزء ثان، صفحة ١٧٧؛ المقريزى، «الخطط» جزء ثان، صفحتا ٤٤٤، ٤٦١.

وقد سجل تاريخ المشهد على عتبة نافذة فيه، بالخط النسخى الأيوبى، يقرأ فيها ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم» أمر بإنشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الكامل محمد ابن مولانا السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين، خلد الله ملكه، وذلك فى يوم الأحد لسبع خلون من جمادى من سنة ثمان وستمائة».

انظر (فييت)، «نقوش الشافعى» صفحة ١٧٨:

WIET (Gaston), Les Inscriptions du Mausolée de Chaféi, Bulletin de L'Institut d'Egypte, Tome XV, 1933.

و (كومب)، صفحة ٦١ من الجزء العاشر من «مرجع الكتابات العربية».

له. أما القبة الخشــبية ومقرنصاتها فترجع إلى عهد قايتباى، وأما النقوش الزخرفية الملونة، التى تكسو الجدران الداخلية والمقرنصات والقبة، فترجع إلى عهد على بك الكبير.

ويشغل الضريح مربعًا طول كل ضلع من أضلاعه ١٥ مترًا، تحيط به أربعة جدران سميكة، ترتفع إلى ما يقرب من عشرين مترًا فوق سطح الأرض، بنى النصف الأدنى منها تقريبا من الحجارة، والنصف الأعلى من الآجر. وجوفت بجدار القبلة ثلاثة محاريب[1]، وفتح باب فى كل من الجدارين الشرقى والشمالى[2].

وأقيمت على هذا المربع قبة ترتفع سبعة وعشرين مترًا فوق أرضية الضريح، وترتقى القبة على ثلاث طوابق من المقرنصات، لوحة رقم (٩ب)، وكانت القبة من طبقتين، طبقة داخلية خشبية، وطبقة خارجية من الرصاص، وجددت فى عهد قايتباى على هذا النظام، وتبدو القبة من الداخل والخارج على السواء ضخمة المظهر، وكذلك تبدو مقرنصاتها، بالرغم من أنها صنعت من الخشب وكسيت فى عهد حديث بطبقات من الزخارف، صنعت فى مواضع من الجص، تضفى مظهر الفخامة على داخل الضريح، شكل (٥).

أما الواجهات الخارجية فتتكون من ثلاثة طوابق رأسيه تشمل الطابق الأعلى من القبة. ويتراجع الطابق الأوسط إلى الداخل بمقدار ثلاثة أرباع المتر تقريبًا عن الطابق الأدنى، وتمتد حوله طاقات على أشكال المحاريب، لوحة رقم (١٠). تنتهى هذه المحاريب بأشكال محارات محصورة فى عقود منفرجة، ويتخللها أشكال سرر ومعينات، وينتهى الطابق بشرفات هرمية مسننة أو مدرجة.

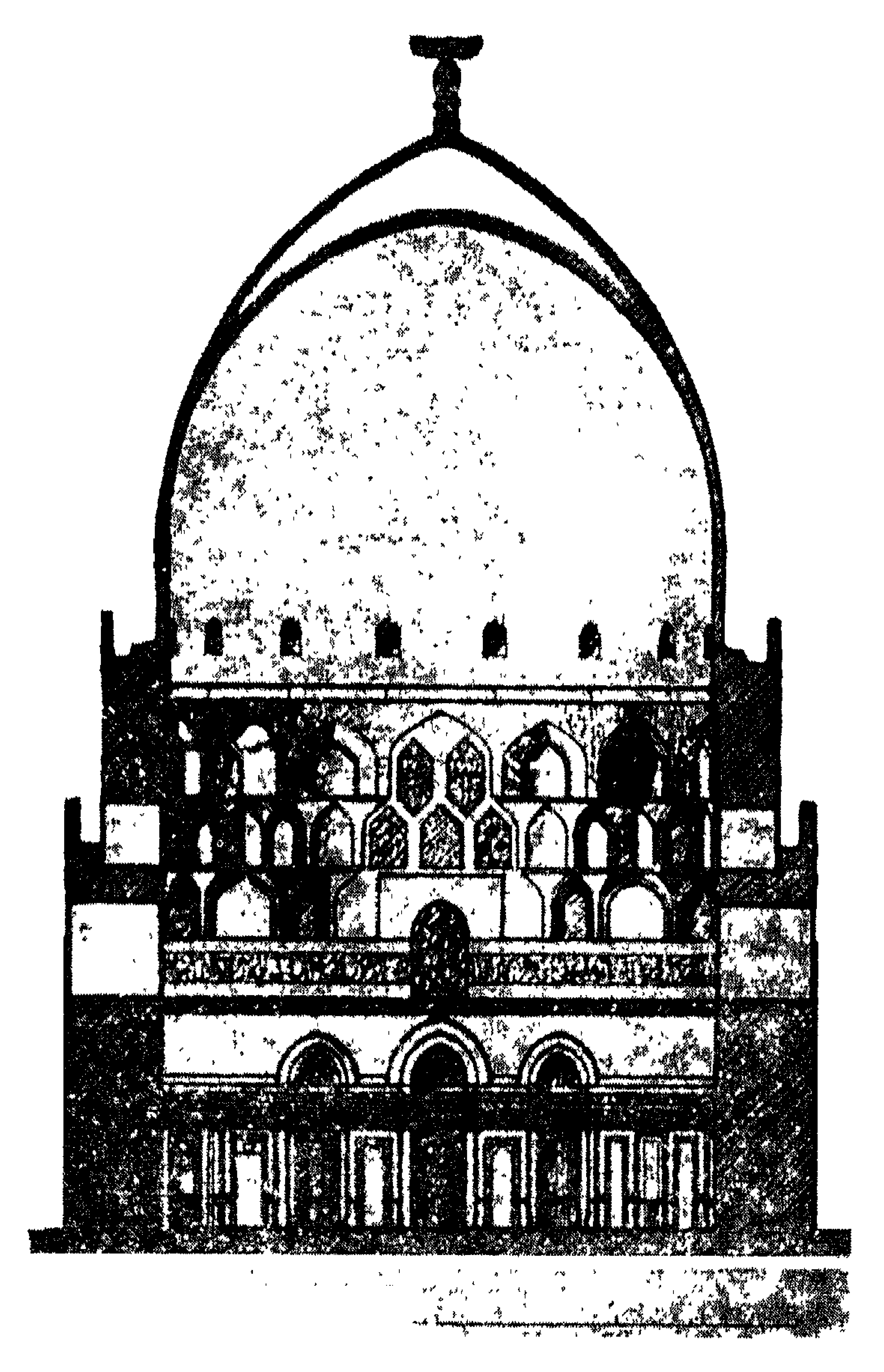
وأما الطابق الأدنى، فقد فتحت فى كل واجهة من واجهاته الأربع نافذة وسطى تحيط بها طاقتان من كل جانب، وتعلوه شرفة من أربع لوحات مستطيلة حليت بالزخارف المخرمة المضفرة، ويفصل بين هذه اللوحات خمس لوحات أخرى صماء، كأنها دعامات، امتدت عليها زخارف منوعة، تارة من كتابة معشقة خطت على أرضية نباتية، وتارة من أشكال فروع نباتية مخرمة أو شبه مخرمة، نسقت جميعًا تنسيقًا متوازنًا بديعًا.

ولهذه الزخارف أهمية خاصة، من حيث إنها مستمدة من الأسلوب المغربى الأندلسى.

---

(١) استحدث فى جدار القبلة محراب رابع صغير لتصويب اتجاهها عندما لوحظ انحراف ذلك الجدار عن هذا الاتجاه.

(٢) لا يواجه المحراب الباب المفتوح فى الجدار الشمالى، ولبس فى ذلك غرابة، كما يدعى (كريسويل) فى صفحة ٦٥ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر»..



شكل (٥) – قطاع رأسي لقبة الإمام الشافعي، (عن مصلحة الآثار)

٢

مشهد الثعالبة

ويسمى تربة الثعالبة، وأحيانا إيوان الثعالبة. وقد روى المقريزى[١] أن الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الدولة فخر العرب ثعلب، الذى يصل نسبه إلى جعفر بن أبى طالب، بنى فى سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م مدرسة بالقاهرة، سميت بالمدرسة الشريفية، وأنه مات فى السابع عشر من رجب سنة ثلاث عشرة وستمائة / ٣٠ أكتوبر ١٢١٦م. وقد عثر على لوحة مثبتة على باب بناء بالقرب من مشهد الإمام الشافعى كتب عليها ابالخط النسخى نص جاء فيه: «أمر بإنشاء هذه التربة المباركة لنفسه الشريف.. أبو منصور إسماعيل بن.. ثعلب.. وكان الفراغ منها فى رجب سنة ثالثة عشرة وستمائة»[٢].

وقد تبقى من هذا الضريح باب وممر. وينحصر الباب فى إطار مستطيل بديع التنسيق، لوحة رقم (١١أ)، يتكون من مربعات صغيرة، منحوتة بمختلف الزخارف، كل منها تنفرد بشكل زخرفى، ويحيط هذا الإطار بعتبة الباب التى تتكون من تسع صنج معشقة، نظمت فى خط أفقى، مستقيم. ويحف بالباب من جانبيه إزار عليه كتابة قرآنية بالخط النسخى مدت فوق أرضية منقوشة بالزخارف النباتية، لوحة رقم (١١ب).

وبالقرب من هذا الباب قاعة مستطيلة عرضها ستة أمتار وطولها عشرة، وهى مسقوفة بقبوة مدببة بالآجر، من مداميك أفقية تعلوها مداميك رأسية، ويبلغ ارتفاع القبوة تسعة أمتار فوق أرضية البناء. وجدران القاعة سميكة يزيد عرضها على مترين، وقد جوف فى الجدار الجنوبى محراب، وقد تضاربت الأقوال فى هذه القاعة. ويظن (كريسويل) أنها جزء من المدرسة الشريفية التى بناها أبو منصور الثعالبى بجوار ضريحه[٣]، وهو – أمر فيما – أرى – مستبعد، لأن هذا الأمير بنى المدرسة فى السنة السابقة لبناء ضريحه، ولأن النص التاريخى المسجل على الباب لا يشير إلى بناء المدرسة ويقتصر على ذكر الضريح، ولأن موضع الباب من هذه القاعة لا يؤيد افتراض وجود أبنية مكملة

---

(١) انظر صفحتا ٣٧٣ و ٣٧٤ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٢) انظر صفحة ١٣٢ من الجزء العاشر من (كومب)، «مرجع الكتابات العربية»؛ وصفحة ٩٥ من (فان برشم)، «موسوعة النقوش العربية».

وكانت هذه اللوحة قد نزعت من موضعها على الباب ووضعت فوق تابوت فى داخل المبنى، ثم أعيدت حديثاً إلى موضعها الأول.

(٣) انظر صفحات ٧٧ إلى ٨٠ من الجزء الثانى من (كريسويل)، «العمارة الإسلامية فى مصر».

للمدرسة. وأغلب الظن أن هذه القاعة كانت هي نفس الضريح المدفون فيه صاحب البناء وأن تابوته كان موضوعًا في وسطها[1]، وأنه زود بمحراب على غرار المشاهد الفاطمية يحدد به اتجاه القبلة للمصلين من المترحمين على صاحب الضريح. أما المدرسة فقد اندثرت معالمها.



مشهد الخلفاء العباسيين

لم يشر أحد من المؤرخين إلى هذا البناء إشارة صريحة، ولم يتخلف منه نقش كتابي يحدد تاريخه، غير أن عناصره المعمارية والزخرفية تشهد ببنائه في نهاية العصر الأيوبي. ويرجح ذلك أن بهذا الضريح ثمانية توابيت، أكبرها حجما وأهمها قدرًا، تابوت نقشت عليه بالخط النسخي آيات قرآنية كريمة تليها فقرة نصها: «اللهم أعد بركات القرآن العظيم على عبدك الفقير إلى رحمة ربه أبي نضلة هاشم بن علي بن المرتضى، ابن الأمير السيد العلوي الحسني سفير الخلافة المعظمة العباسية شرفها الله تعالى وعظمها، توفي يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الآخرة من سنة أربعين وستماية / ١٢٤٢م إلى رحمة الله تعالى». وكان الخليفة العباسي حينذاك هو المستنصر بالله[2].

ثم دفن في هذا الضريح من بعد أبي نضلة هذا ولدان من أولاد السلطان الظاهر بيبرس. ودفن فيه كذلك الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد في سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م، وكان قد دفن فيه من قبله ستة من أولاده، كما دفن فيه من بعده بعض من خلفائه وأولادهم، ولهذا سمي الضريح بقبة الخلفاء العباسيين.

ويشغل بناء الضريح مربعًا طول ضلعه الخارجي تسعة أمتار ونصف المتر، وطوله من الداخل ستة أمتار وثلاثة أرباع المتر، فجداره سميك يقرب عرضه من متر ونصف المتر. وينتصف الجدار الجنوبي محراب مجوّف، يواجهه في الجدار الشمالي باب يحف به من الخارج محرابان صغيران

---

(١) توجد أجزاء من هذا التابوت في المتحف الإسلامي بالقاهرة وفي متحف (فيكتوريا والبرت) في لندن، ويوجد في الجزء الموجود في هذا المتحف الأخير النص التاريخي الذي يحمل تاريخ وفاة صاحبه في ٦١٣هـ / ١٢١٦م.

(٢) انظر صفحة ١٣٧ – ١٣٨ من الجزء الحادي عشر من «مرجع الكتابات العربية»، تأليف (كومب) وغيره. وكان (هرتس) أول من رجح إقامة هذا البناء في العصر الأيوبي، وشرح الأسباب التي دعته إلى ذلك شرحًا وافيًا في تقرير نشر في «محاضر لجنة حفظ الآثار العربية» سنة ١٩١١م، صفحات ١٣١ إلى ١٤١ من الطبعة الفرنسية:

HERZ (Max), Les Sépultures Abbasides prés de la Mosquee d'El-Sayeda Nafisa, Bulletin du Comité de Conservation des Monuments Arabes, Le Caire, 1911, pp. 131-141

مجوفان، واحد من كل جانب، لوحة رقم (١٢). وأغلب الظن أن هذا الباب كان مفتوحا على صحن مكشوف مسور، يمتد جنوبًا على حافتى الجدارين الشرقى والغربى، لأنه كان ينصف كذلك كلا من هذين الجدارين باب سدّ وطمست معالمه الآن.

وترقى جدران المربع قبة ترتفع قمتها ١٣ مترًا فوق سطح الأرض، وترتكز فى أركان المربع الأربعة على مجموعات من المقرنصات تتكون كل مجموعة من حطتين أو طابقين، لوحة رقم (١٣)، ويتوسط هذه المجموعات المقرنصة مجموعات من النوافذ، مجموعة فى كل جانب، ترتقى أواسط الجدران، ويدنو كل مجموعة طاقة على هيئة محراب، لوحة رقم (١٤ أ)، فيما عدا المجموعة الجنوبية فى منتصف جدار القبلة حيث يوجد المحراب، الذى يتوجه من الداخل عقد منفرج محصور فى إطار مستطيل، لوحة رقم (١٤ب).

وترتفع الجدران خمسة أمتار فوق أرضية البناء، ويحيط بها من الخارج من كل جانب من جوانبها الثلاثة، الشمالية والشرقية والغربية، ثلاث طاقات على هيئة محاريب تنتهى بعقود منفرجة، زخرفت تواشيحها بأشكال سرر ومعينات، محفورة فى الجص، لوحة رقم (١٢).

٤
مئذنة المشهد الحسينى

أشرت فى الجزء الأول من هذا الكتاب[1] إلى أن الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله شيّد المشهد الحسينى فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م. ولم يتبق من البناء الفاطمى غير الباب المعروف بالباب الأخضر. وقد جدد المشهد فى العصر الأيوبى وفى العصور التالية، ولم يتبق من قديمه غير جزء من المئذنة القائمة فوق الباب الأخضر، والتى تحتفظ بلوحتين نقش عليهما تاريخ إتمام بنائهما فى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م. وتنحصر أهمية هذه المئذنة فى الواجهة الجنوبية لطابقها الأسفل إذ انتظمت عليه طاقات على هيئة محاريب نقشت بزخارف جصية منحوتة نحتاً بديعًا على الأسلوب المغربى الأندلسى. وتنتهى قمم هذه الطاقات بأشكال محارية، لوحة رقم (١٥ أ).

(١) انظر الجزء الأول، (العصر الفاطمى)، من «مساجد القاهرة ومدارسها»

٥

قبة شجرة الدر

لا يعرف بالتحديد تاريخ بناء هذه القبة، والمعروف أنه يمتد داخلها إزار من نقش كتابى ذكر فيه اسم شجرة الدر مصحوبًا بلقب «عصمة الدنيا والدين» و «أم الملك المنصور خليل». وقد حلل (فان برشم) هذا النص التاريخى وأكد أنه نقش فى المدة التى مرت بين موت الملك المعظم توران شاه، فى ١٩ المحرم من سنة ٦٤٨هـ / ٣ مايو، ١٢٣٥٠م، وبين ارتقاء الملك المعز أيبك عرش السلطنة، فى ٢٩ ربيع الثانى من السنة نفسها (٣١ مايو)[1]. إذن يكون بناء القبة قد بدأ وكمل قبل نقش هذا الإزار، وبالتالى قبل موت الملك توران شاه، أى قبل نهاية العصر الأيوبى. ومما يؤكد هذا الرأى أن عناصر بناء القبة وزخرفتها تتصل اتصالا وثيقا بعناصر العصر الأيوبى.

وضريح شجرة الدر شبيه من حيث تخطيطه بضريح يحيى الشبيه الفاطمى، وبضريح الخلفاء العباسيين، ولكنه يمتاز عنهما من حيث زخرفته بأنه محرابه المجوف مكسو بزخارف من الفسيفساء الذهبية، لوحة رقم (١٥ب)، وفيما عدا ذلك فإن تنسيق زخارفه الداخلية والخارجية تطابق مشهد يحيى الشبيه.

وجدران ضريح شجرة الدر أضلاع لمربع تعلوه قبة ترتكز فى كل من الأركان الأربعة على طابقين من المقرنصات، يتكون الطابق الأول منهما من ثلاث طاقات تعلوها فى الطابق الثانى ثلاث أخر. وقد فتحت فيما بين المجموعات الأربع من المقرنصات، مجموعات من النوافذ، فى كل منها ثلاث، نافذتان فى الطابق الأول ونافذة فى الطابق الثانى، كما أنه فتحت فى رقبة القبة فوق المقرنصات نافذة واحدة فى كل ركن، ونافذة فوق كل مجموعة من النوافذ السفلى، لوحة رقم (١٦)

---

(١) انظر صفحة ١١٣ من (فان برشم) «موسوعة النقوش العربية». هذا وقد أخذ (كرسويل) بهذا الرأى فى صفحة ١٣٩ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر».

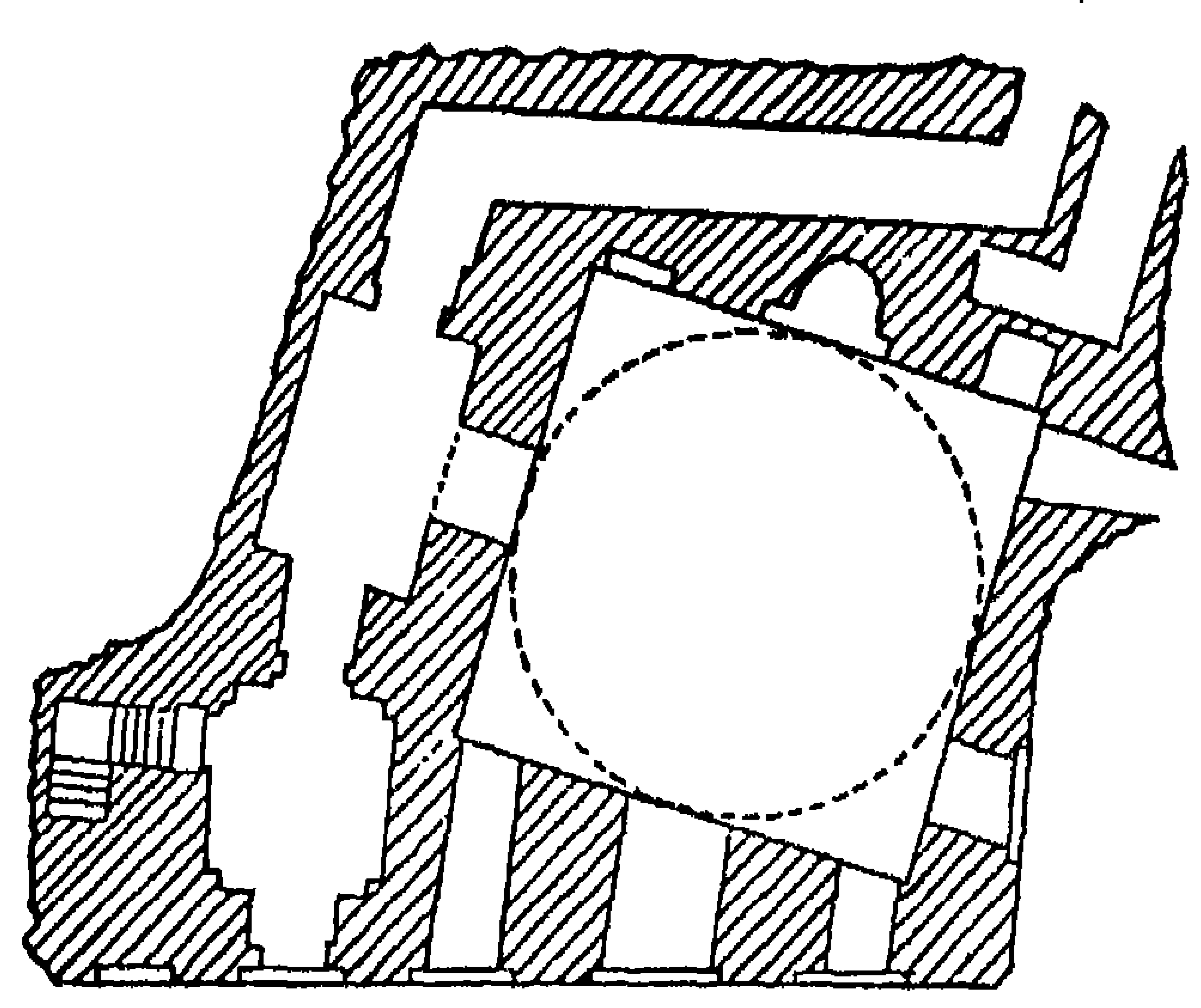


ضريح الصالح نجم الدين أيوب

شيدّت شجرة الدر هذا الضريح لزوجها فى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م بجوار المدرسة التى كان هذا السلطان قد أنشأها قبل ذلك بسبع سنوات. وسنرى فيما بعد أن هذا الضريح أقيم فى الموضع الذى كانت تحتله قاعة شيخ المالكية فى تلك المدرسة.

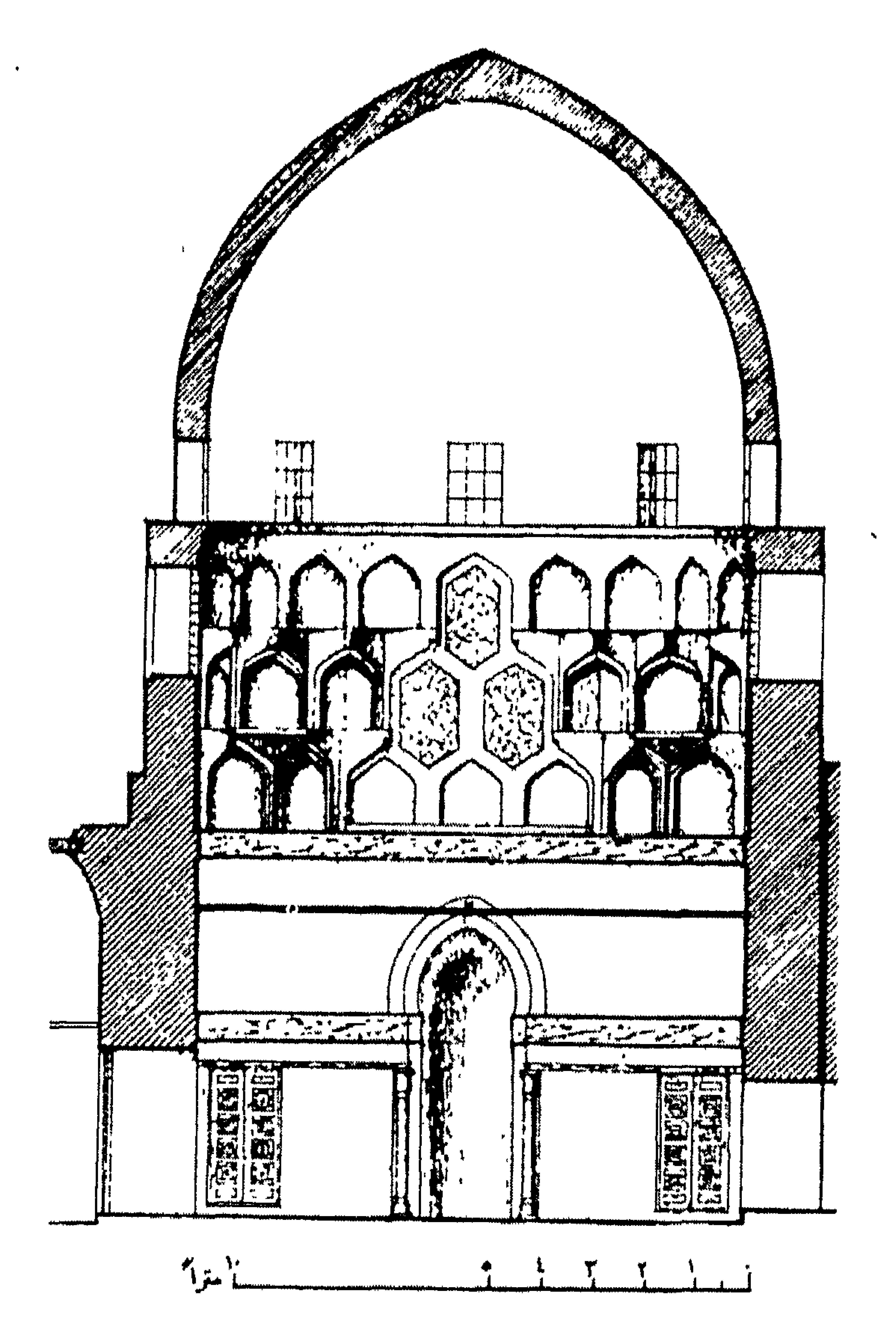
ويشغل الضريح مربعًا طول كل ضلع من أضلاعه الداخلية أحد عشر مترًا، أقيمت على جدرانه قبة ترتفع فوق أرضية الضريح ٢٢ مترًا. ولهذا فإن هذه الجدران غليظة، إلى حد أن سمكها يزيد فى موضع منها على خمسة أمتار، وهو لا يقل عن مترين فى معظمها، شكل (٦).

ولهذا الضريح محراب كبير مجوف تنتهى قمته بعقد مدبب، وقد كسيت مسطحات المحراب بلوحات رفيعة من الرخام المختلف الألوان والزخرفة. ويحف بالمحراب عن يمينه ويساره عمود من الحجارة الرخامية الجرانيتية، له قاعدة وتاج على هيئة ناقوس، أو مشكاة، نقشت عليهما بالحفر الغائر زخارف نباتية، ومدت فوق كل من التاجين حدارة نقشت عليها بالخط النسخى آيات قرآنية، لوحة رقم (١٧ أ،ب).



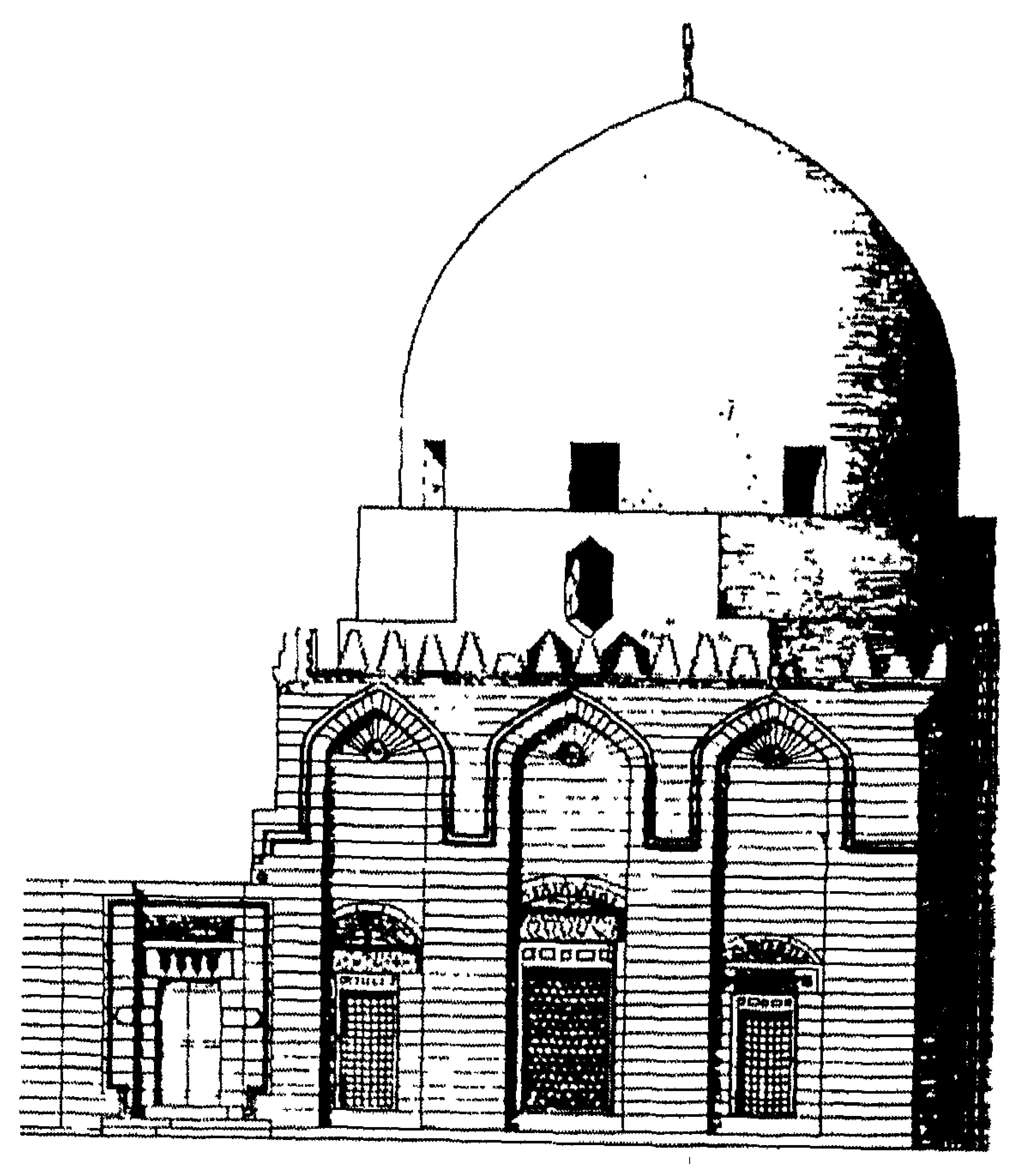
شكل (٦) – رسم تخطيطى لضريح الصالح نجم الدين أيوب

أما القبة العظيمة التى تتوج الضريح، لوحة رقم (١٨)، فهى تمتطى فى كل ركن من الأركان الأربعة مجموعة من ثلاثة طوابق من المقرنصات يتحول بها المربع الجدارى إلى قاعدة مستديرة،



شكل (٧) – قطاع رأسى لقبة الصالح نجم الدين ، (عن مصلحة الآثار)

شـكل (٧). وتتكون كل من هذه المجموعات من ثلاث طاقات صماء فى الطابق الأسـفل، تمتطيها طاقة وسـطى منقسـمة إلى طاقتـين صغيرتين، ويحف بها طاقة من كل جانـب. أما الطابق الثالث فيتكون من صف من أربع طاقات. وقد فتحت فيما بين مجموعات المقرنصات، فى كل جانب من



شكل (٨) – رسم واجهة ضريح الصالح نجم الدين (عن مصلحة الآثار)

الجوانب الأربعة، مجموعة من ثلاث نوافذ سداسية الأضلاع من طابقين، نافذة فى الطابق لأدنى، ونافذتان فى مستوى الطابق الأعلى من المقرنصات، ومد تحت كل من هذه المجموعات صف من ثلاث طاقات صماء، امتدادًا للطابق الأدنى من المقرنصات، وجعلت رءوس هذه الطاقات والنوافذ والمقرنصات جميعًا مـن عقـود منفرجـة، شـكل (٧) ولوحة رقم (١٩). وتتناسق واجهة هذا الضريح مع واجهة المدرسة الصالحية، شكل (٨) ولوحة رقم (١٨)، وقد حرص البنّاء

على أن يجعل الواجهتين متكاملتين، لوحة رقم (٢٨). وباب الضريح مفتوح على هذه الواجهة، وضعت فوق عتبته لوحة منقوشة بالخط النسخى جاء فيها «هذه التربة المباركة بها ضريح مولانا السلطان الملك الصالح.. نجم الدين.. توفى إلى رحمة الله تعالى وهو بمنزلة المنصورة تجاه الفرنج المخذولين.. وذلك فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة» / ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م. وقد روى المقريزى أنه نقل «فى السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة.. إلى هذه القبة بعدما كانت شجرة الدر قد عمرتها» ٢٥ أكتوبر ١٢٥٠م.



مئذنة زاوية الهنود

لم يشر المؤرخون إلى تاريخ هذه المئذنة ولهذا نسبها بعض الكتاب إلى عصر المماليك، وأرجعها البعض الآخر إلى العصر الأيوبى[1]، وقد أخذت بهذا الرأى الأخير لتشابه عناصرها المعمارية والزخرفية، كما سنرى فيما بعد، مع عناصر مئذنة المدرسة الصالحية.

وقاعدة هذه المئذنة، لوحة رقم (٢٠)، قائمة على مربع طول كل ضلع من أضلاعه ثلاثة أمتار ونصف المتر تقريبًا، وترتفع هذه القاعدة عشرة أمتار فوق سطح الأرض، وكانت تنتهى بشرفة خشبية للمؤذن، وفتحت فى كل جانب من جوانب هذه القاعدة نافذة مستطيلة، يعلوها عقد مقرنص أصم منفرج، يحف بكتفيه سرة مَحاريَّة. ويعلو هذه القاعدة المربعة ثلاث طوابق ثُمانيّة الأضلاع: الطابق الأدنى منها يرتفع ثلاثة أمتار تقريبًا، فتح فى كل ضلع من أضلاعه باب يؤدى إلى شرفة المؤذن، وحليت قمته بعقد متعدد الفتحات، يعلوه عقد مقرنص منفرج أصم، أما الطابقان العلويان - وارتفاعهما متران تقريبًا - فهما متصلان، فتحت فى كل منهما، وفى كل ضلع من أضلاعهما الثمانية، نافذة صغيرة، أحاطت بها المقرنصات من كل ناحية على هيئة التاج. وأخيرًا ترتقى المئذنة طاقية أو مبخرة من قبة مضلعة ذات ستة عشر ضلعًا، يبلغ ارتفاعها عن سطح الأرض عشرين مترًا تقريبا.

---

(١) سجلت مصلحة الآثار فى صفحة ٤ من «فهرس الآثار الإسلامية بالقاهرة» المشار إليه سابقًا، لهذا الأثر ضمن آثار دولة المماليك البحرية، وأخذ (كريسويل) بهذا الرأى فى صفحتى ١٤٠ و ١٤١ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر». أما (هوتكور) و (فييت) فقد رجحا تاريخها الأيوبى فى كتاب «مساجد القاهرة»، صفحة ٢٨٦ من الجزء الأول.
WIET (Gaston) et HAUTECOEUR (Louis), Les Mosquées du Caire, 2 volus, Paris, Leroux, 1932

هذا عرض مجمل للآثار المتخلفة من العصر الأيوبى من غير المساجد والمدارس. أما المساجد الأيوبية فقد اندثرت جميعًا، بل إن كتب المؤرخين لم تشر إلى أن الأيوبيين قد بنوا مساجد القاهرة.

وقد يبدو هذا العرض المجمل خارجا عن موضوع هذا الجزء من كتابنا «مساجد القاهرة ومدارسها»، غير أنه كان ضروريًا لإيضاح العناصر المعمارية والزخرفية التى تحتويها آثار المدرستين المتخلفتين من العصر الأيوبى، وهما موضوع البحث فى الفصول التالية.



الفصل الرابع

مدارس القاهرة فى العصر الأيوبى

١ - عرض عام.

٢ - المدرسة الكاملية.

٣ - المدارس الصالحية.

الفصل الرابع

مدارس القاهرة فى العصر الأيوبى



١ عرض عام

اتسعت رقعة القاهرة فى العصر الأيوبى، كما رأينا، وازداد العمران بها، وبالتالى نشطت العمارة فيها. وكان للمساجد نصيب كبير منها، غير أن المساجد التى بنيت فى ذلك العهد اتخذت صورة جديدة لم يألفها البناة بمصر فى العصور السابقة. كانت المساجد الجامعة متعددة بالعاصمة، بل قيل إنه كان بها من «الجوامع مالا يكاد يحصى كثرة»، وأنه «أقيمت الجمعة فى كثير من المدارس والمساجد الصغار المتفرقة فى الأخطاط لكثرة الناس وضيق الجوامع عنهم»[1].
وكان أمراء الدولة الأيوبية يفضّلون أن ينشئوا مساجد لا تفقد وظيفة «الجامع» ولكنها لا تقتصر عليها وتتميز بصفة أخرى، وهى المدارس. وسترى فى فصل تال أن المساجد الجامعة كانت تتخذ مدارس منذ العصور الأولى، أما فى العصر الأيوبى فإن المدارس التى أنشئت كانت فى الوقت نفسه مساجد، وكانت تؤدى فى معظمها صلاة الجمعة.

وقد أنشئ عدد كبير من هذه المساجد المدرسية فى القاهرة ومصر الفسطاط فيما بين قيام الدولة الأيوبية وانتهائها. وكانت بالقاهرة والاسكندرية بضع مدارس أنشئت فى العصر الفاطمى. قيل إن مسجد سيدى معاذ الذى بنى فى سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م «كان أصله مدرسة بنيت على مشهد السيد الشريف معاذ بن داود»[2]. وبنى مسرور الخادم، الذى كان أحد خدام القصر فى نهاية الدولة الفاطمية، مدرسة بالقاهرة عرفت بالمدرسة المسرورية[3]. كان

(١) انظر القلقشندى، «صبح الأعشى» الجزء الثالث، صفحة ٣٦٦.

(٢) انظر صفحة ٨٣ من الجزء الثانى وصفحة ١٢٠ من الجزء الخامس من «الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة»، تأليف (على) مبارك، ٢٠ جزءًا، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٠٥هـ - ١٣٠٩هـ، (١٨٨٨م - ١٨٨٩م).

(٣) انظر صفحة ٣٥٦ من الجزء الثالث من «صبح الأعشى» للقلقشندى، وصفحة ٣٧٨ من الجزء الثانى من «الخطط» للمقريزى.

بالإسكندرية مدرسة أنشأها الوزير رضوان بن ولخشى فى سنة ٥٢٣هـ / ١١٣٨م، فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله[١]، وكانت هذه المدرسة معروفة بالمدرسة العونية، وكانت مخصصة للمذهب الشافعى. كما كان بالإسكندرية مدرسة أخرى كذلك للمذهب الشافعى، بناها فى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م على بن سلار، وزير الخليفة الظافر[٢]، وكانت تعرف بالمدرسة السلفية أو الحافظية.

أما فى العصر الأيوبى بمصر، فتقتصر معرفتنا بمدارسها على مدرستين أنشئتا بالفيوم[٣]، وعلى أربع وعشرين مدرسة أنشئت بالفسطاط والقاهرة. وقد أشار المقريزى إلى هذه المدارس، وكان معظمها لا يزال قائما على عهده[٤].

روى المقريزى أن صلاح الدين أنشأ فى سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م، عندما كان وزيرًا للخليفة العاضد، مدرسة أمر ببنائها بجوار مسجد عمرو، عرفت أول الأمر باسم «المدرسة الناصرية»، وعرفت بعد ذلك، بمدرسة «ابن زين التجار»[٥] ثم عرفت بالمدرسة «الشريفية»، وكانت «برسم الشافعية»، كما كانت «أول مدرسة عملت بديار مصر»[٦]. وشرع صلاح الدين فى نفس السنة

---

(١) انظر صفحة ٨٣ من «أخبار مصر» تأليف ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن ميسر، المتوفى سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م، نشر (هنرى ماسيه)، القاهرة سنة ١٩١٩م، مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية.

(٢) انظر صفحة ٨٧ من الجزء الأول من «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن إبراهيم بن أبى بكر، المتوفى سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م، ٤ أجزاء، طبع المطبعة الأميرية، القاهرة سنة ١٢٧٥هـ / ١٨٥٩م.

(٣) تنظر الحاشية (٥)، صفحة (٥١) فيما بعد.

(٤) أفرد (كريسويل) بحثًا مفصلا عن هذه المدارس وجمعها فى قائمة فى صفحة ١٢٤ من الجزء الثانى من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر». غير أن كريسويل لم يورد فى هذه القائمة غير (١٩) مدرسة وذكر أن المقريزى لم يشر إلا إلى (١٨) مدرسة منها. والواقع، كما سنرى، أن عدد المدارس المعروفة من العصر الأيوبى (٢٤) مدرسة، وأن المقريزى أشار إليها جميعًا، وذلك إذا اعتبرنا أن مدرسة الخبوشانى الذى جاء ذكرها فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن، والتى نذكرها فى الصفحة التالية ونعدها المدرسة السادسة من قائمتنا، هى نفس المدرسة الناصرية (الثانية) التى أشار المقريزى إلى بنائها بجوار قبة الإمام الشافعى، والتى سنشير إليها فى صفحة (٥٣ فيما بعد، وإلا يكون عدد المدارس (٢٥) مدرسة. والمدارس التى أغفل (كريسويل) ذكرها هى: المدرسة الناصرية هذه: والمدرسة السيفية، والمدرسة العاشورية، والمدرسة الصاحبية، ومدرسة ابن رشيق، والمدرسة التى بجوار المشهد الحسينى. هذا وقد خلط (كريسويل) بين المدرسة الناصرية (الأولى) والمدرسة الشريفية (الأولى) وجعل منهما مدرستين، وهما مدرسة واحدة.

(٥) انظر أبو المحاسن، «النجوم الزاهرة» الجزء السادس، صفحة ٥٥.

(٦) انظر «الخطط»، الجزء الثانى، صفحتا ٣٦٣ ، ٣٦٤، وهذه هى المدرسة الأولى من قائمتنا. ويذكرها ابن دقماق (إبراهيم بن محمد أيدمر العلائى، المتوفى حوالى سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م باسم المدرسة الشريفية فى صفحة ٩٣ من الجزء الرابع من «كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار»، طبع المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م. وهذه هى المدرسة «الشريفية» (الأولى)، المعروفة كذلك بالمدرسة «الناصرية» (الأولى).

فى إنشاء مدرسة أخرى «للفقهاء المالكية» بجوار «المسجد العتيق» كذلك، وسميت المدرسة «القمحية»، بالنسبة لكثرة غلة القمح الذى كانت تدره أوقافها[1]. وفى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م أنشأ الأمير قطب الدين خسرو، وهو أحد أمراء صلاح الدين، مدرسة بالقاهرة سميت «القطبية»، نسبة إلى منشئها الذى وقفها على الفقهاء الشافعية[2]. وفى نفس السنة أنشئت مدرسة «ابن الأرسوفى» باسم صاحبها «التاجر العسقلانى» وكان موقع هذه المدرسة بمصر الفسطاط[3]. وأوقف صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م مدرسة على فقهاء المذهب الحنفى «وكانت من جملة دار الوزير المأمون البطائحى... وعرفت بالمدرسة (السيوفية) من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها»[4]. وهذه المدرسة «هى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر» وكانت ما تزال قائمة «باقية على ايديهم» فى عصر المقريزى[5].

وتبقى نص تاريخى نستدل منه على أنه أقيمت بالقاهرة فى سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م مدرسة عرفت بمدرسة الشافعى أو مدرسة «الخبوشانى»[6]، بنيت بمعرفة الشيخ أبو البركات نجم الدين بن الموفق الخبوشانى، وكان موقعها بجوار قبة الإمام الشافعى، وكانت مخصصة للمذهب الشافعى[7]. ولعل هذه المدرسة هى نفسها المدرسة «الناصرية» (الثانية)، أو المدرسة «الصلاحية»، التى ذكر المقريزى أن صلاح الدين أنشأها «بالقرافة» بجوار «قبة الإمام الشافعى» وأنه «رتب بها مدرسًا يدرس الفقه على مذهب الشافعى»[8].

---

(١) انظر صفحة ٣٦٤ من الجزء الثانى من «الخطط». ويلاحظ أن الصفحة مرقمة خطأ فى طبعة بولاق، وتحمل رقم ٣٤٦. وهذه المدرسة «القمحية» هى المدرسة الثانية من قائمتنا.

(٢) انظر صفحة ٣٦٥ من الجزء الثانى من «الخطط»، وهذه هى المدرسة الثالثة.

(٣) انظر صفحة ٣٦٤ من الجزء الثانى من «الخطط»، وهذه هى المدرسة الرابعة.

(٤) انظر صفحة ٣٦٦ من الجزء الثانى من «الخطط»، وهذه هى المدرسة الخامسة.

(٥) انظر صفحة ٣٦٦ من المرجع السابق.

(٦) ورد النص فى (فييت) «نقوش الشافعى»، صفحة ١٧٠، وفى (كومب)، «مرجع الكتابات العربية»، صفحة ٩٥ من الجزء التاسع وجاء فيه: «بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الإمام الزاهد نجم الدين ركن الإسلام... أبو البركات بن الموفق الخبوشانى أدام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشافعى... وذلك فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين وخمسمائة». وهذه هى المدرسة السادسة من قائمتنا.

(٧) انظر صفحة ١١٥ من الجزء السادس من «النجوم الزاهرة» لأبى المحاسن، وانظر صفحات ٤٤٤، ٤٦١، ٤٦٢ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٨) انظر صفحة ٤٠٠ من الجزء الثانى من «الخطط»، وتراجع الحاشية رقم ٥ من صفحة ٥٤ من الجزء السادس من «النجوم الزاهرة» لأبى المحاسن

وذكر المقريزى كذلك أنه «روى» أن صلاح الدين «جعل المشهد الحسينى أولا حلقة تدريس وفقهاء، ثم بنى به إيوانا»[1] يعنى مدرسة، ومما يؤكد ذلك أن أبا المحاسن روى أن صلاح الدين «بنى مدرسة مجاورة للمشهد المنسوب للحسين بن على رضى الله عنه»[2].

واختار صلاح الدين دارًا تسمى «منازل العز» من دور الخلفاء الفاطميين وجعلها مدرسة، ووقفها فى سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م، على فقهاء المذهب الشافعى. وكانت هذه المدرسة معروفة باسم المدرسة «التقوية» نسبة إلى الملك المظفر تقى الدين أبو سعيد عمر، ابن أخى صلاح الدين[3].

وبنى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى فى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م مدرسة بجوار داره بالقاهرة «ووقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية والمالكية وجعل فيها قاعة للأقراء، أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبى... ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم يقال إنها كانت مائة ألف مجلد... وبها مصحف قرآن كبير القدر جدًّا مكتوب بالخط الأول الذى يعرف بالكوفى تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان... وهو فى خزانة مفردة له بجانب المحراب..». وكانت هذه المدرسة معروفة بالمدرسة «الفاضلية»، وكانت «من أعظم مدارس القاهرة وأجلّها»[4].

وأشار المقريزى إلى مدرسة عمرها الملك العادل ووقفها على «المالكية» كانت معروفة بالمدرسة «العادلية» أو بمدرسة الملك العادل[5]، كما أشار إلى مدارس أخرى عمرها أمراء أو أنشئوها، وهى المدرسة «الأزكشية» التى أوقفها على الفقهاء «الحنفية» الأمير أيازكوج فى سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م، وكان أحد أمراء صلاح الدين[6]، ومدرسة أخرى تجاهها لفقهاء «الحنفية» كذلك كان

---

(١) انظر صفحة ٤٢٧ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٢) انظر صفحتا ٥٤،٥٥ من الجزء السادس من «النجوم الزاهرة» لأبى المحاسن وهذه هى المدرسة السابعة من قائمتنا.

(٣) انظر صفحة ٣٦٤ من الجزء الثانى من «الخطط»، وصفحتا ٩٣ و ٩٤ من «كتاب الانتصار» لابن دقماق. وذكر المقريزى فى الصفحة التالية أن الملك المظفر هذا بنى بمدينة الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية. كما أنه بنى مدرسة ثالثة بمدينة «الرها». وجاء فى ابن خلكان أن الذى بنى مدرستى الفيوم هو تقى الدين عمر وأنه تم بناؤهما فى سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م. انظر صفحة ٣٩١ من الجزء الثانى من «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، لابن خلكان، وانظر كذلك صفحة ٩٣ - ٩٤ من كتاب «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» لابن دقماق. والمدرسة «التقوية» هذه هى المدرسة الثامنة من قائمتنا.

(٤) انظر صفحة ٣٦٦ من الجزء الثانى من «الخطط». وهذه هى المدرسة التاسعة من قائمتنا.

(٥) انظر صفحة ٣٦٥ من الجزء الثانى من «الخطط». وهذه هى المدرسة العاشرة.

(٦) انظر صفحة ٣٦٤ من الجزء الثانى من «الخطط»، وقد ذكرها المقريزى مكررة فى صفحة ٣٦٧، وعدها مدرستين. وهذه هى المدرسة الحادية عشرة.

اسمها المدرسة «الغزنوية»، بناها الأمير حسام الدين قايماز مملوك السلطان الصالح نجم الدين أيوب[1]، والمدرسة «القطبية»، التى أنشأتها فى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م الست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون، ابنة الملك العادل، وكانت موقوفة على دروس الفقهين الشافعى والحنفى، كما كان بها «تصدير قراءات وفقهاء يقرءون»[2].

وأنشئت كذلك مدرستان للفقه الشافعى، إحداهما المدرسة «الشريفية» (الثانية)، فى سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م[3]، والأخرى المدرسة «الفائزية»، فى تاريخ قريب من ذلك[4]. وأنشأ صفى الدين عبد الله بن شكر المدرسة «الصاحبية»، وكانت موقوفة على المذهب المالكى، كما كان يدرس بها النحو[5].

وأنشأ السلطان الملك الكامل فى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م مدرسة كانت تعرف بدار الحديث «الكاملية»[6]. وفى نفس السنة أنشئت المدرسة «الفخرية»، ولم يشر المقريزى إلى المذهب الذى كانت موقوفة عليه[7]. وكذلك لم يشر المقريزى إلى المذاهب التى كانت تدرس بالمدرسة «السيفية» التى أنشئت فيما بين سنتى ٥٧٧هـ و ٥٩٣هـ / ١١٨١م و ١١٩٤م[8]، والمدرسة «العاشورية»،

---

(١) انظر صفحة ٣٩٠ من المرجع نفسه، وهذه هى المدرسة الثانية عشرة.

(٢) انظر صفحة ٣٦٨ من المرجع نفسه، وقد ذكرها المقريزى مكررة فى صفحة ٣٩١، وهذه هى المدرسة الثالثة عشرة، وهى غير المدرسة القطبية الأولى التى جاء ذكرها فيما قبل، فى صفحة (٥١)، حاشية (٤).

(٣) انظر صفحة ٣٧٣ من الجزء الثانى من «الخطط»، وهذه هى المدرسة الرابعة عشرة. هذا وقد ذكر (كريسويل) فى صفحة ١٢٤ من الجزء الثانى من كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر» أن المقريزى لم يشر إلى هذه المدرسة وأن ابن دقماق هو الذى ذكرها فى صفحة ٩٣ من الجزء الرابع من «كتاب الانتصار»، ورجح كريسويل بناءها قبل سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م. وواقع الأمر أن هذه المدرسة «الشريفية» لم يذكرها ابن دقماق وقد ذكرها المقريزى صراحة وحدد تاريخها فى الصفحة المشار إليها فى بداية هذه الحاشية، وذكر أنها كانت من قبل مسكن منشئها، ابن نصر إسماعيل بن ثعلب. أما المدرسة «الشريفية» التى يشير إليها ابن دقماق فى الصفحة المشار إليها أعلاه فهى المدرسة «الشريفية» الأولى التى كانت معروفة باسم المدرسة «الناصرية» ثم بمدرسة «ابن زين التجار»، كما سبق أن أوضحنا فيما سبق فى صفحة (٥٣)، الحاشية رقم (٦).

(٤) انظر صفحة ٣٦٥ من الجزء الثانى من «الخطط». وهذه هى المدرسة الخامسة عشرة من قائمتنا.

(٥) انظر صفحة ٣٧١ من المرجع السابق، وهذه هى المدرسة السادسة عشرة

(٦) انظر صفحة ٣٧٥ من الجزء الثانى من «الخطط»، وهذه هى المدرسة السابعة عشرة.

(٧) انظر صفحة ٣٦٧ من المرجع السابق، وهذه هى المدرسة الثامنة عشرة.

(٨) انظر صفحة ٣٦٨ من المرجع السابق، وهذه هى المدرسة التاسعة عشرة.

وتاريخها مجهول[1]، والمدرسة «المسرورية» التى أنشئت، فى سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م[2] والمدرسة «الصيرمية» التى أنشئت قبل سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م[3].

وأمر السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤٢م بإنشاء المدرسة «الصالحية» «بخط ما بين القصرين» ورتب فيها دروسًا أربعة للفقهاء والمنتمين إلى المذاهب الأربعة[4]. وأخيرًا يشير المقريزى إلى مدرسة أنشئت فى سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٣م، وكانت تعرف بمدرسة «ابن رشيق»، وكانت مخصصة للمذهب المالكى[5].

يتضح من هذا العرض أن جملة المدارس المعروفة بمصر القاهرة فى العصر الأيوبى أربع وعشرون مدرسة، منها ست مدارس خصصت للمذهب الشافعى، وثلاث للمذهب الحنفى، وثلاث للمذهب المالكى، وسبع لم تحدد مذاهب الدراسة بها، ومدرسة واحدة للمذهبين الشافعى والمالكى معًا، وأخرى للمذهبين الشافعى والحنفى وعلم القراءات، وثالثة للمذهب المالكى وعلم النحو، ورابعة للحديث وخامسة للمذاهب الأربعة.



المدرسة الكاملية

اندثرت مدارس القاهرة فى العصر الأيوبى ولم يتبق منها غير أطلال مدرستين، إحداهما المدرسة الكاملية. يصفها المقريزى بقوله: إن هذه المدرسة كانت «بخُطّ بين القصرين من القاهرة وتعرف بدار الحديث الكاملية، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد، ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شاوى بن مروان، فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة (٦٢٢هـ)، وهى ثانى دار عملت للحديث، فإن أول من بنى دارًا «للحديث» على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمد بن زنكى بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار ووقفها على المشتغلين

(١) انظر شرحه، وهذه هى المدرسة العشرون من قائمتنا.

(٢) انظر صفحة ٣٧٨ من الجزء الثانى من «الخطط»، وهذه هى المدرسة الحادية والعشرون.

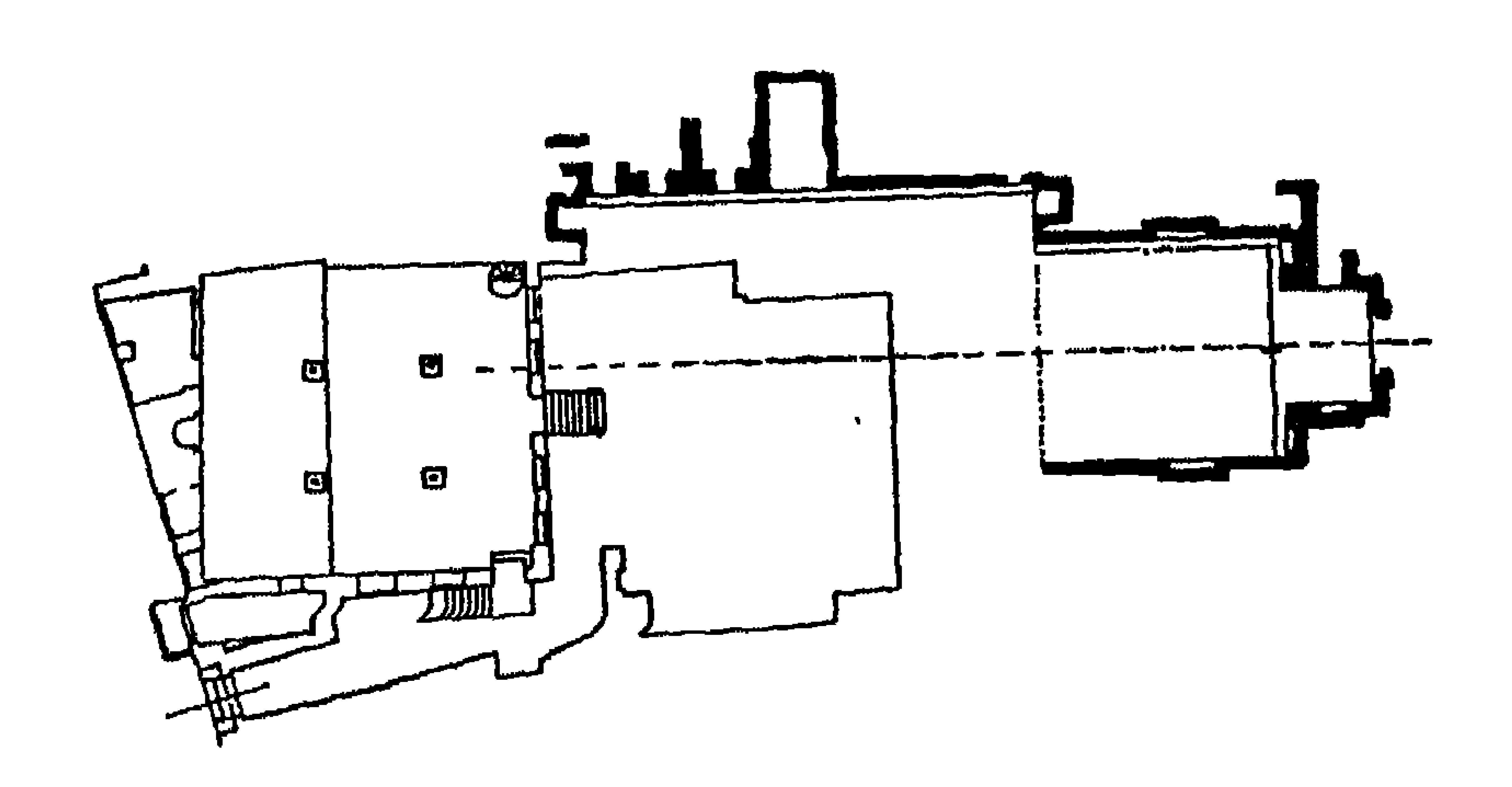
(٣) انظر شرحه، وهذه هى المدرسة الثانية والعشرون.

(٤) انظر صفحة ٣٧٤ من الجزء الثانى من «الخطط»، وهذه هى المدرسة الثالثة والعشرون.

(٥) انظر صفحة ٣٦٤ من المرجع السابق، وهذه هى المدرسة الرابعة والعشرون من قائمتنا.

بالحديث النبوى ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنشف ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر، وهذا الدرب من إنشاء الملك الكامل وكان موضعه فى جملة القصر الغربى، ثم صار موضعا يسكنه القماحون. وكان موضع المدرسة سوقًا للرقيق ودارًا تعرف بابن كستول». وظلت هذه المدرسة زاهرة حتى سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م، «فتلاشت كما تلاشى غيرها»[1]. ومع ذلك فقد كانت مبانى هذه المدرسة قائمة فى عهد المقريزى، أى حوالى سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م، إذ إنه يشير إليها فى موضع آخر من كتابه بقوله «المدرسة الكاملية المعروفة بدار الحديث وهى ملاصقة للمدرسة الظاهرية الجديدة»[2]. وكانت تواجه باب قصر بشتاك.

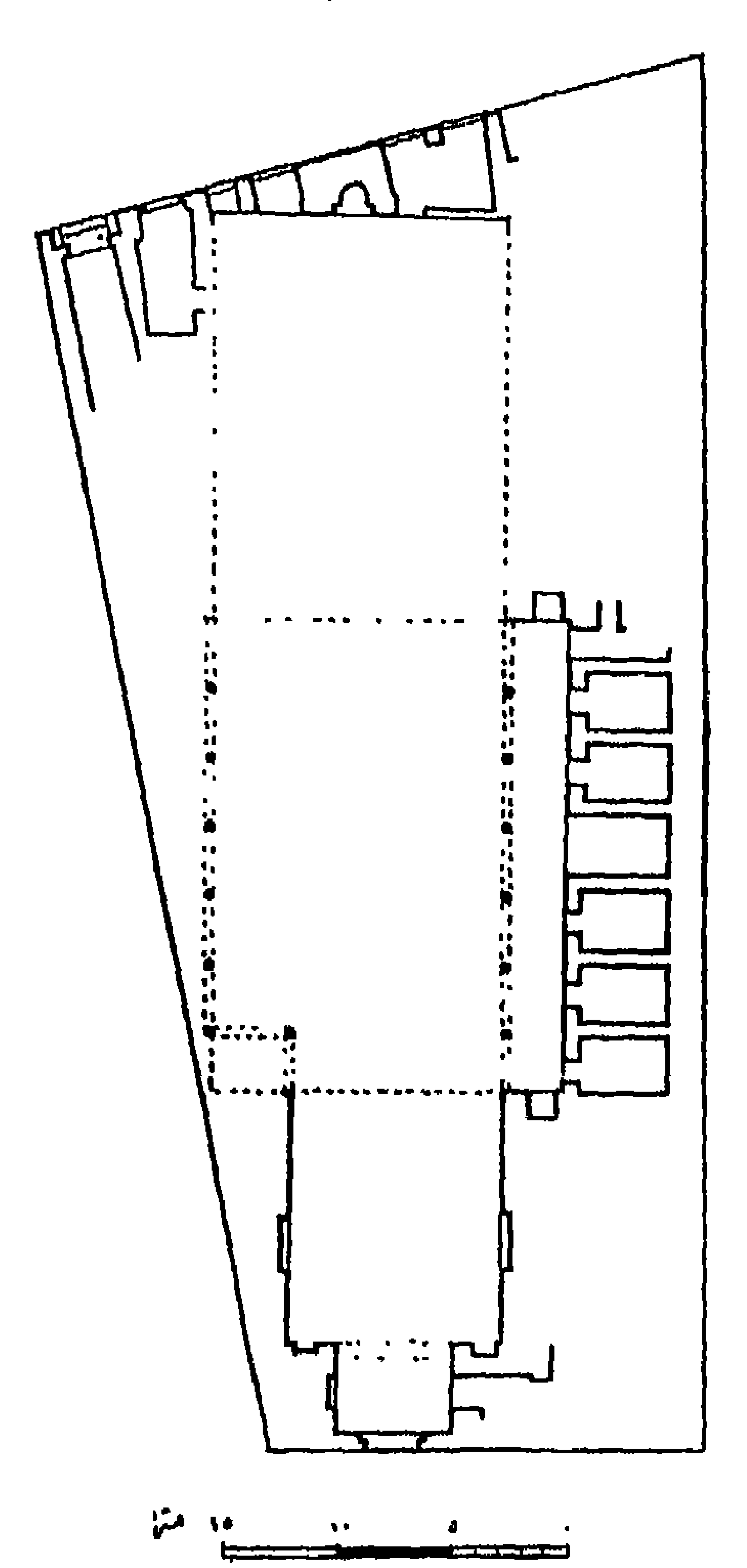
وكان على باب هذه المدرسة لوحة منقوش عليها ما نصه: «أحيا هذه المدرسة الكاملية دار الحديث بعد الاندراس وأعادها محكمة البناء والأساس الأمير حسن كتخدا مستحفظان الشعراوى صانه الله من المساوى وكان له وقاية فى الدارين وسببًا فى الجمع بين الحسنيين سنة ١١٦٦هـ» / ١٧٥٢م[3].



شكل (٩) رسم تخطيطى لأطلال المدرسة الكاملية. (عن مصلحة الآثار)

(١) انظر صفحة ٣٧٥ من الجزء الثانى من «الخطط».
(٢) انظر صفحة ٣٧٥ من الجزء الأول من «الخطط».
(٣) انظر صفحة ٩٨ من الجزء الأول من (فان برشم)، «موسوعة النقوش العربية».

وكانت أطلال هذه المدرسة محاطة بالأتربة فأزالتها مصلحة الآثار فى سنة ١٩٠٣م. وحاولت هذه المصلحة أن تجرى فيها حفائر بعد ذلك، «ولكن لم يترتب على هذه العملية كشف شيء جديد»[١]، وإن كانت قد أسفرت عن محاولة لرسم تخطيطها، شكل (١٠). واختفت من الأطلال إطارات زخرفية لنافذة كانت فى صحن المدرسة، لوحة رقم (٢١)[٢].



شكل (١٠)
محاولة لجنة حفظ الآثار العربية
لرسم تخطيط المدرسة الكاملية

(١) انظر صفحة ٧٣ من المجموعة الحادية والعشرين، سنة ١٩٠٤م، من «محاضر لجنة حفظ الآثار العربية»، ظهر منها ٤١ جزءًا من سنة ١٨٨٢م إلى سنة ١٩٦٣م، بعضها باللغة العربية، ومعظمها باللغة الفرنسية، كما ظهر منها فهرس عام باللغة الفرنسية للأعداد الـ ٢٧ الأولى من سنة ١٨٨٢م إلى سنة ١٩١٠م.

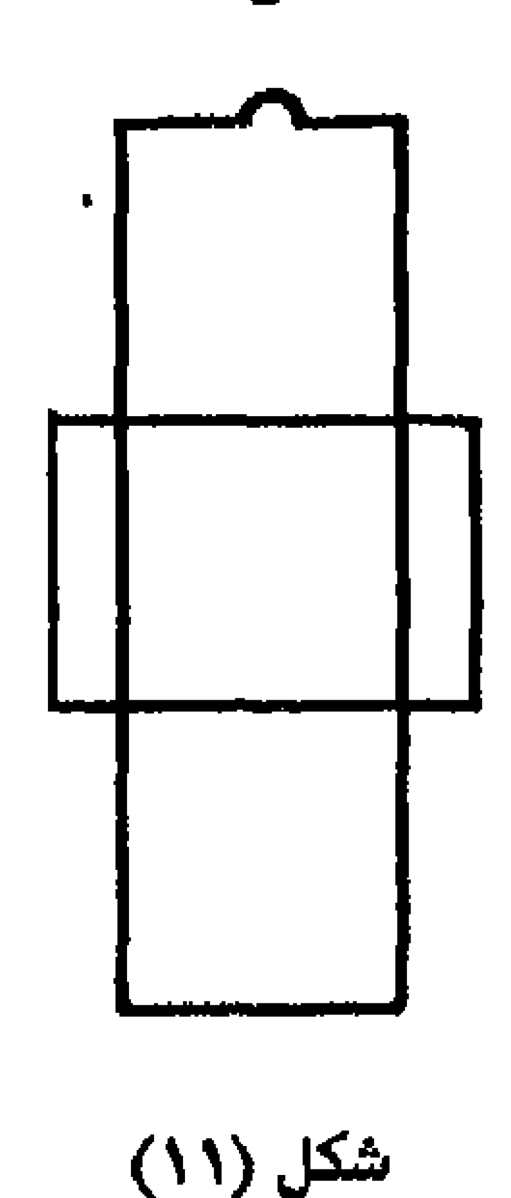
(٢) انظر سفحة ١٠٠ من الجزء الأول من (فان برشم)، «موسوعة النقوش العربية».

تبقى من هذه المدرسة فى عهدنا هذا جزء من قاعة مستطيلة فى مؤخرها، طولها عشرة أمتار ونصف المتر تقريبًا، وعرضها تسعة أمتار ونصف المتر، شكل (٩). وهى مسقوفة بقبوة مدببة مبنية بالآجر، على هيئة قبوة قاعة الثعالبة، أى إنها تتكون من مداميك أفقية تعلوها مداميك رأسية. وتبلغ فتحة القبوة تسعة أمتار ونصف المتر تقريبًا، ويبلغ ارتفاعها من عند مستوى منبتها ستة أمتار تقريبًا، أما ارتفاعها عن سطح الأرض فهو غير معروف لأن الأتربة مكدسة إلى ارتفاع كبير فوق أرضية البناء. وجدران القاعة مبنية من الحجارة، وهى سميكة يقرب سمكها من المترين، أما سمك القبوة فهو متدرج يبلغ عند المنبت فوق الجدران مترًا، وينخفض عند القمة إلى نصف المتر، لوحة رقم (٢٢).

وكان بجدران القاعة الجانبية تجويفان مستطيلان، امتداد كل منهما متران تقريبا، ولا يعرف عمقهما لأنهما سدا فيما بعد بالبناء. وبالجدار الجوفى، المؤخر، تجويف كذلك يقرب عمقه من أربعة الأمتار ويبلغ طوله خمسة أمتار، يتصدره عقد مدبب يصله بالقاعة، وأغلب الظن أنه لم يكن هذا التجويف مسقوفًا إذ إنه لا تلاحظ آثار بناء قبوة فوق جدرانه.

ولا شك فى أن هذه القاعة كانت تقابل بيتًا للصلاة، لأن جداريها الجانبيين يمتدان فى اتجاه القبلة، ولا شك كذلك فى أنها كانت تطل على صحن يقع بينها وبين بيت الصلاة. وأغلب الظن كذلك أنه كانت هنالك غرف مفتوحة على جانبى الصحن، وأن هذه الغرف كانت من طابقين، وأنه كان يمتد أمام الطابق الأول منها رواق يطل على كل من جانبى الصحن بعقود قائمة على عمد.

وقد حاول بعض علماء الآثار أن يرسموا تخطيط هذه المدرسة كما كان فى عهد إنشائها، واستعانوا بما تبقى بها من أطلال. ومن بين هذه المحاولات الرسم الذى وضعه (ريشموند) فى سنة ١٩٢٦م[1]، شكل (١١)، والرسم الذى نشره (كريسويل) فى سنة ١٩٥٩م[2]، شكل (١٢). ولكن هذين الرسمين قائمان، فى رأيى على محض الافتراض، إذ ينقصهما عنصر رئيسى، وهو الحدود الخارجية للمدرسة التى لا تتوفر العناصر الأثرية لتحديدها، وهذا هو السبب الذى دفعنى إلى العدول عن محاولة أخرى.



شكل (١١)

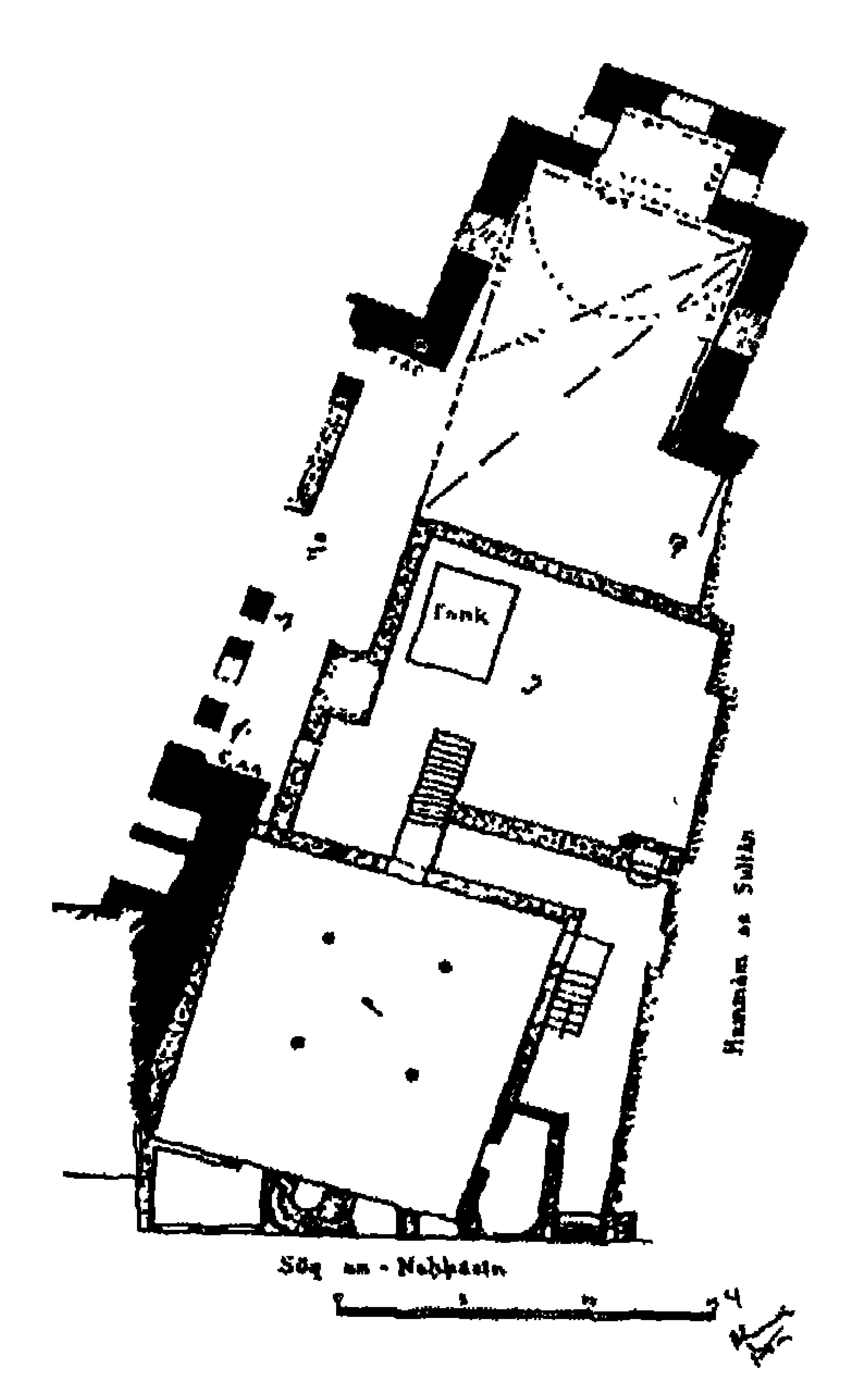
(١) انظر شكل ٣٤ من كتابه «العمارة الإسلامية».

.RICHMOND. Moslem Architecture. London. 1926

(٢) انظر شكل ٣٧ من الجزء الثانى من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر».

غير أنى أعتقد أن حدود المدرسة كانت مستطيلة وأنه كانت تحتل أركانها الأربعة قاعات للشيوخ والدراسة والمرافق العامة، على جانبى بيت الصلاة من جهة وعلى جانبى المؤخر من جهة أخرى، وأن غرف الطلاب كانت تمتد، كما افترضت، على جانبى الصحن.

هذا كل ما نستطيع أن نتبينه من آثار المدرسة الكاملية. وقد احتفظت مصلحة الآثار بصورة فوتوغرافية، لوحة رقم (٢١)، لزخرفة كانت تحيط بنافذة غرفة، أو نافذتين، من الغرف الجانبية الغربية التى كانت تطل على الصحن. وتتكون هذه الزخرفة من إطارين متجاورين مستطيلين، تمتد على الإطار الخارجى منهما كتابة كوفية لآيات قرآنية منقوشة على الجص بحروف رفيعة جميلة فوق أرضية نباتية مزهرة بديعة. وتمتد على الإطار الخارجى أشكال فروع نباتية متداخلة ترسم حلقات متناسقة، ويحدد هذين الإطارين ثلاثة أشرطة من خطوط هندسية متشابكة.



شكل (١٢) – محاولة (كريسويل) لرسم تخطيط المدرسة الكاملية



المدارس الصالحية

روى المقريزى[1] أن «هذه المدرسة بخط ما بين القصرين من القاهرة، وكان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقى، فبنى فيه الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبو بكر ابن أيوب هاتين المدرستين، فابتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ثالث عشر ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وستمائة هجرية / ١٤ يونية ١٢٤٢م ودك أساس المدارس[2] فى رابع عشر ربيع الآخر سنة أربعين هجرية / ١١ سبتمبر ١٢٤٢م، ورتب فيها دروسا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة إحدى وأربعين وستمائة هجرية / ١٢٤٣م، وهو أول من عمل بديار مصر دروسًا أربعة فى مكان، ودخل فى هذه المدارس باب القصر المعروف بباب الزهومة وموضعه قاعة شيخ الحنابلة، ثم اختط ما وراء هذه المدارس فى سنة بضع وخمسين وستمائة / ١٢٥٢م، وجعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية...». ويفهم من رواية المقريزى أن أعمال البناء قد تمت فى سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م، ويؤكد ذلك النص المنقوش على بوابة المدرسة وفيه، كما سنرى، تسجيل لهذا التاريخ. ويضيف المقريزى إلى روايته، بعد أن أشار إلى المدرسين الذين تولوا التدريس بهذه المدرسة أن «الخطبة استمرت هناك إلى يومنا هذا» وأن «قاعة شيخ المالكية» كانت فى الموضع الذى بنيت فيه فيما بعد قبة الصالح نجم الدين[3]، ثم يضيف كذلك قوله: «إن القبة التى فيها قبر الملك الصالح مجاورة لإيوان الفقهاء المالكية»[4]. ووردت فى موضع آخر من المقريزى أن «المدارس الصالحية النجمية» أقيمت فى موضع القصر الشرقى الكبير وأن بابها تجاه الصاغة يجد السالك إليه عن يمينه «المدرسة الصالحية التى للحنفية والحنابلة» وعن يساره «المدرسة الصالحية التى للشافعية والمالكية»[5].

---

(١) انظر صفحة ٣٧٤ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٢) ترجم (كريسويل) هذه الفقرة خطأ بـ «ودك أساس المدرستين» وذلك فى صفحة ٩٤ من الجزء الثانى من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٣) انظر صفحة ٣٧٤ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٤) انظر صفحة ٣٧٥ من نفس المرجع.

(٥) انظر صفحة ٣٧٤ من الجزء الأول من «الخطط».

وأول ما يلاحظ على رواية المقريزى أنه أشار فيها مرة واحدة إلى «المدرستين» وأشار أكثر من مرة إلى «المدارس الصالحية» وأحيانًا إلى «المدرسة الصالحية» مفردة. وكانت هذه المدرسة قائمة على عهد على مبارك، إذ إنه ذكر أن «من داخل بابها الكبير بابان متقابلان أحدهما يوصل إلى محل الحنابلة والشافعية، والآخر إلى محل المالكية والحنفية، وكانت تسمى المدارس الأربع»[1].

صفة «المدارس» كانت تغلب إذن على «المدرسة الصالحية»، ومما يؤكد هذه الصفة النص المنقوش على اللوحة التأسيسية للبناء، إذ لم يرد فيه اسم «المدرسة» منفردة، وإنما سجل فيه أن الملك الصالح أمر بإنشاء هذه «المدارس»[2].

بقى أن نحاول تحديد موضع كل مدرسة من هذه «المدارس» وقد رأينا أن المقريزى حدد صراحة موضع المدرسة «المالكية» وذكر أنها كانت فى الموضع الذى يقوم فيه ضريح الملك الصالح أى فى الركن الشمالى، المتصل بالجدارين الشرقى والشمالى. ثم إن المقريزى ذكر كذلك أن هذه المدرسة «المالكية» كانت فى قسم واحد مع المدرسة «الشافعية»، فتكون المدرسة الشافعية مواجهة للمالكية، أى فى جهة القبلة، وفى الركن المتصل من جدار القبلة بالجدار الشرقى كذلك. ويكون موضع المدرستين المخصصتين للمذهبين الحنفى والحنبلى فى القسم المقابل، متصلاً بالجدار الغربى. وجاء فى رواية المقريزى كذلك أن باب القصر الشرقى المعروف بباب الزهومة كان فى موضع «قاعة شيخ الحنابلة» وهو باب كان يطل على الميدان، وبالتالى على شارع بين القصرين فى امتداد واجهة «المدارس»، أى إن موضع هذه المدرسة «الحنبلية» كان فى الركن الشمالى المتصل بالجدار الغربى. ولما كانت المدرسة «الحنفية» فى قسم واحد معها، فيكون موضعها فى الركن الجنوبى المتصل بالجدار الغربى من جهة، وبجدار القبلة من جهة أخرى[3]. ومن هذا يتضح أن (على مبارك) أخطأ حين ذكر أن «محل الحنابلة والشافعية فى بناء» وأن «محل المالكية والحنفية» فى بناء آخر، وأنه

---

(١) انظر صفحة ٦٤ من الجزء الرابع من: «الخطط الجديدة التوفيقية».

(٢) انظر نص هذه اللوحة فى صفحة ٦٧ فيما بعد.

(٣) ذكر (كريسويل) فى صفحة ٩٥ من الجزء الثانى من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر» أن المقريزى روى فى صفحة ٣٩٥، سطر ٣٧، من الجزء الأول من «الخطط» من طبعة بولاق، أن «المدرسة البديرية تقع بجوار باب قاعة شيخ الحنفية»، وليس فى الصفحة التى يشير إليها (كريسويل) من «الخطط» أى أثر لهذه الرواية. والذى جاء فى «الخطط» فى صفحة ٣٩٢ من الجزء الثانى أن «المدرسة البديرية» تقع «بجوار باب سر المدرسة الصالحية النجمية»، ويفهم من هذا النص أنه كان لهذه «المدارس» باب خلفى صغير فى الجهة المقابلة للبوابة الرئيسية. وما زالت آثار من «المدرسة البديرية» باقية فى هذه المنطقة.

يوصل إلى هذين المحلين «بابان متقابلان»[1]. وقد رأينا، وفقا لروايات المقريزى أن هذين البابين المتقابلين يوصلان من جهة إلى المدرستين «الشافعية والمالكية» ومن جهة أخرى إلى المدرستين: «الحنفية والحنبلية».

وقد اندثرت أبنية هذه المدارس الداخلية فى جملتها، والذى يتبقى منها يقتصر على قاعة «المدرسة» المجاورة لقبة الملك الصالح، والتى ذكر المقريزى أنها كانت «إيوان الفقهاء المالكية»، وعلى جزء من القاعة القبلية المقابلة لهذا «الإيوان» التى كانت «للشافعية»، كما تبقى بالقرب من هذا «الإيوان» عمودان[2]. أما بوابة «المدارس» وواجهتها الشمالية ومئذنتها فمازالت قائمة، فى حالة تعكس صورة بعض ما كانت تبدو عليه فى ماضيها المجيد.

وقد أجريت فى فناء هذه «المدارس» منذ عهد غير بعيد حفريات بسيطة أسفرت عن العثور فحسب على بضع قواعد متفرقة لأعمدة. واهتمت مصلحة الآثار بترميم ما تبقى من الأبنية التى أشرنا إليها وتدعيمها، وقامت بصفة خاصة بتجديد «الإيوان» وجزء كبير من الواجهة الشمالية[3]، كما شرعت فى إعادة بناء قبوة «إيوان» الشافعية التى كانت قد تهدمت تماما، ولكنها لم تتمها. وكذلك اهتمت مصلحة الآثار بعمل رسوم تخطيطية وقطاعات رأسية لآثار هذه المدارس، وهى التى ننشر بعضها فى الصفحات التالية. وكانت أجزاء قليلة من مبانى القسم الغربى ما زالت قائمة فى سنة ١٨٧٠م، ولكنها أصبحت أكوامًا من التراب والحجارة فى سنة ١٩٠٢م[4].

ويستدل من الآثار المتخلفة من هذه «المدارس» أن القسم الشرقى منها، وهو الخاص «بالمالكية والشافعية»، كان يتكون من بيت للصلاة، وهو الذى شُرِع فى تجديد قبوته، طول جدار القبلة فيه عشرة أمتار تقريبًا، ويمتد جوفه خمسة عشر مترًا تقريبا، وفى جدار قبلته ثلاثة محاريب مجوفة، شكل (١٣)، وقد جعل تجويف مستطيل فى وسط كل من جداريه الشرقى والغربى. ويطل بيت الصلاة على صحن مستطيل عرضه ٢١ مترًا تقريبا، وطوله ٢٨ مترًا. وكان يحف بها الصحن من كل من جانبيه الشرقى والغربى رواق يطل

---

(١) انظر الحاشية (٢) فى الصفحة السابقة.

(٢) وتبقى كذلك من هذه المدارس باب خشبى ذو مصراعين محفوظ بالمتحف الإسلامى. انظر لوحتا ٣٠ و٣١ من كتاب (فايل)، «الأخشاب المنقوشة بالكتابات».

(٣) انظر محاضر لجنة حفظ الآثار العربية لسنة ١٩٠٢م والعدد الخاص بالسنوات ١٩١٥م إلى ١٩١٩م

(٤) أشار إلى ذلك (هرتس) فى المحاضر المشار إليها فى الحاشية السابقة وفى مقاله المشار إليه فى الحاشية (١) صفحة (٧٠) فيما يلى.

عليه ببائكة من ثمانية عقود ترتكز على تسعة أعمدة. وأقيمت خلف الرواق الشرقى أبنية من طابقين كانت فيها غرف للطلبة. أما من الجهة الغربية فكان صف الغرف المقامة خلف الرواق يقتصر على طابق واحد.



شكل (١٣) رسم تخطيطى للآثار المتخلفة من مبانى المدارس الصالحية، (عن مصلحة الآثار)

ويواجه بيت الصلاة على الصحن مؤخر، يتكون من قاعة مستطيلة مماثلة لبيت الصلاة، إلا أنها أصغر حجمًا، عرضها تسعة أمتار ونصف المتر تقريبًا، وجوفها أحد عشر مترًا ونصف المتر تقريبًا. وتقابل فيها ثلاث نوافذ مفتوحة فى جدار المؤخر، المحاريب الثلاثة التى فى بيت الصلاة.

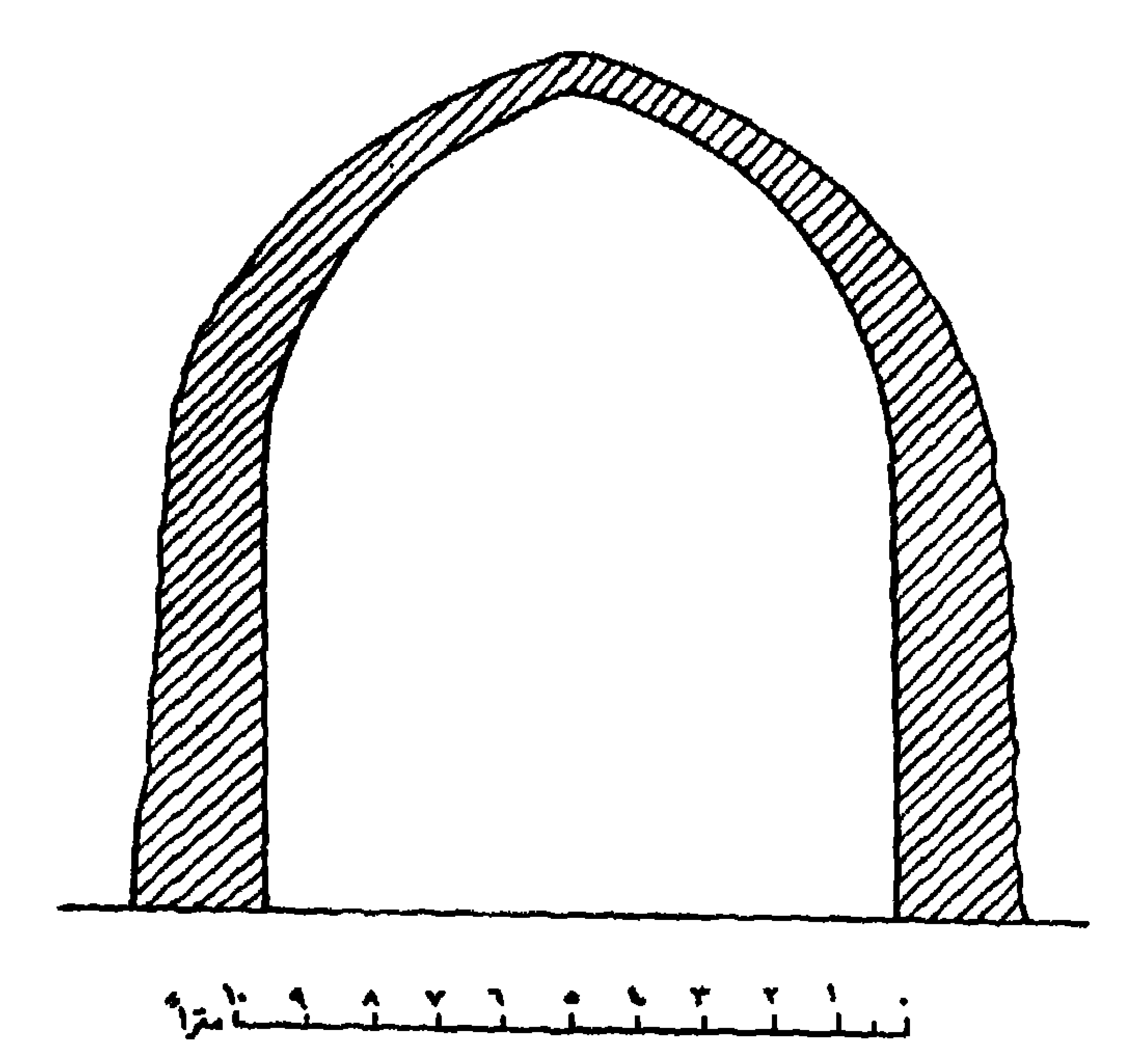
ولا شك فى أنه كانت هنالك قاعات ومنافع عامة تحتل أركان الصحن على جانبى كل من بيت الصلاة والمؤخر، من جهة، وفيما بينهما وبين غرف الطلاب، من جهة أخرى، ومن ذلك قاعة شيخ المالكية التى هدمت لبناء الضريح.

وبيت الصلاة والمؤخر مسقوفان بالبناء، سُقُفُهُمَا سميكة من الآجر على هيئة قبوة مدببة، تمتد قبوة من الصحن إلى جدار القبلة من ناحية، لوحة رقم (٢٣)، وتمتد قبوة ثانية من الصحن إلى

جدار الواجهة مواجهة للقبوة الأولى. لوحة رقم (٢٤). وتبدأ القبوتان عند الصحن من الناحيتين بعقد مدبب عال فسيح، يبلغ قطر فتحته فى بيت الصلاة عشرة أمتار تقريبًا، وهى أكبر فتحة عقد قائم فى آثار القاهرة منذ إنشائها، وإلى عهد المدارس الصالحية. أما القبوة فيبلغ ارتفاع قمتها الداخلية ١٣ مترًا ونصف المتر فوق الأرضية، ويبلغ سمكها مترًا تقريبا. ولهذا كانت جدران بيت الصلاة والمؤخر سميكة يقرب سمكها من المترين ونصف المتر شكل (١٤).

وأهم ما تبقى من هذه المدارس هو واجهتها، من جهة، وبوابتها ومئذنتها من جهة أخرى.

أما الواجهة فقد بنيت من حجارة مصقولة عنى برصها وتنظيمها عناية كبرى. وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام رأسية عظمى: القسم الأوسط، ويشمل البوابة وجوانبها، طوله ١٨ مترًا، وفيه خمسة فواصل رأسية، وبالقسم الأيمن، أى الشرقى، وطوله ٣١ مترًا، ثمانية فواصل رأسية، والقسم الأيسر من الواجهة، أى الغربى، وطوله ٢٦ مترًا ينقسم إلى سبعة فواصل رأسية. أى أن الواجهة تمتد أكثر من ٧٥ مترًا(١) وتنقسم إلى عشرين فاصلاً رأسيًّا، شكل (١٥).

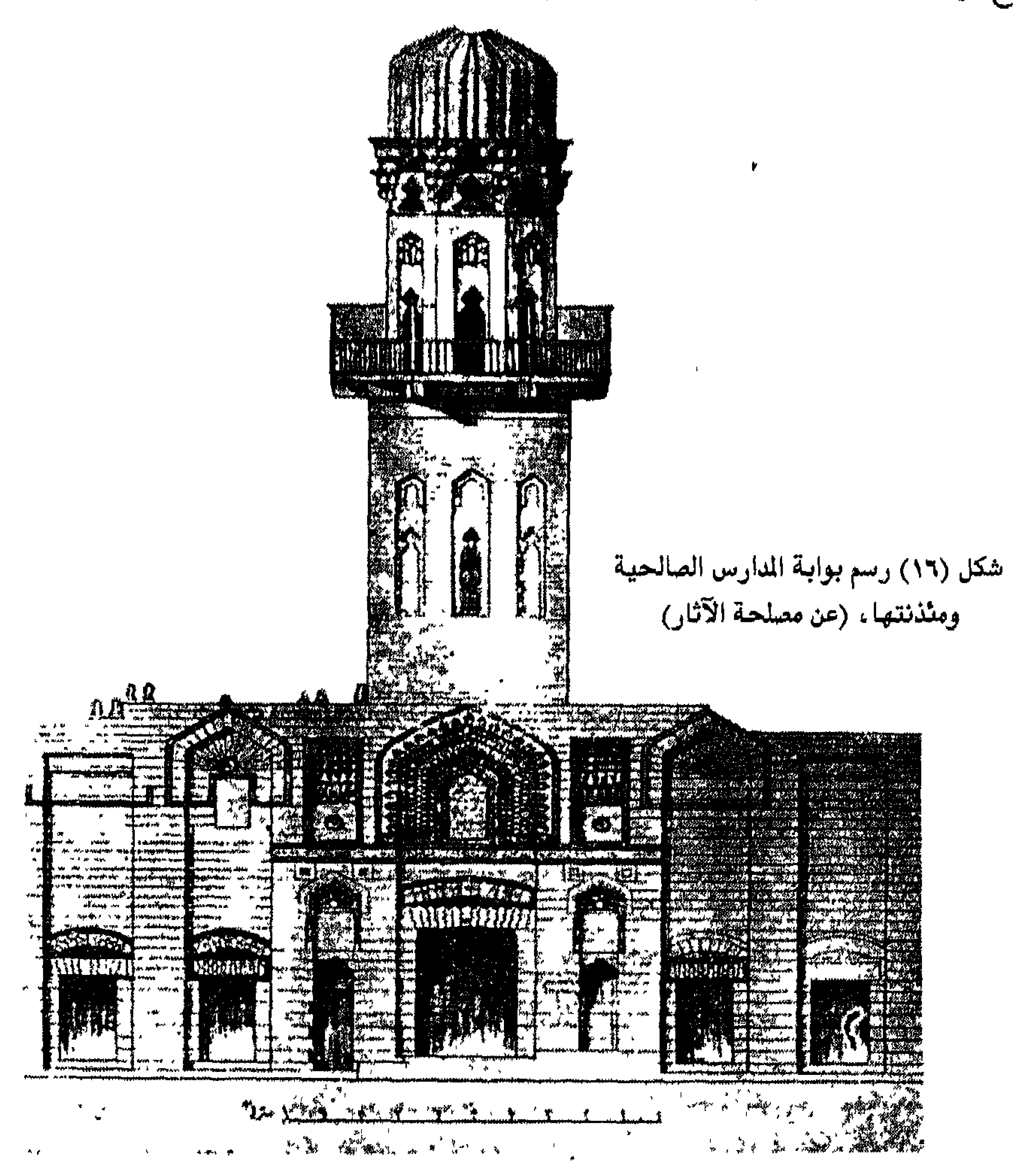


شكل (١٤) – قطاع رأسى لقبوة إيوان المالكية فى المدارس الصالحية

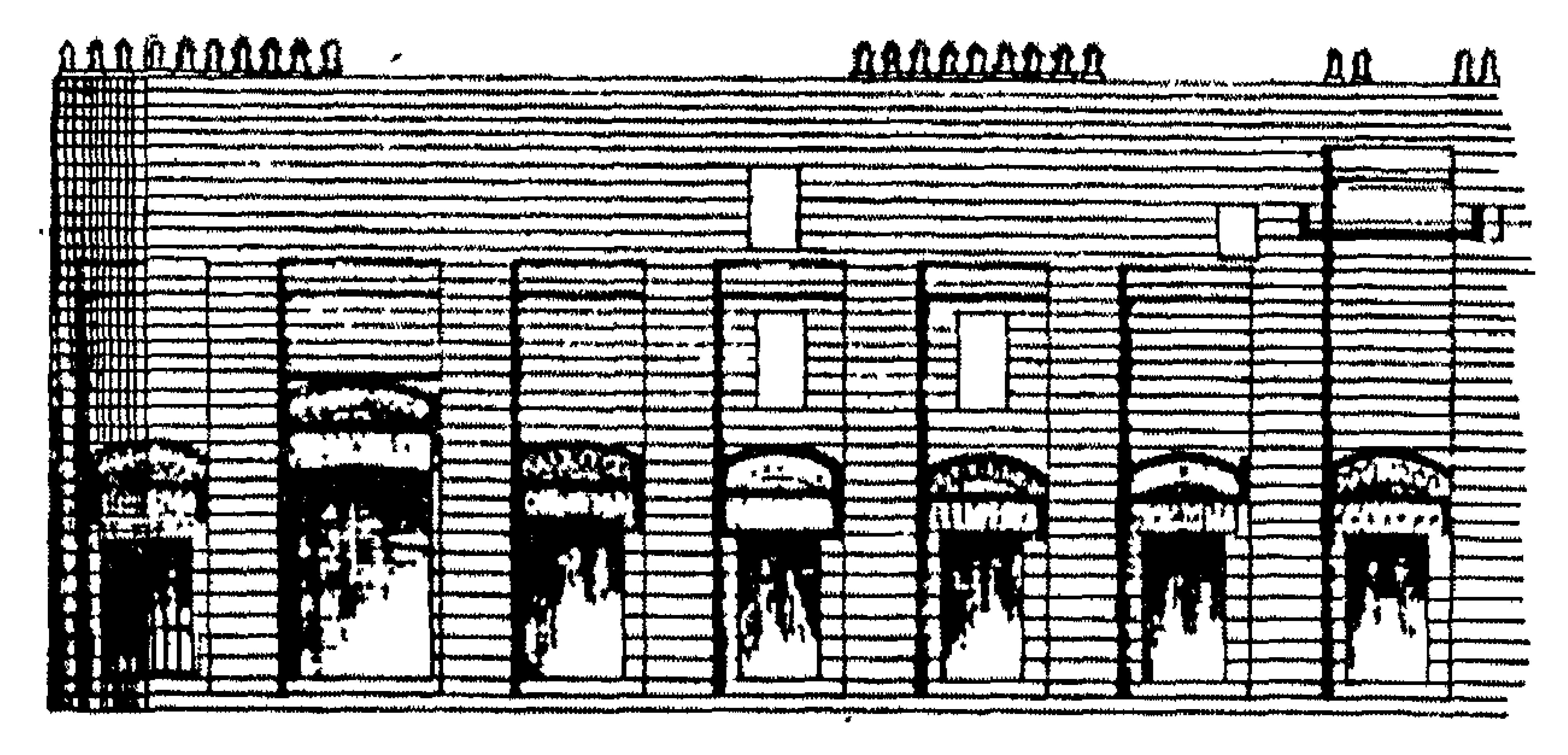
(١) كانت الواجهة تمتد كما سنرى فيما بعد، حوالى مائة متر، وكانت البوابة تتوسطها تمامًا. هذا وقد أدخلت مصلحة الآثار على الواجهة العتيقة بعض التعديلات الطفيفة أثناء إجراء أعمال التجديد فى سنة ١٩٥١م.

شكل (١٥) رسم تخطيطي لواجهة المدارس الصالحية، (عن مصلحة الآثار)

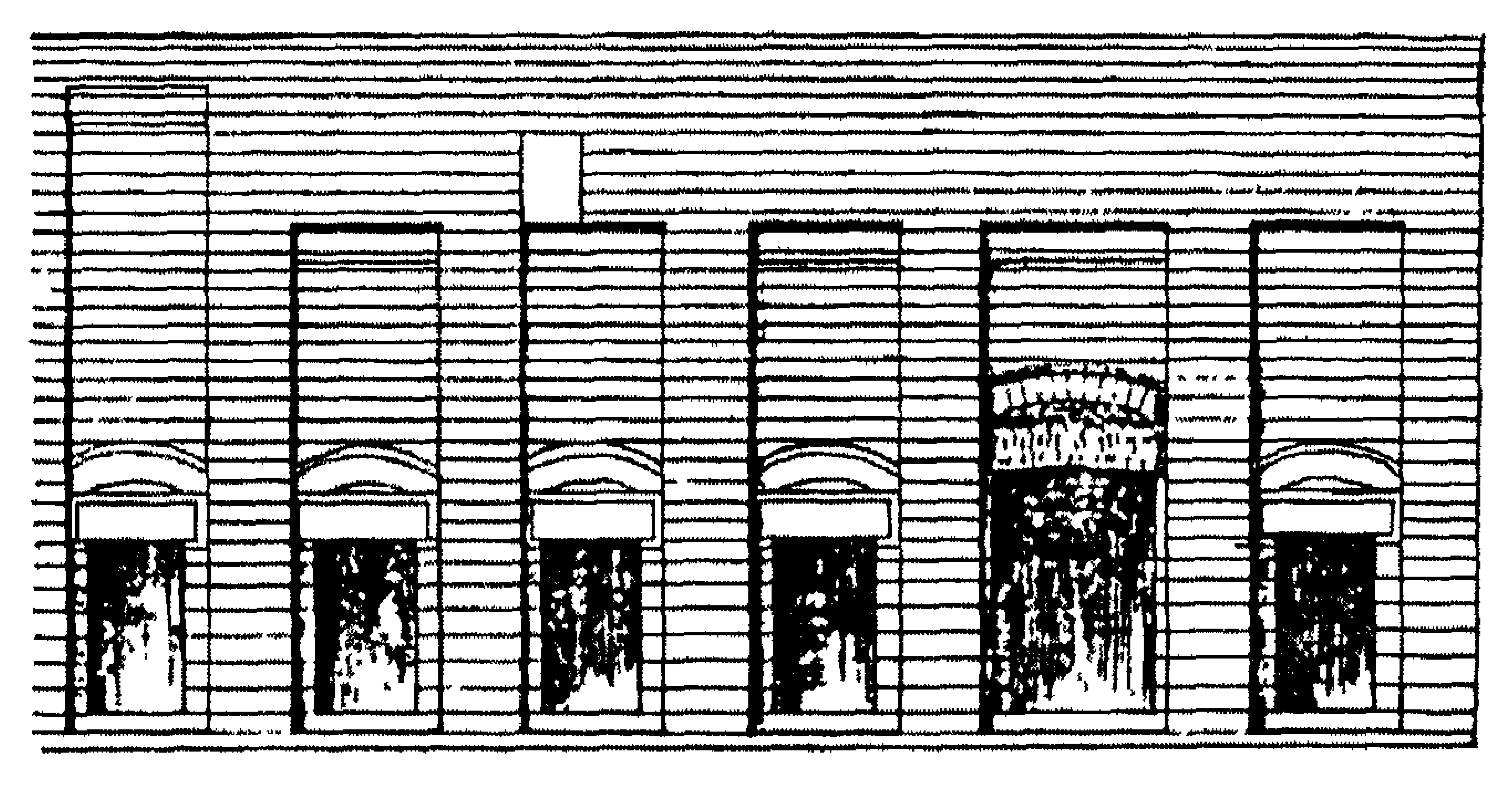
ويبلغ ارتفاع القسم الأوسط اثنى عشر مترًا، أما القسمان الشرقى والغربى فيقل ارتفاعهما عن ذلك نصف المتر تقريبًا، وذلك فيما عدا الشرفات التى كانت تمتد فوق الواجهة جميعا والتى كان يبلغ ارتفاعها نصف المتر، الشكلان (١٦ و١٧).



شكل (١٦) رسم بوابة المدارس الصالحية ومئذنتها، (عن مصلحة الآثار)



شكل (١٧) – رسم للقسم الشمالى الشرقى من واجهة المدارس الصالحية



شكل (١٨) رسم للقسم الجنوبى الغربى من واجهة المدارس الصالحية

وبوابة المدارس عظيمة الشأن، يتوسطها أفقيًّا إزار طويل من كتابة منقوشة بالخط النسخى فيها ذكر منشئها والدعاء له، ويتوسطها رأسيًّا باب فسيح تقرب فتحته من ثلاثة أمتار، ويبلغ ارتفاعه أربعة أمتار، وتمتد فوقه عتبة أفقية من خمس عشرة صنجة معشقة، يعلوها عقد منبطح من خمس عشرة صنجة أخرى مستطيلة غير معشقة ظاهريا، شكل (١٦) ولوحة رقم (٢٥). ويعلو هذا القسم من المدخل، فوق الإطار الخطى المنقوش طاقة صماء على شكل محارة ضخمة من خمس طوابق متراجعة تنحصر فى عقد منفرج، وتتوسطها لوحة محصورة فى عقد آخر منفرج مطول، يقرأ عليها منقوشا بالخط النسخى ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه

المدارس المباركة مولانا السلطان الأعظم الملك الصالح نجم الدين والدنيا أبو الفتح أيوب خليل أمير المؤمنين أعز الله نصره فى سنة إحدى وأربعين وستمائة»[1]، لوحة رقم (٢٥). ويحف بهذه الطاقة الصماء عن كل من يمينها ويسارها طاقة صماء أخرى مستطيلة الشكل نحتت أسفلها سرّة شمسية، وصفت فى نصفها الأعلى مجموعة من خمسة محاريب مصغرة، نقشت عليها بالخط الكوفى البارز جملة من خمسة ألفاظ هى: «الله لا إله إلا الله». وامتدت فوق هذه المحاريب ثلاثة صفوف من المقرنصات المجوفة الصغيرة.

أما الباب نفسه، فإنه يحف به عن كل من يمينه ويساره، طاقة صماء معقودة بعقد مدبب، يعلوها شكل محراب مسطح تتوجه محارة مضلعة.

ويرتقى كلٌ من جانبى البوابة فاصل مرتفع متراجع عن سمتها، يتوجه عقد منفرج، لوحة رقم (٢٦). وقد فتحت نافذة مستطيلة فى الجزء الأسفل من كل من هذين الفاصلين، نظم رأسها من عتبة من حجارة معشقة تعشيقًا زخرفيًّا، ومد فوقها عقد منبطح من صنج مستطيلة غير معشقة الظاهر، وكانت مسطحاتها منقوشة بأشكال زخرفية. وجعل فيما بين العتبة والعقد المنبطح حشوة امتدت عليها الزخارف، كما امتد إطار زخرفى فوق كل من العتبة والعقد المنبطح، وإلى جانبى كل منهما، لوحة رقم (٢٧).

ويتكون القسم الشمالى الشرقى من الواجهة من ثمانية فواصل، مستطيلة متراجعة، أو مجوفة فى الجدار، لوحة رقم (٢٨): الفاصلان الأولان منها أكثر ارتفاعًا من الستة الأُخر. والقسم الأعلى من هذه التجاويف عار من كل زخرفة، لوحة رقم (٢٩)، أما القسم الأدنى من كل منها فتشغله نافذة مستطيلة، على غرار النافذتين المفتوحتين إلى جانبى البوابة، من حيث نظامهما وزخرفتهما.

ويتكون الجزء الأيسر من الواجهة، وهو القسم الجنوبى الغربى، بالإضافة إلى الفاصل المرتفع الجانبى للبوابة، من ستة فواصل مستطيلة متراجعة، مجوفة فى الجدار، على غرار فواصل القسم الشمالى الشرقى، نظامًا وزخرفة، شكل (١٨). غير أن زخارف هذا القسم قد انطمس معظمها من تأثير المبانى التى كانت ملصقة بها ثم أزيلت.

ويلاحظ أن النافذة المفتوحة فى الفاصل السابع من القسم الشمالى الشرقى، وكذلك النافذة المفتوحة فى الفاصل السادس من القسم الجنوبى الغربى، أكبر سعة من بقية النوافذ وأكثر

(١) أخطأ (فان برشم) فى قراءة هذا النص فاستدل بلفظة «المدارس» كلمة «المدرسة» وذلك فى صفحة ١٠٣ من الجزء الأول من (موسوعة النقوش العربية)

ارتفاعًا، وهما اللتان كانتا مفتوحتين فى القاعتين الكبيرتين، أو الإيوانين المقابلين لهما، إيوان المالكية من جهة، وإيوان الحنابلة من جهة أخرى.

وللمدارس الصالحية مئذنة عظيمة الأهمية، ترتفع قمتها عن سطح الأرض ٣٢ مترًا، شكل (١٦) ولوحة رقم (٣٠)، وهى قائمة فوق البوابة، وقد بنيت كلها من الآجر، وبها ثلاثة طوابق. أما الطابق الأول، وهو الذى يعلو بوابة المدارس مباشرة، فهو مكعب، طول كل ضلع من أضلاع قاعدته خمسة أمتار ونصف المتر، وارتفاعه يقرب من ضعف ذلك، (١٠,٤٠ أمتار). وقد حليت كل من واجهاته الأربع بثلاثة تجاويف مستطيلة، حفرت عليها أشكال محاريب، قمتها مقصوصة على هيئة مشكاة، وتوج كل من هذه التجاويف بعقد متفرج مَحارِىّ، وجميع هذه المحاريب طاقات صماء، فيما عدًا المحراب الوسيط فى الواجهة الشمالية المطلة على الشارع، فهو مفتوح كالنافذة.

والطابق الثانى من المئذنة مثمن الأضلاع، قطره أربعة أمتار ونصف وارتفاعه خمسة أمتار تقريبًا. وقد فتح فى كل ضلع من أضلاعه باب، قصت قمته على هيئة مشكاة، وتوج بلوحة مستطيلة محارية تنتهى بعقد منفرج، وقد مدت حول هذا الطابق شرفة خشبية بارزة، يقف عليها المؤذن ويدور فوقها حول المئذنة.

والطابق الأخير من المئذنة، وهو تاجها، أو مبخرتها، أو طاقيتها، كان يبلغ ارتفاعه ستة أمتار ونصف المتر، وينتهى بقبة مضلعة يرسم قطاعها الرأسى عقد منفرج. وترتقى هذه القبة على صفين، أو حطتين، من المقرنصات المدرّجة البارزة المصنوعة من الجص، وقد فتحت بين مقرنصات الصف الأدنى نافذة قصيرة فوق كل ضلع من أضلاع الطابق الثانى المثمن، وقصت أطرافها على هيئة مشكاة.

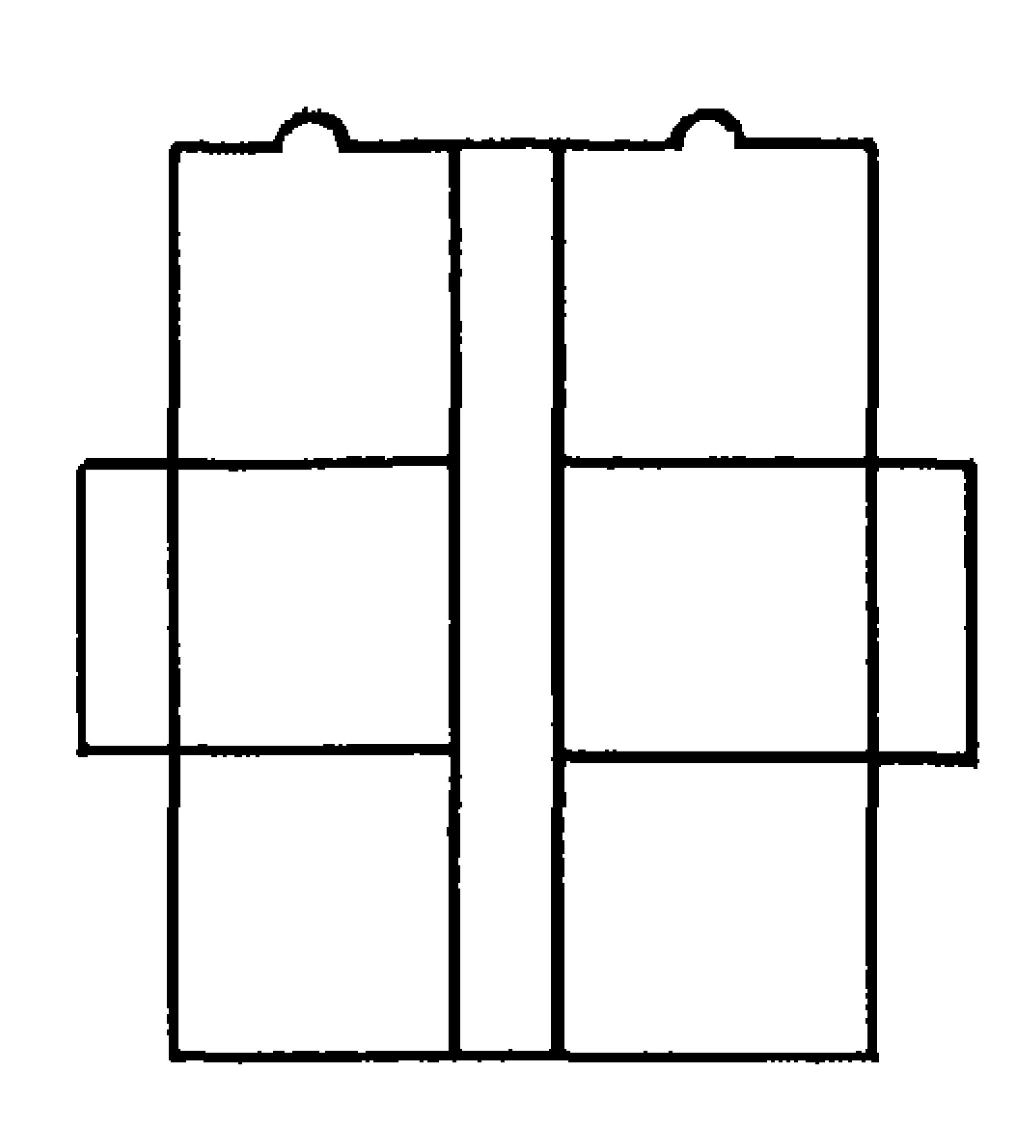
* * *

هذا وصف موجز للآثار المتخلفة من المدارس الصالحية وسنشير فى الفصل التالى إلى أهمية عناصرها المعمارية والزخرفية. ويتبقى علينا أن نحاول رسم الشكل التخطيطى الذى كانت عليه هذه المدارس عند إنشائها.

اختلف العلماء فى تفسير وصف المقريزى، وبذلت محاولات للاستدلال منه على تخطيط المدارس القديم. وظن (فان برشم) أن الصالحية «تتكون من مدرستين متماثلتين، لهما مدخل مشترك، عن داخله بابان متقابلان» يؤدى كل منهما إلى مدرسة مستقلة، يفصلها شارع عن زميلتها، وتتكون كل منهما من بهو يحيط به أربعة «إيوانات»[1]. أى أن (فان برشم) افترض أن المدارس الصالحية كانت تشتمل على ثمانية إيوانات.

(١) انظر صفحة ١٠٤ من الجزء الأول من «موسوعة النقوش العربية».

وكان (مكس هرتس) يعتقد أن «مسـجد الصـالح» كان يتكون من بناءين واضحين، بناء للمسـجد الشـمالى، وبناء للمسـجد الجنوبى، وأنه كان يفصل بينهما ممر طويل[1]. ويتفق (كريسويل) مع (فان برشم) و(هرتس) فى أن المدرسة «الصالحية» كانت تتكون من مدرستين منفصلتين مستقلتين[2]، مستندًا فى ذلك، مثلهما، إلى أن المقريزى أشار مرة أو مرتين إلى «المدرستين». ولكن (كريسـويل) يخالف (فان برشـم) فى عدد الإيوانات ويأخـذ بـرأى (هرتس) من أنـه كان لكل مدرسـة «إيوانان». أما (ريشـموند) فيفترض أن المدرسة كانت واحـدة، وأنه كان بها إيوانـان متجاوران من ناحية القبلة، وآخران تفصلهمـا البوابة من ناحية الواجهة الشمالية، وممر طويل يصل بينهما وبين جدار القبلة، وأنـه كان لهـا بهوان، بهـو فيما بـين كل إيوانين متقابلين، وأن غرف الطلبة كانت قائمة فى الجانب الشـرقى من البهو الشـرقى، وفـى الجانب الغربى مـن البهو الغربى، شـكل (١٩). ويفترض (ريشـموند) أن هذا النظام مقتبس جزئيًا من المدرسـة المسـتنصرية فى بغداد، وجزئيًا من نظام المدرسة الكاملية فى القاهرة.



شكل (١٩) - رسم افتراضى لتخطيط المدارس الصالحية؛ (عن ريشموند)

وقد حاول (كريسويل) أن يرسم تخطيطًا للمدرسة، شكل (٢٠)، واعتمد على الآثار المتخلفة منهـا وعلـى وصف المقريزى، وانفرد فى هذا الرسـم بوضع مقياس لأبعاد المدرسـة، غير أنه إذا كان قد صاحبه التوفيق فى رفع مقاسـات المبانى القائمة إلى اليوم من المدرسـة الصالحية، فإن هذا التوفيق قد جانبه فى الرسـم الافتراضى للمبانى المندثرة، فقد أهمل أولا بيان حدود المدرسـة، ولا يسـتقيم البناء، أيًا كان بغير حدود. ثم إنه تمسـك بفكرة «المدرسـتين» فجعل رسمه تخطيطًا لبناءين مسـتقلين، تربطهما البوابة والواجهة الشـمالية فحسـب ويفصل بينهما

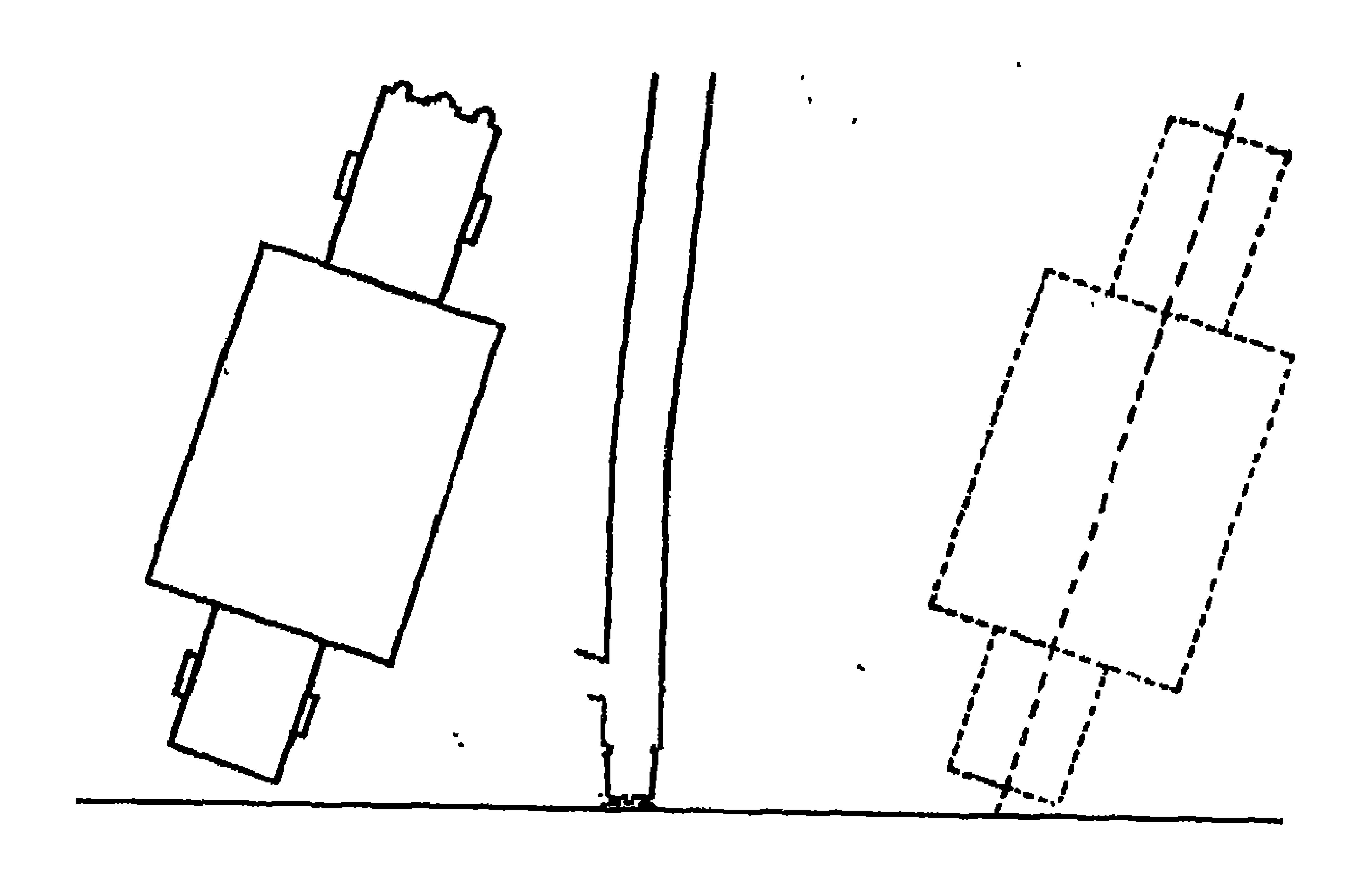
---

(١) انظر صفحات ٢٥ إلى ٣١ من مقال (هرتس)، «مساجد السلطان الصالح نجم الدين أيوب وضريحه»، فى محاضر لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٠٢م صفحات ١٣٥ إلى ١٤٢ من الطبعة الفرنسية. وقد أعيد طبع هذا المقال فى سنة ١٩٠٤م فى نشرات المجمع المصرى صفحات ٢٥ إلى ٣١.

HERZ, MAX; Mosquées et Tombeau du Saltan Saleh Negm El-Dyn Ayyoub, Comité de Conservation Reprinted in Bulletin de L'Institut d'Egypte, 4 série, No. .142-des, Monuments Arabes, 1902, pp. 135 .Le Caire, 1904 ,31-5, pp. 25

(٢) انظر صفحة ٩٨ و٩٩ وشكل ٤٦ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر».

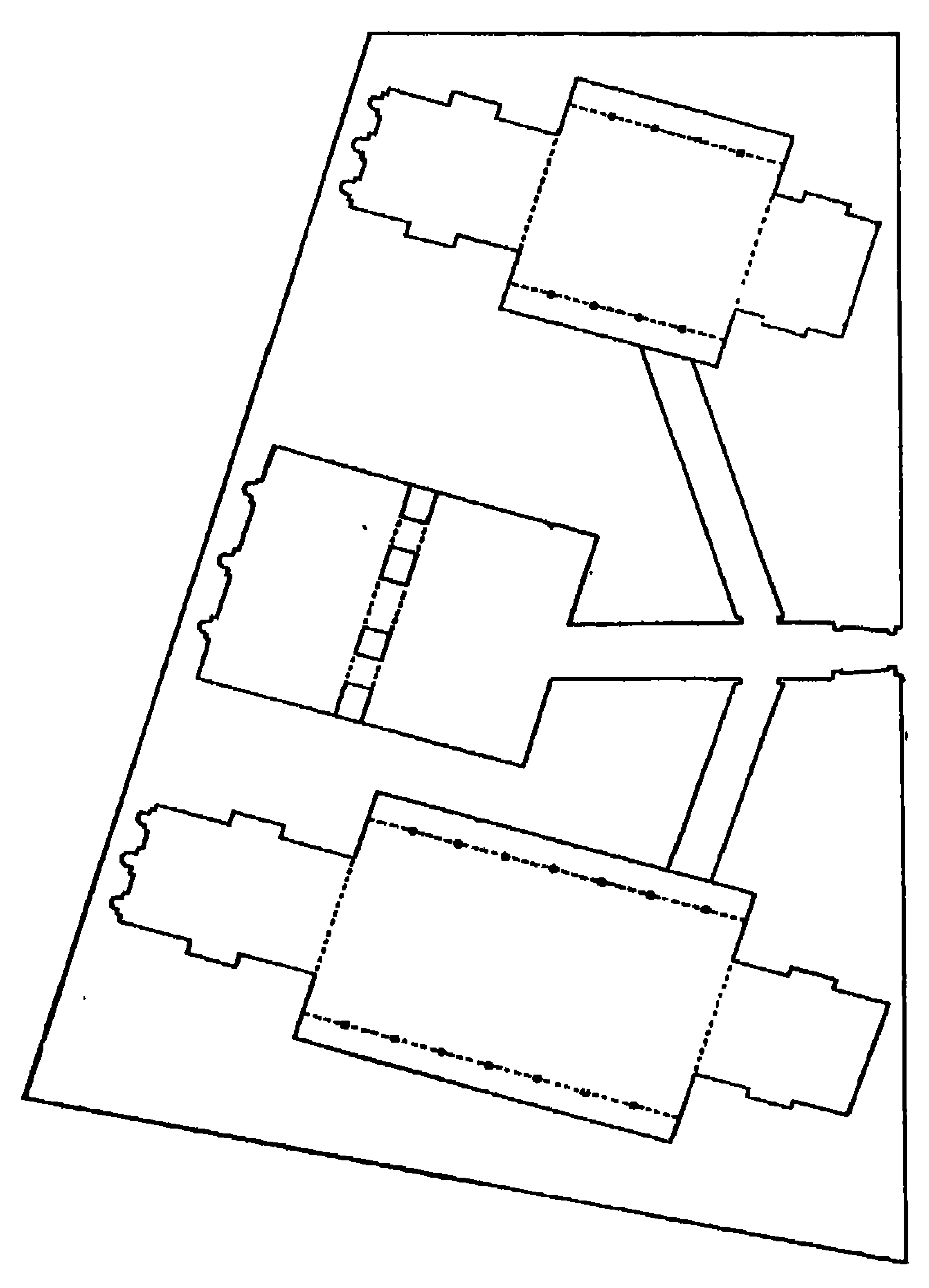
شارع بأسره. وجعل هاتين المدرستين متعادلتين، مساحة ونظامًا وتخطيطًا. وقد جرّ هذا التماثل (كريسويل) إلى أن يجعل بين «المدرستين» فضاء شاسعًا تبلغ مساحته مساحة مباني «المدرستين» مجتمعتين، بما تتضمنه هذه المساحة من البهوين الفسيحين، وترك هذا الفضاء الشاسع من غير إيضاح أو تفسـير. وإذن فمحاولة (كريسـويل) من هذه الناحية تبدو محاولة فاشلة[1]، إذا لم يشر أحد من المؤرخين إلى أن المدارس الصالحية كانت تتكون من، «مدرستين» مستقلتين أو متماثلتين، ولم يذكر أحد منهم كذلك أن «إيوان» الحنفية كان فى حجم «إيوان» الشـافعية، أو أن «إيوان» الحنابلة كان يطابق «إيوان» المالكية. وبالإضافة إلى ذلك فإن محاولة (كريسـويل) لم تعر اهتمامًا لجدار القبلة فى كل من «المدرسـتين» وهو النقطة الرئيسـية فى أى بناء دينى إسلامى، وأعارت علـى العكـس اهتمامًا بالغًا بالخط العمودى القائم على هـذا الجدار من منتصف كل من محرابى «المدرستين» الوسيطين، واعتبرت هذين الخطين الوهميين محورين متوازيين للبناء، وهذا ما أدى إلى فشل المحاولة.



شكل (٢٠) – محاولة (كريسويل) الافتراضية لرسم تخطيط المدارس الصالحية

(١) انظر صفحتا ٩٨ و ٩٩ شكل ٤٦ من الجزء الثانى من (العمارة الإسلامية فى مصر)

وقد حاولت، بدورى، أن أضع تخطيطًا افتراضيًا لما كانت عليه المدرسة عند إنشائها، شكل (٢١). وإنى أرجو أن أكون فيه أكثر توفيقًا. وقد بنيت محاولتى من جهة على المبادئ الرئيسية للأبنية الدينية فى الإسلام، وهى التى تجعل من اتجاه القبلة أساسا لكل بناء دينى، والتى تجعل من جدار القبلة العنصر الأول من عناصر تخطيط المسجد الرئيسية[1]، وسنرى فيما بعد أن المدرسة الإسلامية نبعت من المسجد الجامع، واحتفظت بصفتها الجامعية



شكل (٢١) – رسم افتراضى لتخطيط المدارس الصالحية، من وضع المؤلف

(١) انظر للمؤلف «المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها».

هذه، وأصبحت لها وظيفتان مزدوجتان متلازمتان، الدراسة والصلاة، بحيث لا تخلو مدرسة إسلامية من بيت للصلاة(١). وقد ركزت محاولتى من جهة أخرى على تناسق الأبنية الافتراضية مع الآثار الواقعية المتخلفة منها، وبصفة خاصة اتجاه الجدران الثلاثة: جدار القبلة وجدار الواجهة، والجدار الشرقى، وهى خطوط واقعية ثابتة. وأغلب الظن أن الجدار الغربى، وهو الخط الافتراضى، كان يحد طرفًا من القصر الكبير وكان عموديا على جدار الواجهة، وكان يلاصقه زقاق يؤدى، على حد قول المقريزى، «إلى خط الزراكشة العتيق حيث خان الخليلى وخان منجك..»(٢)، وما زال هذا «الزقاق» مخططا، وهو عمودى على جدار واجهة «المدارس» الصالحية، مما يزيد هذا الافتراض(٣).

وقد اتضح لى، أولاً، أن بوابة المدارس كانت تتوسط واجهتها الشمالية تمامًا، وأن هذه الواجهة كانت تمتد على طول ثمانية وتسعين مترًا، اقتطع ضريح الصالح أيوب منها تسعة أمتار شرقًا، واندثرت منها أربعة عشر مترًا غربًا، فتبقى منها خمسة وسبعون مترًا.

ولا شك فى أنه كان لهذه «المدارس» جدار قبلة واحد متصل، وهو الذى حدد مواقع أبنيتها، وكان منتصف هذا الجدار فى موضع يقابل انحناء محور المر الواقع خلف البوابة، وهو الذى يؤدى إلى قسم أوسط بين مجموعتى هذه «المدارس».

وتتجمع من الحقائق الأربعة التالية عناصر تحديد الرسم التخطيطى الافتراضى لجدران «المدارس»: أولاً، امتداد جدار القبلة، ثانيًا آثار الجدار الشرقى الشمالى، ثالثًا خط الواجهة، ورابعًا عمودية الجدار الجنوبى الغربى على هذا الخط.

تسفر حدود المدارس إذن عن مستطيل غير متساوى الأضلاع طول ضلع القبلة الخارجى منه تسعون مترًا، وطول ضلع الواجهة مائة متر، وطول الضلع الشرقى الشمالى سبعة وثلاثون مترًا، وأخيرًا طول الضلع الغربى الجنوبى أربعة وستون مترًا.

ويستدل مما كتبه المؤرخون، ومما تبقى من الآثار، أن قاعات «المدارس» كانت تحتل جانبى هذا المستطيل، أو القسمين المتطرفين منه. فهل كان القسم الأوسط منه فارغا من المبانى؟ أو كان مشغولا بالبناء؟ وأى نوع من البناء كان قائمًا فيه؟

---

(١) انظر فيما يلى الفصلان السادس والثامن، وما يليهما.

(٢) انظر صفحة ٣٧٤ من الجزء الأول من «الخطط».

(٣) انظر خريطة القاهرة الأثرية، لوحة رقم (١) (المربع ح-٤) من كتاب «مساجد مصر» جزءان، والمطبوع بمصلحة المساحة على حساب وزارة الأوقاف فى سنة ١٩٥٢م.

الواضح من روايات المؤرخين أنه كان فى داخل البوابة الرئيسية للمدارس بابان متقابلان أحدهما يوصل إلى قاعات المذهبين المالكى والشافعى، والآخر يؤدى إلى قاعات المذهبين الحنبلى والحنفى. وما زالت آثار هذين البابين تلاحظ على بعد عشرة أمتار تقريبًا من بداية مدخل البوابة، الذى كان ينتصف الواجهة وطولها مائة متر. ويستدل من آثار بعض هذه القاعات أن أبنية المذهبين المالكى والشافعى تحل مساحة تقابل نحو ثلاثين مترًا من طرف هذه الواجهة الشرقى، وكانت أبنية المذهبين الحنبلى والحنفى تحتل مساحة مماثلة فى الطرف الآخر الغربى. أى أن المساحة القائمة بين هذه الأبنية تقابل أربعين مترًا من وسط الواجهة، وهى مساحة كبيرة ليس من المعقول أن تترك فراغًا، خصوصًا وأنه كان بكل من مجموعتى الأبنية بهو فسيح يتسع لأضعاف عدد الطلاب والشيوخ المقيمين بها. ووجود البابين المتقابلين على جانبى داخل البوابة، معناه استقلال كل مجموعة من مجموعتى الأبنية عن الأخرى، من جهة، واستقلالها من جهة أخرى عن القسم الأوسط الذى يؤدى إليه الممر الممتد من داخل البوابة إلى جدار القبلة. ثم إن المئذنة تنتصب كما رأينا فوق البوابة، وفوق مدخل هذا الممر والمئذنة عنوان المسجد الجامع. ولهذا فإنى أعتقد أن الفراغ الفسيح القائم بين مجموعتى الأبنية كان مشغولاً بمسجد جامع، يشمل بيتًا للصلاة وبهوًا يطل عليه. ويؤيد ذلك ما ذكره المقريزى من أنه كانت بهذه المدارس «خطبة»، أى خطبة صلاة الجمعة، وأن هذه الخطبة استمرت إلى عهده[1].

كانت الخطوة الأولى فى محاولتى الافتراضية هى تحديد جدران «المدارس»، وتركزت الخطوة الثانية فى تحديد المسجد الجامع، ويبدو لى أن هذا المسجد كان يحتل من القسم الأوسط من «المدارس» مستطيلاً طوله ١٩ مترًا، وعرضه ٢٤ مترًا. وكان يتصدره بيت عمقه عشرة أمتار يطل على بهو يمتد ١٢ مترًا فيما بين نهاية الممر وبداية البيت. وأغلب الظن أنه كان بهذا المسجد ثلاثة محاريب، أسوة ببيتى الصلاة المجاورين، وأنه كان مسقوفًا بقبوة، ترتكز من ناحية على جدار القبلة، وتمتد عليه، وترتكز، من ناحية أخرى، على أربع دعامات تربطها ثلاثة عقود على هيئة واجهة لبيت الصلاة على البهو. وأغلب الظن كذلك أنه لم يكن لهذا البهو مجنبات ولا مؤخر.

وفى رأيى أن بيتى الصلاة المتطرفين كانا يستخدمان للتدريس ولصلوات الطلاب والشيوخ اليومية، كأنهما بيتان خاصان لا يدخلهما عامة الجمهور، ويغلق أمامه البابان المؤديان لهما. أما صلاة الجمعة فكانت تؤدى فى المسجد الجامع الوسيط، وهو وبهوه يتسع لألف شخص، أى أضعاف عدد الطلاب والشيوخ الذين كانوا يقيمون بهذه المدارس.

---

(١) انظر صفحة ٣٧٤ من الجزء الثانى من «الخطط».



العناصر المعمارية والزخرفية

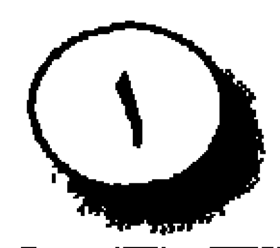
١ - خصائص العناصر المعمارية والزخرفية فى العصر الأيوبى.

٢ - تطوير القباب والمقرنصات.

٣ - القبوات والأواوين.

الفصل الخامس

العناصر المعمارية والزخرفية



خصائص العناصر المعمارية والزخرفية

كان التسلسل المنطقي يقتضي أن يختص هذا الفصل ببحث العناصر التخطيطية وتطورها فى العصر الأيوبى، إذ إن موضعها سابق للعناصر المعمارية والزخرفية، ولكننى آثرت أن أرجىء هذا البحث لسببين: السبب الأول، هو أن تخطيط المدارس موضوع متشعب تتطلب دراسته أكثر من فصل واحد من هذا الكتاب، والسبب الثانى، هو أن العناصر المعمارية كانت من العوامل الرئيسية فى تكوين هذا التخطيط وتطوره، ولابد أن يسبق شرحها هذا البحث.

شاع استخدام الحجارة فى عمارة القاهرة منذ أوائل العصر الفاطمى، وعنى البناءون بقطعها وصقلها وتنسيقها فى مئذنتى مسجد الحاكم الجامع، فى سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م، ثم فى بوابته بعد ذلك بعشر سنوات، وفى أسوار القاهرة فى سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م، وفى واجهة مسجد الأقمر فى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م، وفى جدران مسجد الصالح طلائع وواجهاته فى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م. وأصبحت الحجارة «عنصرًا قائمًا بذاته» من عناصر البناء[1]. واستمر استخدام الحجارة فى العصر الأيوبى، كما استمرت العناية برصها وصقلها وتنظيمها. ومن ذلك أن القلعة بنيت جميعًا بالحجارة، أسوارها وأبراجها، قاعاتها وممراتها وقبواتها. وكذلك بنيت جدران ضريح الإمام الشافعى، وواجهة مشهد الثعالبة، والجزء الأسفل من مئذنتى المشهد الحسينى وزاوية الهنود، وخاصة جدران ضريح الصالح أيوب ومدارسه. واستحدثت الحجارة المسنّمة فى بناء القلعة. وبالرغم من شيوع استخدام الحجارة فقد ظل الآجر مستخدمًا فى البناء، وبنى به ضريح الخلفاء العباسيين جميعهم، وكذلك قبة شجرة الدر، واستخدم الآجر أيضا فى بناء القبوات والقباب والطوابق العليا من المآذن.

---

(١) انظر «مساجد القاهرة ومدارسها»، الجزء الأول، العصر الفاطمى.

واتبعت طريقة جديدة فى صف الآجر فى القبوات، وهى تلاحظ بصفة خاصة فى قبوتى الثعالبة والكاملية. وذلك أن يدمج فى بناء الجدار عقد منبطح من الآجر كذلك، يساعد على توزيع ثقل القبوة عليه، وتحمل دفعها. ثم تبدأ القبوة بصفوف أخرى رأسية، يستمر انحناؤها المقوس على الجدارين الجانبين حتى تلتقى تلك الصفوف عند قمة القبوة. ومن الطبيعى أن جميع المسطحات الآجرية كانت تلبس بطبقة من الجص. غير أنه روعى عادة أن يتصدر القبوة عقد مدبب من الحجارة، وأن يحدّ نهايتها على الجدار الخلفى عقد مماثل، واتبع فى بناء الجدران الحجرية الحاملة للقبوات طريقة إدماج عقد منبطح فيها، على غرار ما كان متبعًا فى بناء الجدران الآجرية، كما يشاهد فى قبوات المدارس الصالحية.

وكان من أثر انتشار استخدام الحجارة أن زادت العناية بالواجهات. وقد بدأت هذه العناية تتبع فى العصر الفاطمى، ولكنها اتخذت فى العصر الأيوبى مظهرًا فائقًا من العظمة، يتضح من واجهة المدارس الصالحية، تلك الواجهة التى كانت تمتد مائة متر، وترتفع إلى ما يقرب من اثنى عشر مترًا. وكانت واجهة مسجد الأقمر تمتد فحسب عشرين مترًا، وكان ارتفاعها اثنى عشر مترًا كذلك. وتعددت الأقسام الرأسية فى واجهة المدارس الصالحية تعددًا ملحوظًا، فكان عددها خمسة وعشرين فاصلاً، منها اثنا عشر فاصلا من تجاويف غائرة، والباقى فواصل بارزة كأنها دعامات خارجية. أما التجاويف فقد فتحت نوافذ فى أقسامها السفلى، ويتضح من قلة سمك هذه التجاويف أنها لا تحمل عبئًا كبيرًا، وأنها أسدلت على الواجهة كالستائر. وأما الفواصل البارزة، فيزيد سمكها عن المتر، وهى التى تتولى تدعيم الواجهة، وتتحمل العبء المعمارى كله، فضلا عن أنها يرتبط بعضها ببعض فى الأقسام العليا بعقود منفرجة.

وطريقة بناء الجدران على هذه الصورة ليست جديدة فى عمارة القاهرة، فقد سبق أن اتبعت بمهارة فى واجهات مسجد الصالح طلائع[1]، ومن قبله فى واجهة مسجد الأقمر[2]. غير أنها تبدو فى مدارس الصالحية أكثر ثباتًا وأبدع مظهرًا. ولا شك فى أن واجهة هذه المدارس كانت فى الوقت الذى شيدت فيه، أكثر واجهات مبانى القاهرة طولا وارتفاعا، وأشدها رسوخا، وأبدعها تقسيمًا وتنسيقًا.

استمرت التقاليد الفاطمية متبعة فى معظم العناصر المعمارية التى استخدمت فى العصر الأيوبى، أو على الأصح، ظلت تتابع تطورها. ونلاحظ هذا التطور، مثلا، فى بوابة المدارس الصالحية، بالرغم مما تحتفظ به من أوجه شبه وثيقة ببوابة مسجد الأقمر. فإننا نرى على

(١) انظر «مساجد القاهرة ومدارسها»، الجزء الأول، العصر الفاطمى.

(٢) انظر «مساجد القاهرة ومدارسها»، الجزء الأول، العصر الفاطمى.

بوابة المدارس الصالحية طاقة كبرى تعلو الباب تنحصر فى عقد منفرج وتتكون من خمسة طوابق متراجعة على هيئة محارة، تتفرع قنواتها، أو أضلاعها، من اللوحة المستطيلة المسجل عليها تاريخ البناء، لوحة رقم (٢٧). وهذه الطاقة الكبرى تشبه إلى حد كبير تلك الطاقة التى تعلو باب مسجد الأقمر والتى تشع أضلاعها حول دائرة كبرى، تتوسطها حلقة منقوش عليها آية من القرآن الكريم[1]. ونرى أيضا على بوابة المدارس الصالحية عناصر كثيرة من التى نشاهدها على بوابة مسجد الأقمر، مثل الطاقات المستطيلة المطولة المتوجة بعقود محاربة، ومثل المقرنصات الزخرفية، ومثل أشكال المحاريب المصغرة.

وكذلك نشاهد من بقايا مآذن العصر الأيوبى استمرارًا لتطور التقاليد التى كانت متبعة فى بناء مآذن العصر الفاطمى، وخاصة مئذنتى الجيوشى وأبى الغضنفر[2]. فقد احتفظت قواعد المآذن الأيوبية بالشكل المربع والحجم المكعب، ونلاحظ ذلك فى مآذن المشهد الحسينى[3]، لوحة رقم (١٥ أ)، والمدارس الصالحية، لوحة رقم (٣٠)، وزاوية الهنود، لوحة رقم (٢٠). واحتفظت الطوابق العليا لهذه المآذن بالطابع المضلع، ثمانى الأضلاع، وامتدت على واجهاتها التجاويف الشبيهة بأشكال المحاريب، والمقرنصات، والأفاريز المسننة، وذلك كله كان متبعًا فى العصر الفاطمى. وارتقت المآذن الأيوبية على البوابات، وقد أضفت هذه الظاهرة أهمية خاصة على هذه البوابات، وأبرزت الطابع الدينى للمبانى التى ينفذ منها إليها.

وفى العصر الأيوبى، اتخذت الصنج المعشقة على العتبات الأفقية والعقود المنبطحة أهمية كبرى، اللوحتان (٣١) و(٣٢). وبينما نجد بعضها محتفظا بالشكل الذى ظهرت به فى العصر الفاطمى، وهو الذى يتكون من أنصاف دوائر متقابلة، أو متعارضة، مرتبطة بخطوط مستقيمة قصيرة[4]، شكل (٢٢) ولوحة رقم (٣٢ب)، نشاهد تطورًا ملحوظًا فى ظهور أشكال جديدة، وخاصة فى التقاسيم الزهرية لهذه الصنج، شكل (٢٣). فقد قصت الصنجة على هيئة زهرة الزنبق، وعشقت بالتعارض، زهرة قائمة منتصبة، وزهرة متدلية، وسيحظى هذا الشكل بحظ وافر فى عمارة المماليك ويتابع تطوره وازدهاره، كما أنه سيتخذ فى هذا العصر كذلك أنموذجا فى تشكيل الشرفات العليا للمبانى. ونشاهد على واجهة المدارس الصالحية مظهرًا آخر للصنج

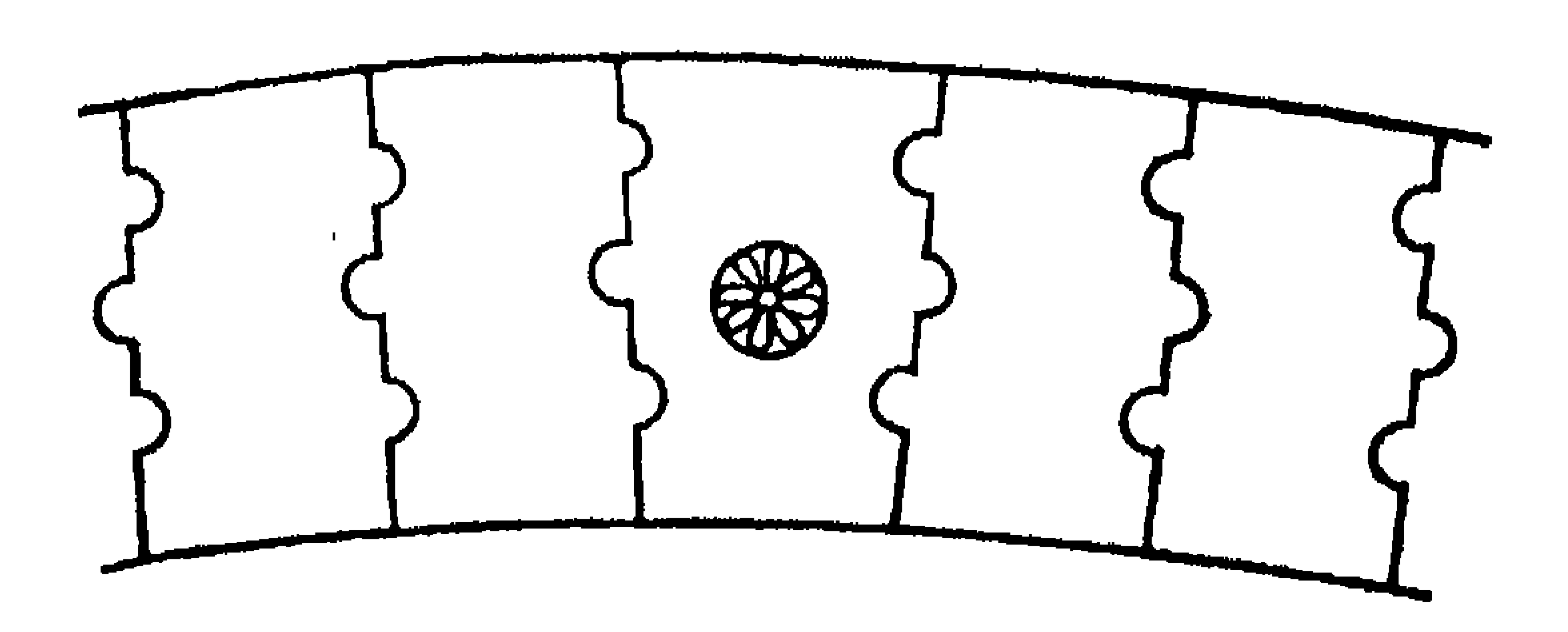
(١) انظر شرحه، ولوحة رقم (٤٣).

(٢) انظر شرحه.

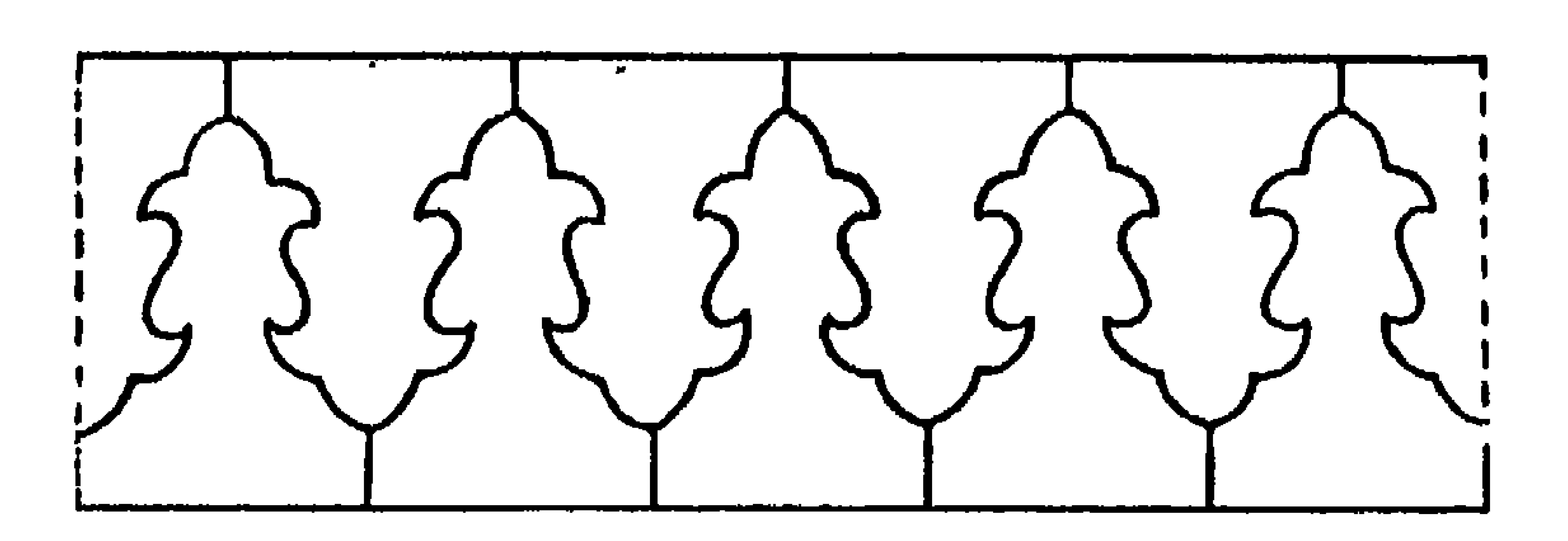
(٣) يلاحظ أن الجزء الأعلى من مئذنة المشهد الحسينى قد جُدد وأعيد بناؤه.

(٤) انظر شكل (٢٦) من «مساجد القاهرة ومدارسها»، الجزء الأول، العصر الفاطمى.

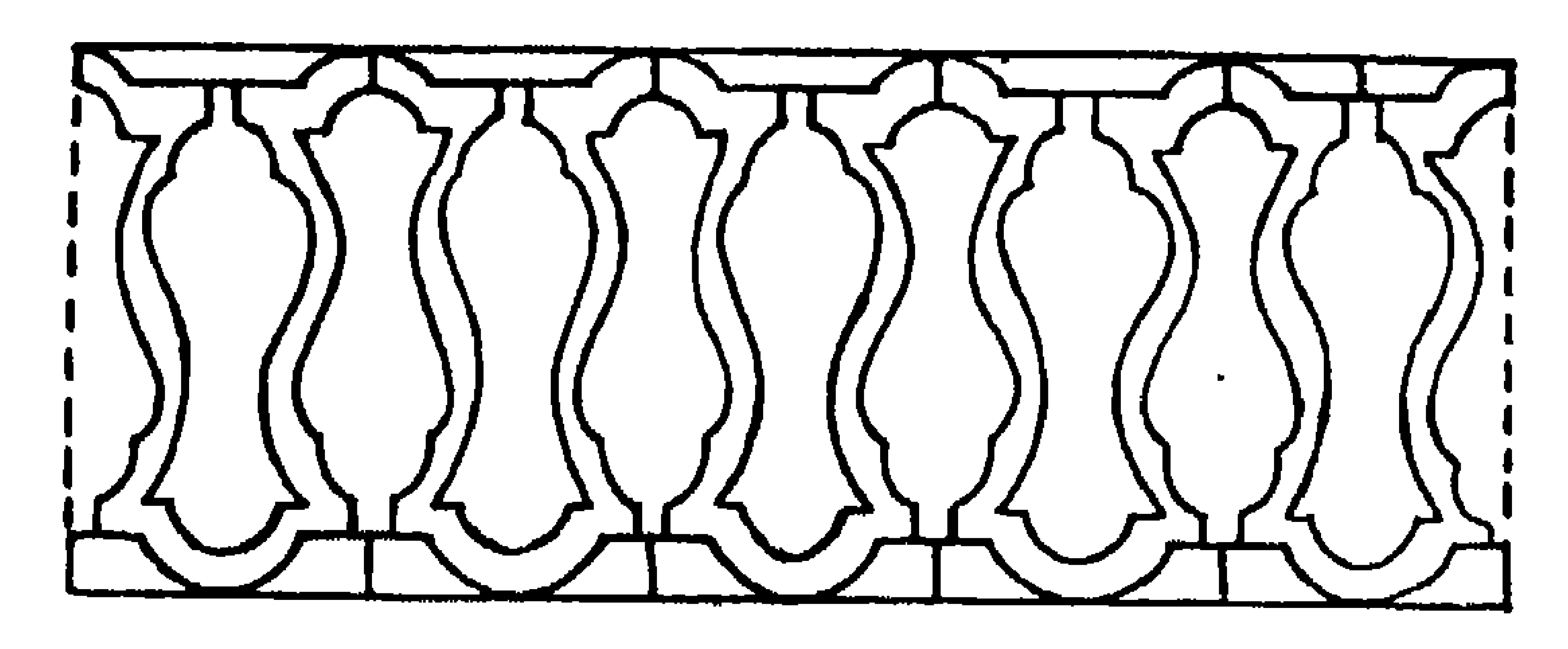
المعشقة يشبه القنانى المصطفة؛ شكل (٢٤) ويشبه إلى حدّ ما الشرفات العليا لهذه الواجهة. وقصت صنج أخرى على شكل هندسى مضلع، شكل (٢٥)، وكثيرًا ما حليت الصنج، وخاصة الصنجة الوسطى، بدائرة ينبثق فى داخلها شكل زهرة سداسية أو ثمانية الوريقات، شكل (٢٥) واللوحتان (٣١) و(٣٢).



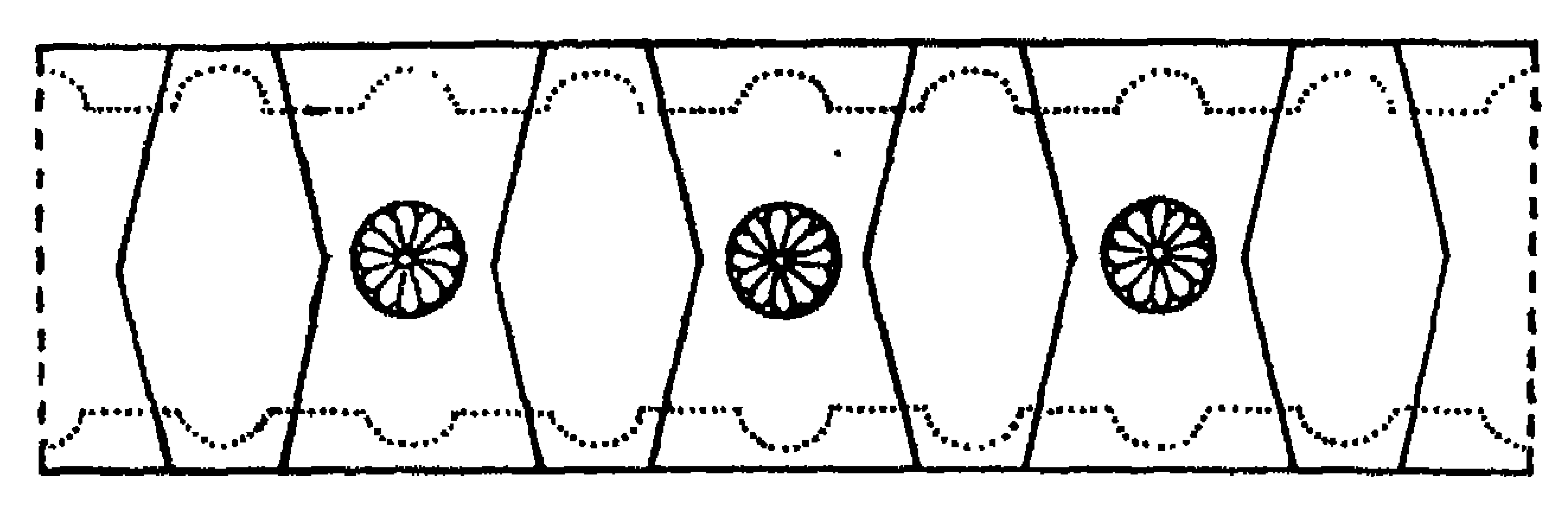
شكل (٢٢) – مظهر لتعشيق الصنج على نافذة فى واجهة المدارس الصالحية



شكل (٢٣) – صنج معشقة على واجهة المدارس الصالحية



شكل (٢٤) – مظهر آخر للصنج المعشقة على واجهة المدارس الصالحية



شكل (٢٥) - صنج معشقة على واجهة المدارس الصالحية

أخذت التقاليد الفاطمية فى العناصر المعمارية تتطور فى العصر الأيوبى، وكذلك كان الحال فى العناصر الزخرفية. وإذا كانت أشكال زخرفية عديدة، وخاصة الزخارف المحفورة على الجص، تبدو كأنها صور منقولة من الزخارف الفاطمية، إلا أنها تتخذ فى العصر الأيوبى مظهرًا أكثر رقة وأشد تعقيدًا، وخاصة فى أشكال التوشيح العربى[١]، كما يشاهد فى قبة الخلفاء العباسيين وزخارفها الجصية. وامتد أثر هذا الطابع الزخرفى إلى الفنون التطبيقية. ويلاحظ ازدهار أسلوب التوشيح العربى فى زخرفة تابوت المشهد الحسينى، لوحة رقم (١)، وخاصة فى تابوت الإمام الشافعى[٢]. ويلاحظ هذا التطور من مقارنة زخارف هذا التابوت بزخارف المحرابين الفاطميين، محرابى السيدة نفيسة والسيدة رقية[٣].

وبالإضافة إلى استمرار التقاليد الفاطمية، فقد استجدت فى العصر الأيوبى أساليب زخرفية، منها استخدام الرخام فى كسوة المحراب فى ضريح الصالح أيوب، وهو أقدم مثل لهذا الإجراء فى عمارة القاهرة، لوحة رقم (١٧ أ). ومنها استخدام الفسيفساء فى زخرفة طاقية المحراب فى نفس الضريح، وفى ضريح شجرة الدر، لوحة رقم (١٥ ب). ومنها استخدام قطع من الزجاج الملون، مستديرة، وهى المسماة بالقمرية، وغير مستديرة، وهى المسماة بالشمسية. وتنحصر هذه القطع الزجاجية فى تشكيلات الشبابيك الجصية فى قبة الصالح أيوب. ومنها استخدام زخارف مغربية أندلسية الطابع، فى مئذنة المشهد الحسينى، لوحة رقم (١٥ أ). وفى ضريح الإمام الشافعى، لوحة رقم (١٠)، وفى المدرسة الكاملية، لوحة رقم (٢١).

---

(١) يراجع ما كتبناه عن أسلوب التوشيح العربى فى الجزء الأول، العصر الفاطمى، من «مساجد القاهرة ومدارسها».

(٢) انظر فيما سبق.

(٣) انظر الحاشية (١) واللوحة رقم (٧٦) من الجزء الأول، العصر الفاطمى، من «مساجد القاهرة ومدارسها».

ولعل أهم ظاهرة فى التطور الزخرفى فى العصر الأيوبى هى ظاهرة استخدام الكتابة النسخية فى اللوحات المنقوشة على المبانى، مثلما نشاهده على باب المدرج فى القلعة، وعلى باب مشهد الثعالبة، لوحة رقم (١١)، وعلى بوابة المدارس الصالحية، لوحة رقم (٢٥). وتظهر الكتابة النسخية على هذه الآثار لأول مرة فى القاهرة. ولكنها ظهرت قبل ذلك فى بلاد المشرق العربى والإسلامى، وانتقلت منها كمظهر من مظاهر مناهضة أهل السنة للمذهب الشيعى. والخط النسخى كتابة طبيعية، بدأت مبسطة فى أوراق البردى، ثم أخذت تتهذب على مدى السنين، ولكنها لم تستطع فى العصر الأيوبى أن تنتزع مظهر الإبداع الزخرفى الذى كان يتجلى فى الكتابة الكوفية. ولهذا نرى الخط الكوفى ما زال يستخدم فى ذلك العصر الأيوبى، وبصفة خاصة فى تسجيل آيات القرآن الكريم، على المبانى والتحف الفنية. غير أن أسلوب الخط الكوفى تطور فى هذا العصر، فاختفت الوريقات من أطراف الحروف، وأخذت الحروف نفسها تتداخل بعضها فى بعض، بحيث تعقدت وصعبت قراءتها. ثم تغيرت أشكال الحروف وتقوس بعضها، وحلت محل الحروف المستقيمة. وهذا النوع من الخط الكوفى هو ما يصح تسميته بالكوفى «المعشق»[1]. ونشاهد فى تابوتى المشهد الحسينى والإمام الشافعى نماذج من هذا الخط، كما نشاهد فى النافذة المتخلفة من المدرسة الكاملية مثلا بديعًا من الأمثلة النادرة لاستخدام الخط الكوفى فى العمارة الأيوبية، لوحة رقم (٢١).



٢ القباب

بدأت فى العصر الفاطمى حلقة جديدة من تطور القباب ومقرنصاتها، ظهرت أول ما ظهرت فى قباب السيدة رقية والشيخ يونس وعاتكة والجعفرى ويحيى الشبيه، وذلك فى الفترة الممتدة من سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م إلى حوالى سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م[2]. وأصبح المقرنص فى هذه القباب يتكون من مجموعة من الطاقات والعقود المتدرجة، وكان قوامها طابقين، أو حطتين، فى الطابق الأول مقرنص وسيط

(١) انظر ما كتبناه عن الزخرفة الكوفية، وخاصة عن الكوفى المورق والكوفى المزهر وأنواعه، وذلك فى الصفحات فى الجزء الأول، العصر الفاطمى، من «مساجد القاهرة ومدارسها».

(٢) «مساجد القاهرة ومدارسها» الجزء الأول، العصر الفاطمى، واللوحات ٥٩ ب و ٦١ و٦٢. شرحه؛ واللوحة رقم (٦٠).

تحيط به طاقتان، وفى الطابق الثانى طاقة واحدة تعلو الطاقة الوسطى من الطابق الأدنى. وحدث تطور ثان فى سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، أى قبيل انتهاء العصر الفاطمى، وازداد المقرنص تجزئة فى قبة أبى الغضنفر(١)، وازداد عدد الطوابق فأصبح ثلاثة. فى الطابق الأدنى مقرنص وسط يحف به من كل جانب طاقتان، وفى الطابق الثانى مقرنص وسيط كذلك يحف به من كل جانب ثلاث طاقات، وفى الطابق الأعلى مقرنص وسيط ثالث يحف به من كل جانب طاقة واحدة. ومعنى ذلك أن عملية تحويل القاعدة المربعة للقبة إلى مثمن، ثم تحويل المثمن إلى ستة عشر ضلعًا، قد تمت بأكملها داخل حدود مجموعة المقرنصات.

وقد طبقت هذه الفكرة نفسها، فى العصر الأيوبى، ونشاهدها فى القباب المتخلفة من ذلك العصر، وإن اختلفت الطاقات والطوابق عددًا، تبعًا لعملية التجزئة. والذى يلاحظ فى هذه القباب، وبصفة خاصة فى قبتى الإمام الشافعى والصالح نجم الدين، أن طوابق المقرنص، وهى التى تحوّل أركان المربع وتقربه إلى دائرة رقبة القبة، قد اتصلت بطوابق أوساط أضلاع المربع، وهى التى تفتح فيها النوافذ، كما نلاحظ أن هذه الأوساط قد جزئت إلى طوابق تجزئة عكسية، بحيث ملأت الطاقات مناطق الانتقال كلها، من الأضلاع المربعة إلى الرقبة المستديرة، اللوحتان رقم (٩ ب و ١٩). والذى حدث تبعًا لهذا الاتصال من جهة، وازدياد التجزئة من جهة أخرى، أن ارتفعت منطقة الانتقال وتداخلت فى رقبة القبة، ولم تعد هذه الرقبة مستقلة عن منطقة الانتقال، أو واضحة الانفصال عنها، كما كان الحال من قبل، ولم تعد منطقة تحول المربع إلى الدائرة مقصورة على الأركان.

كانت هذه حلقة أخرى من حلقات تطور القباب. ومقرنصاتها.

وقد استمرت هذه الحلقات فى تطورها فى عصر المماليك، فازداد التجزئة، وصغرت الطاقات، وتعددت الطوابق، واحتلت مجموعات من الدّلايات مناطق الانتقال فى قواعد القباب، وانسابت على أركان الجدران ومسطحاتها.



٣ القبوات والأواوين

كانت القبوات مستخدمة فى العصر الفاطمى، وهى سقف مقوسة مبنية من الآجر. وقد سبق أن أشرنا إلى استخدامها على الممرات الواقعة فى بوابات مساجد الحاكم والجيوشى والأقمر والصالح

(١) انظر شرحه؛ فى الجزء الأول واللوحة رقم (٦٠).

طلائع، وفوق القاعتين الجانبيتين فى بهو الجيوشى(1). وكانت هذه القبوات شبه أسطوانية. وكذلك استخدمت فى العصر الفاطمى القبوات المتداخلة أو المتعامدة فى مسجد الجيوشى وفى بوابات القاهرة، ولكن هذه القبوات جميعًا كانت صغيرة الحجم، قليلة الارتفاع، ولم تكن مفتوحة على أبهاء مكشوفة. أما فى العصر الذى نؤرخ لآثاره فقد اتخذت القبوات أهمية كبرى، وخاصة قبوات القاعات المفتوحة، وهى التى اصطلح على تسميتها بالأواوين.

والإيوان، لغة، هو البيت المؤزّج، أى المرتفع البناء، غير مسدود الوجه. أى أنه قاعة مسقوفة بقبوة، مفتوح مقدمها على بهو، بعقد مقوس نصف دائرى، أو مدبب أو منفوخ أو منبعج، مغلوق مؤخرها بجدار.

وقد تعددت الآراء فى أصل اشتقاق الإيوان، وأوجز (رويتر) هذه الآراء فى موسوعة الفن الفارسى(2). وأغلب الظن أن الإيوان كان تطورًا بالبناء لأشكال الخيام المفتوحة التى كان يستخدمها العرب فى وادى الرافدين، أو كان تجسيمًا للأكواخ القصبية، التى كان مفردها يسمى صريفة، والتى كان الأعراب هنالك يستخدمونها كذلك.

واتخذت الأواوين فى العمارة القديمة، فيما بين النهرين وفى بلاد إيران، منذ القرن الثانى قبل الميلاد. وأقدم مثل معروف منها هو إيوان (كوهى خواجه) الذى يفترض أنه بنى فى ذلك القرن، وأكثر الأمثلة القديمة وضوحا هى، من جهة، أواوين الحضر، شمالى العراق، وهى من العصر البارثى والقرن الثانى الميلادى، ومن جهة أخرى، طاق كسرى أو إيوانه، فى طيسفون أو المدائن بالعراق كذلك، وهو من العصر الساسانى، ومن القرن الثالث الميلادى فى قول، أو من منتصف القرن السادس الميلادى فى قول آخر(3).

---

(1) انظر (مساجد القاهرة ومدارسها)، الجزء الأول، العصر الفاطمى، صفحتا ١٦١ و ١٦٢.

(2) انظر الصفحات ٤٢٨ إلى ٤٣١ من الجزء الأول من (موسوعة الفن الفارسى) تأليف (بوب).

REUTHER, Oscar; Sasanian Architecture, in POPE, Arthur Upham; Survey of Persian Art, Oxford 1939, Vol, I, p. 428 - 431.

(3) انظر صفحة ٥١٧ من الجزء الأول من (موسوعة الفن الفارسى) تأليف (بوب)، والذى كتب الفصل عن (العمارة الساسانية) هو الأستاذ رويتر.

ويقال إن طاق كسرى بناه شابور فى منتصف القرن الثالث الميلادى، وإن كسرى أنو شروان أعاد بناءه وزاد فيه فى منتصف القرن السادس الميلادى. وتبلغ فتحة القبوة البيضاوية فى هذا الإيوان ٢٥ مترًا ونصف المتر، وارتفاع باطن قمتها ٣٠ مترًا ويبلغ عمق الإيوان ٤٨ مترًا وسمك جدرانه ٧ أمتار.

وكان بناء الأواوين أول الأمر من الآجر. واستخدمت الحجارة فى بنائها فى عمارة الحضر وفى العمارة الرومانية. غير أن استخدام الآجر ظل متبعًا فى جنوب العراق ووسطه وفى بلاد الفرس. ولا شك فى أن فكرة بناء الأواوين انتقلت إلى العمارة الإسلامية فى العراق، واستخدمت أول ما استخدمت فى عمارة القصور وفيما نعرف، فى قصر الأخيضر، وهو الذى يرجع بناؤه فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى (أواخر القرن الثامن الميلادى). وقد كان هذا القصر يحتوى على إيوان مفتوح على بهو واسع[1].

ولم تستخدم الأواوين فى بناء المساجد فى العصور الإسلامية الأولى، لأن الفكرة فى بناء هذه المساجد كانت قائمة على إعداد بيوت للصلاة فسيحة عريضة مفتوحة على أبهاء واسعة مكشوفة، وكانت أقصى ما تؤديه فتحة الإيوان لا تفى بتحقيق هذا الغرض، وذلك فضلا عما يتطلبه بناء الإيوان من زيادة فى النفقات ومشقة فى العمل وطول فى الوقت. ولهذا جعلت بيوت الصلاة جميعًا مسقوفة بسقف خشبية مسطحة، تحملها عقود على أعمدة أو أسطوانات أو دعامات. ولنضرب مثلا بمسجد ابن طولون، فإن بيت الصلاة فيه يمتد ذرعًا ١١٨ مترًا، ويبلغ امتداد واجهته على البهو ٩٢ مترًا، تحتل الدعامات منها ثلاثين مترًا، أى إن صافى فتحاته على البهو ٦٢ مترًا. فى حين أن أقصى ما بلغته فتحة الإيوان فى العصور القديمة كانت ٢٥ مترًا. وقد كانت فتحات بيت الصلاة فى مسجد ابن طولون تزداد امتدادًا، لو أن عقود المسجد كانت أقيمت على عمد، لا على دعامات[2].

لم تكن الأواوين تصلح إذن للمساجد الجامعة الكبرى، ولكن عوامل كثيرة جدّت منذ منتصف القرن الخامس الهجرى (منتصف القرن الحادى عشر الميلادى)، وأدت إلى إدخال أواوين فى الأبنية الدينية، ثم إلى شيوعها فى بيوت الصلاة وكان أول هذه العوامل، كثرة المساجد الجامعة فى

---

(١) تبلغ فتحة القبوة فى الأخيضر ٦ أمتار وارتفاع قمتها حوالى ١٠ أمتار وسمك الجدران مترًا ونصف المتر، وهى مدببة دببًا خفيفًا ومبنية بالحجارة غير المنتظمة.

(٢) تغطى مجموع مساحات الدعامات جزءًا من عشرة أجزاء من مساحة بيت الصلاة فى المسجد الطولونى التى تبلغ ٣٨٩٤ مترًا مربعًا والتى تتسع لأكثر من ألفين وثمانمائة من المصلين. ولو أريد بناء بيت للصلاة سقوف بقبوات يتسع لمثل هذا العدد وترتفع قبواته بما يكفل إضاءة جوفه، أى جدار القبلة، فإن المساحة المطلوبة كانت تزيد على ٦٣٠٠ متر مربع، وكانت تكاليف البناء تزيد بمقدار الضعف، وكذلك الوقت المقدر لإتمامه. وإذا قورن بيت الصلاة فى مسجد السلطان حسن، وهو أكبر إيوان أنشىء بالقاهرة، لاتضح أنه يحتل بجدرانه ربع مساحة بيت الصلاة فى المسجد الطولونى، وأنه لا يتسع لأكثر من ثمن عدد المصلين بهذا المسجد الأخير. والأمر كذلك بالنسبة لطاق كسرى، وهو أعظم إيوان فى العالم التاريخى، فإنه يشغل بجدرانه أكثر من ثلثى مساحة بيت الصلاة فى المسجد الطولونى، ولا يتسع لأكثر من ثلث عدد المصلين به، إن أريد إقامة الصلاة بهذا الإيوان

المدينة الواحدة مما لم تعد الحاجة معه إلى بناء مساجد كبرى، فصغرت مساحات بيوت الصلاة تبعا لذلك[1]. وكان العامل الثانى، أنه أدخلت على نظم بعض المساجد مواضع لبناء أضرحة[2] أو لبناء مدارس[3]، فأصبح الغرض من بناء المساجد مزدوجا، وأصبح المسجد يضم بالإضافة إلى بيت الصلاة ضريحًا أو مدرسة، أو يضمهما معًا. وكان لهذين العاملين أثر مباشر فى اختصار بيوت الصلاة، والاقتصار على بنائها من أسكوب واحد أو أسكوبين.

والعامل الثالث الذى ساعد على تحقيق فكرة الأواوين، هو التطور المعمارى الذى حدث فى نفس الوقت فى أساليب البناء، ذلك التطور الذى تبع شيوع استخدام الحجارة فى المبانى، وأدى إلى الاستغناء عن العمد، واستبدال الدعامات بها، وإقامة السقف المبنية المعقودة، بدلا من السقف المسطحة الخشبية، فأصبحت واجهات بيوت الصلاة تطل على البهو بعقد واحد أو بثلاثة عقود، بدلا من سلسلة ممتدة منها. وهذا ما حدث فى مسجد الجيوشى، مثلا، إذ يمتد جدار القبلة فيه ١٣ مترًا، ولكن فتحات بيت الصلاة على البهو تقتصر على خمسة أمتار، هى جملة فتحات عقوده الثلاثة المطلة على البهو[4]. وكذلك الحال فى دار الحديث النورى بدمشق التى يمتد جدار القبلة فيها ١٤ مترًا، والتى يطل بيت الصلاة فيها على البهو بثلاثة عقود لا تزيد جملة فتحاتها على سبعة أمتار[5]. ثم أصبح بيت الصلاة قاعة واحدة فسيحة، بعد أن كان مجموعة من المربعات تحدها الأساكيب والبلاطات، وأصبح الضوء والهواء يغمران هذا البيت، فلم يعد هنالك داعٍ إلى تحديد جوفه بالنسبة لذرعه. ثم إن قبوة الإيوان تقبل الامتداد فحسب فى اتجاه الجوف، ولهذا أصبح صدر المسجد أكثر عمقًا منه عرضًا، وأصبح نظامه يختلف عن النظام التقليدى. ولم يستطع بيت الصلاة أن يستعيض، لا جوفًا ولا ارتفاعًا، ما فقده ذرعًا وامتدادًا.

وثمة عامل آخر ساعد كثيرًا على تطور أنظمة المساجد، وهو تعلق الولاة بالرغبة فى إظهار واجهاتها بمظهر العظمة، وتفخيم وجوه بيوت الصلاة على الأبهاء. وقد لمسنا هذه الرغبة فى الصفحات السابقة وتحققنا من أثرها على المظهر الذى تبدو عليه واجهة المدارس الصالحية. وكان

---

(١) انظر الجزء الأول، العصر الفاطمى، من «مساجد القاهرة ومدارسها».

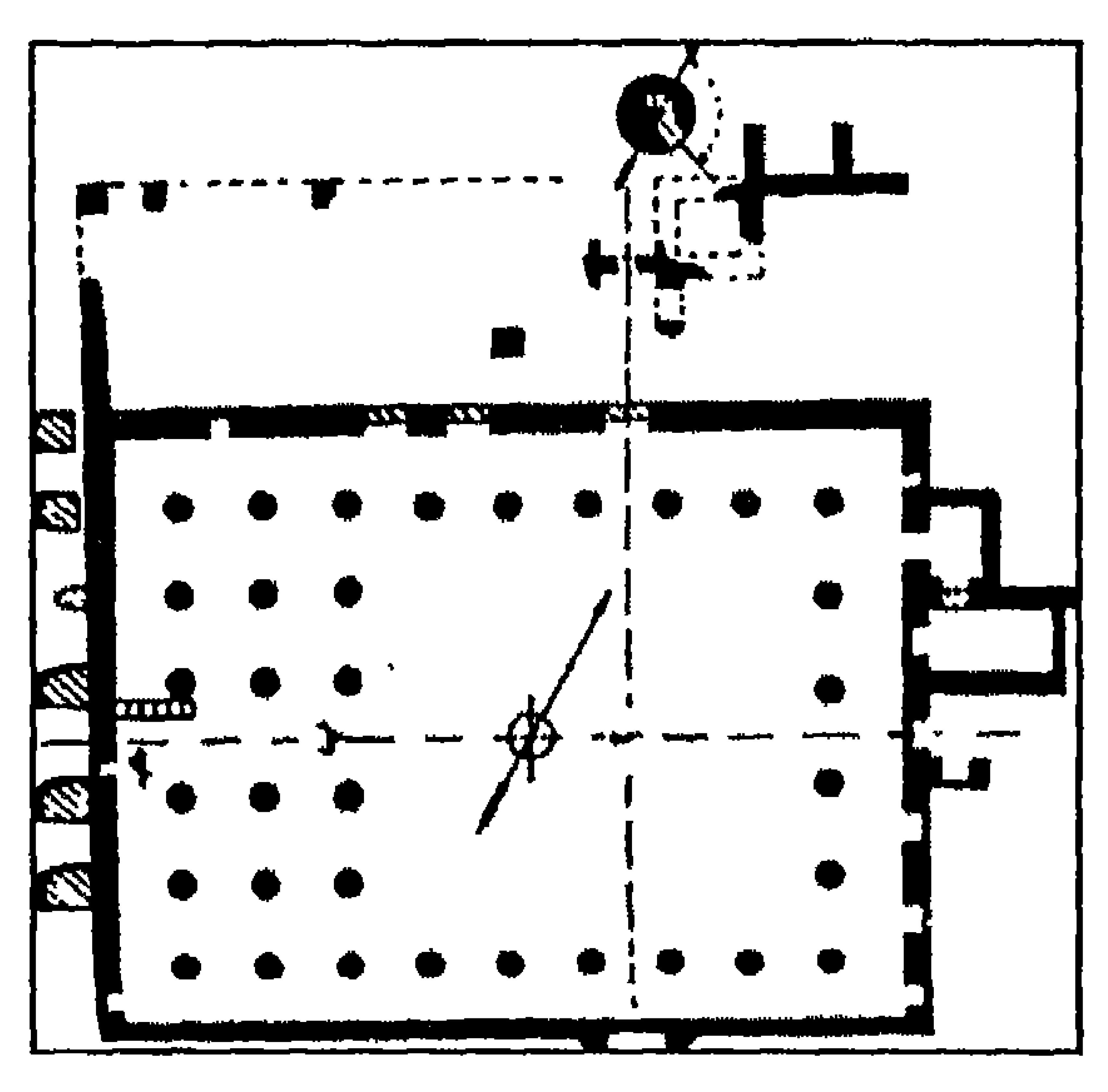
(٢) انظر من المرجع السابق.

(٣) انظر الفصل الثامن فيما بعد.

(٤) بنى مسجد الجيوشى فى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، انظر «مساجد القاهرة ومدارسها»، الجزء الأول، العصر الفاطمى.

(٥) انظر فيما بعد الجزء الأول.

الأمر بالنسبة لبيوت الصلاة يقتصر من قبل على بناء قبة فى نهايتها، تطل على بهو المسجد، وهى قبة البهو، التى أدخلت على مسجد القيروان فى سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٥م، وفى مسجد الزيتونة الجامع بتونس فى سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م، وفى مسجد الأزهر قبيل سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م[١]. وكانت هذه القبة تضفى مظهر الجلال على واجهة بيت الصلاة، ولا تخل بطابع امتداده، لتناسق ارتفاعها مع مجنبة هذا البيت.



شكل (٢٦) - رسم تخطيطى لمسجد دمغان فى إيران (عن بوب)

وقد حدث فى بلاد الفرس، فى إصفهان، نفس التطور، لكنه اتجه فيما بعد وجهة أخرى. فقد كان المسجد الجامع فيها يخط على نظم المساجد الجامعة العربية كما يتضح من نظام مسجد دمغان، المدعو بطارق خانه، والذى بنى فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى)، شكل (٢٦)[٢]، ومن مسجد نايين الذى بنى حوالى سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م، شكل (٢٧)[٣]، وكان فى كلا المسجدين الجامعين، بيت للصلاة من أساكيب وبلاطات، وبهو ومؤخر ومجنبات. وكذلك كان الحال فى مسجد إصفهان الجامع قبل سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، شكل (٢٨)، وكان

---

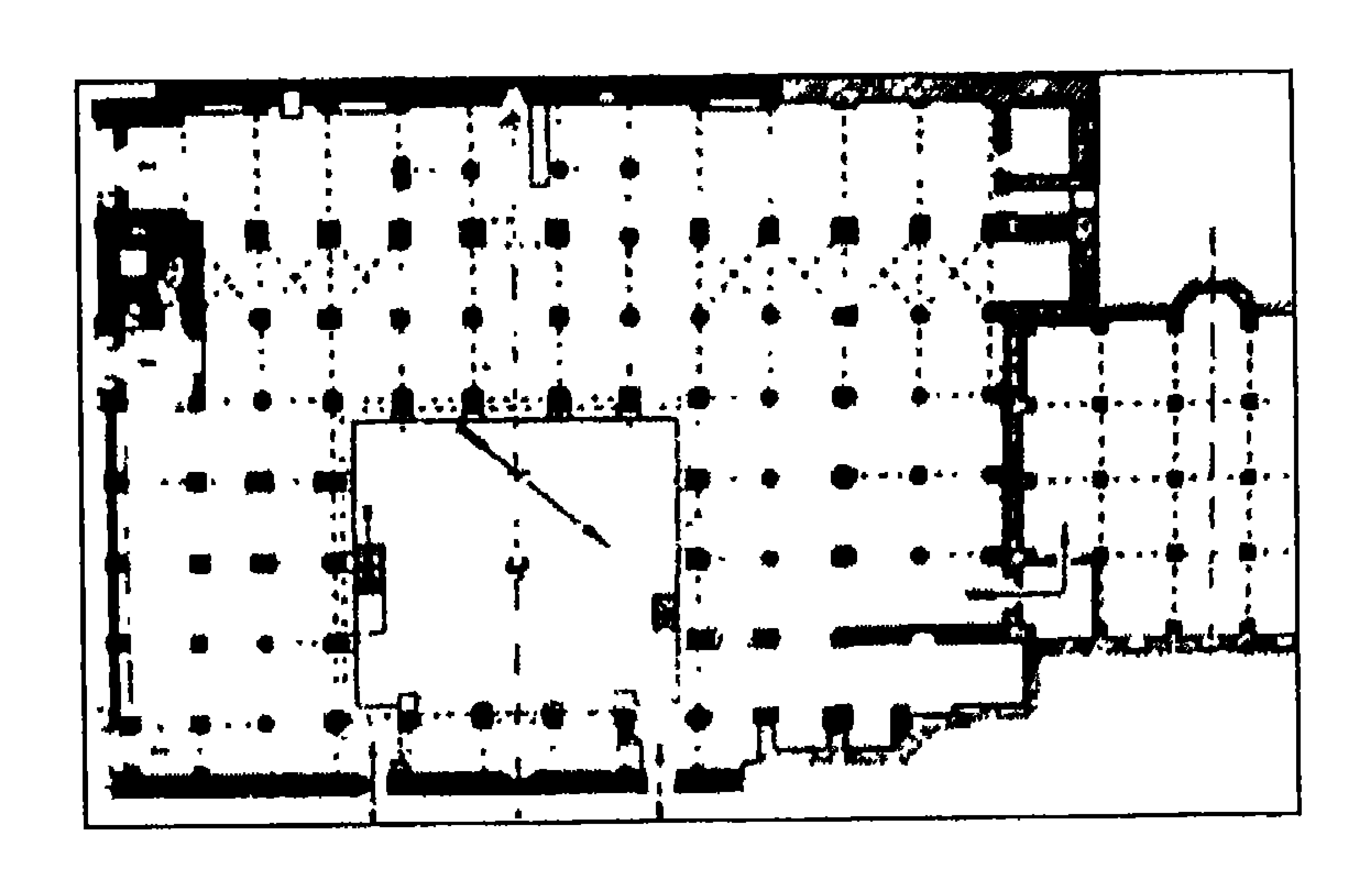
(١) انظر الجزء الأول، العصر الفاطمى، من «مساجد القاهرة ومدارسها».

(٢) انظر تراجع صفحة ٧٩، شكل (٧٢)، من «العمارة الفارسية» تأليف (بوب):

.POPE, Arthur Upliam; Persian Architecture. London, 1965

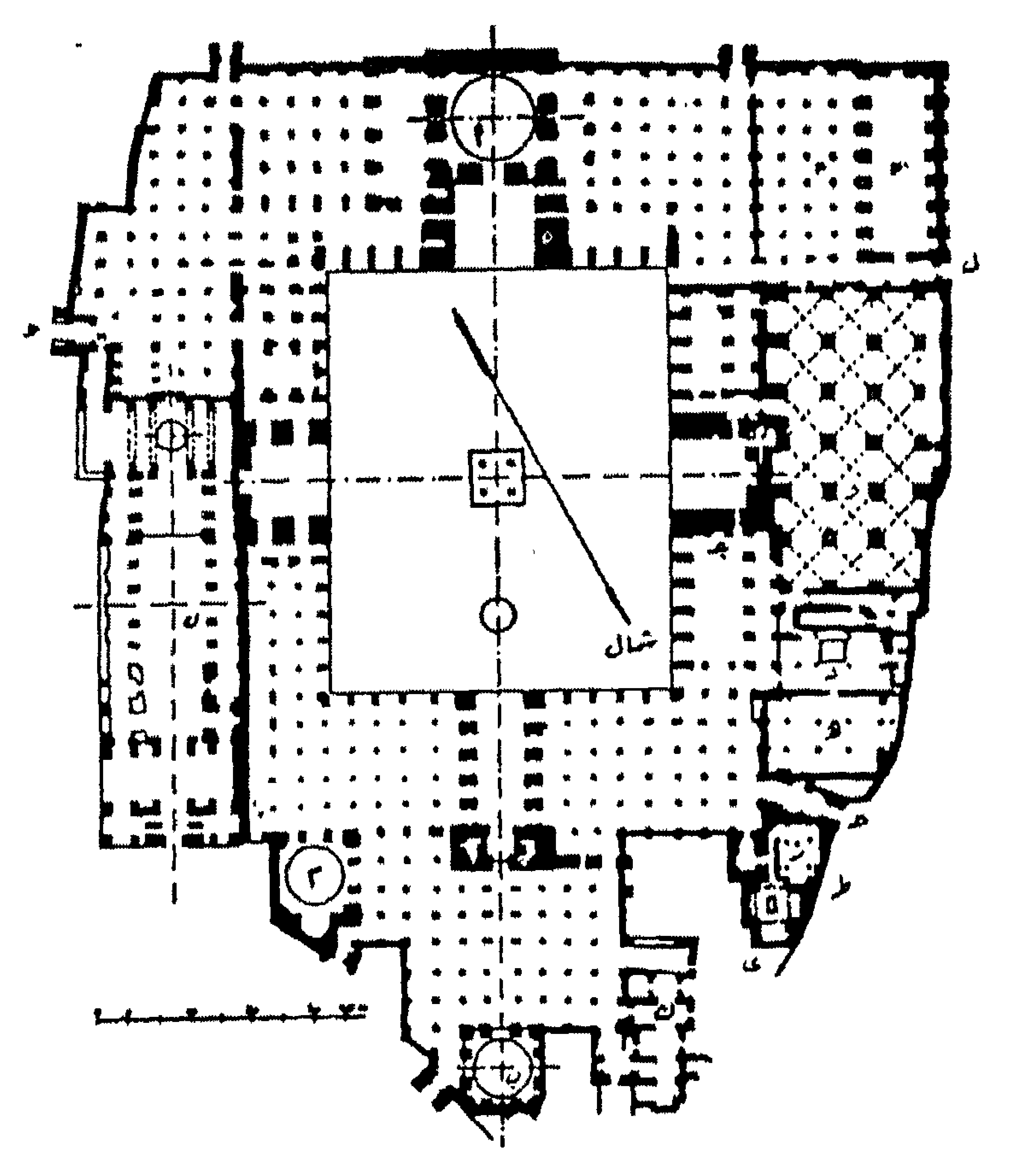
(٣) انظر صفحة ٨٤ والأشكال ٧٨ إلى ٨٠ من كتاب (بوب)، «العمارة الفارسية».

بيت الصلاة فيه يشمل سبعة أساكيب تمتد على تسع عشرة بلاطة، يطل على البهو منها ثلاثة عشر عقدًا. وكان يحيط بالبهو مؤخر من خمسة أروقة ومجنبتان، بكل منهما ثلاثة أروقة. وفى تلك السنة، أو فى سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م، أقيمت على بيت الصلاة قبتان، قبة محراب تجاورها قبة بهو، احتلتا من وسط هذا البيت مساحة ست بلاطات من امتداد أساكيبه السبعة. وبعد ذلك بقرنين ونصف القرن استبدل بقبة البهو إيوان ضخم تبلغ فتحته على البهو عشرة أمتار، ويبلغ عمقه ١٣ مترًا، ويبلغ ارتفاع قمة عقده من الباطن ١٨ مترًا، وارتفاع إطار الإيوان على البهو عشرين مترًا. وبذلك انقسم بيت الصلاة ثلاثة أقسام تكاد تكون منعزلة، يقف القسم الأوسط منها حاجزًا بين القسمين الآخرين، لأن سمك كل من جدارى هذا الإيوان الضخم يبلغ خمسة أمتار. وهكذا شوّهت وحدة بيت الصلاة، شكل (٢٩)[١]، وكانت الرغبة فى إظهار الفخامة، هى وحدها التى أوحت بهذا المسخ والتشويه. وكان نتيجة لذلك أن حلت فكرة العلو والعظمة والتركيز، محل الفكرة الأولى فى العمارة الإسلامية، التى كان قوامها الفسحة والامتداد.

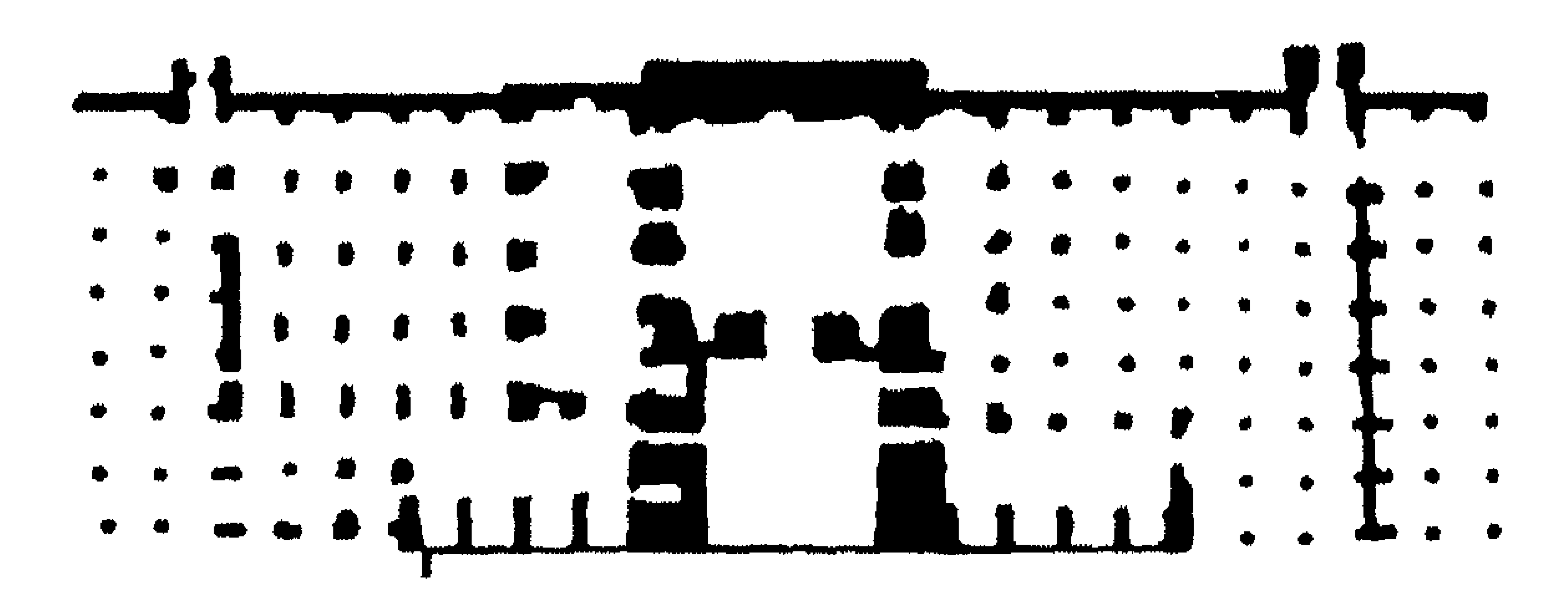


شكل (٢٧) – رسم تخطيطى لمسجد نايين فى إيران (عن بوب)

(١) انظر صفحة ١٠٨ وشكل ١٠٥ من المرجع السابق: (بوب)، «العمارة الفارسية».



شكل (٢٨) – رسم تخطيطى لمسجد إصفهان الجامع (عن بوب)



شكل (٢٩) – رسم تخطيطى لبيت الصلاة فى مسجد إصفهان الجامع

أدت هذه العوامل مشتركة إلى شيوع بناء الأواوين، وإلى تطور نظم المساجد الجامعة. وقد يبدو من المتعذر تتبع تطور هذه النظم فى العصر الأيوبى، لأنه لم يرد فى كتب المؤرخين ذكر بناء مساجد جامعة فى القاهرة فى هذا العصر، ولكنه سيتضح لنا من دراسة آثار المدرستين المتخلفتين من هذا العصر، وهما المدرسة الكاملية والمدارس الصالحية، أنهما قد بنيتا على نظام المساجد الجامعة المتطور، وأن كلا منهما كانت تؤدى وظيفة المسجد الجامع، فعلا، وإن لم يكن اسمًا.

كان لكل من المدرستين بيت للصلاة يضمه إيوان واحد، وقد رأينا أن هذا البيت أصبح أكثر عمقًا منه ذرعًا[1]، وكان لكل منهما بهو فسيح يطل عليه هذا الإيوان، وكان لكل منهما مؤخر متناسق هندسيًا مع بيت الصلاة، مصمم على نمطه من إيوان آخر، ولكنه أصغر حجما منه[2]. ولم يكن من الجائز معماريًا أن يكون للبهو مجنبتان يصلان هذا المؤخر ببيت الصلاة، لأن الجدران الجانبية المسدودة لإيوانيهما تنتصب حائلة دون هذه الصلة.

كان سمك الجدران الجانبية للأواوين هو العامل الرئيسى، إن لم يكن العامل الوحيد، لاختفاء المجنبتين من نظام المسجد الجامع، ومن نظام المدرسة التى حلت محله. وتتدخل عوامل كثيرة فى تحديد سمك هذه الجدران، من بينها شكل القبوة، إذا كان مقوسًا نصف أسطوانى، أو بيضاويًا، أو مدببًا، أو منفرجًا. ومن بينها اتساع فتحة القبوة وارتفاع قمتها عن سطح الأرض. ومن بينها مادة بنائها. ولكن الجدران كانت على كل حال سميكة بشكل ملحوظ، ومن المتفق عليه هندسيًا أن قبوة من الآجر نصف أسطوانية، مثلا، اتساع فتحتها ستة أمتار وارتفاع باطنها أحد عشر مترًا، تتطلب جدارًا سمكه مترًا ونصف المتر، شكل (٣٠). وجدران قبوة الكاملية يقرب سمكها من مترين، لوحة رقم (٢٢)، فى حين أن سمك جدران قبوة الثعالبة يزيد على ذلك بكثير، مع أن هذه القبوة أصغر فتحة وأقل ارتفاعًا من قبوة الكاملية، شكل (٣١)[3]، ويبلغ سمك جدران قبوة الصالحية مترين ونصف المتر، ويبلغ قطر

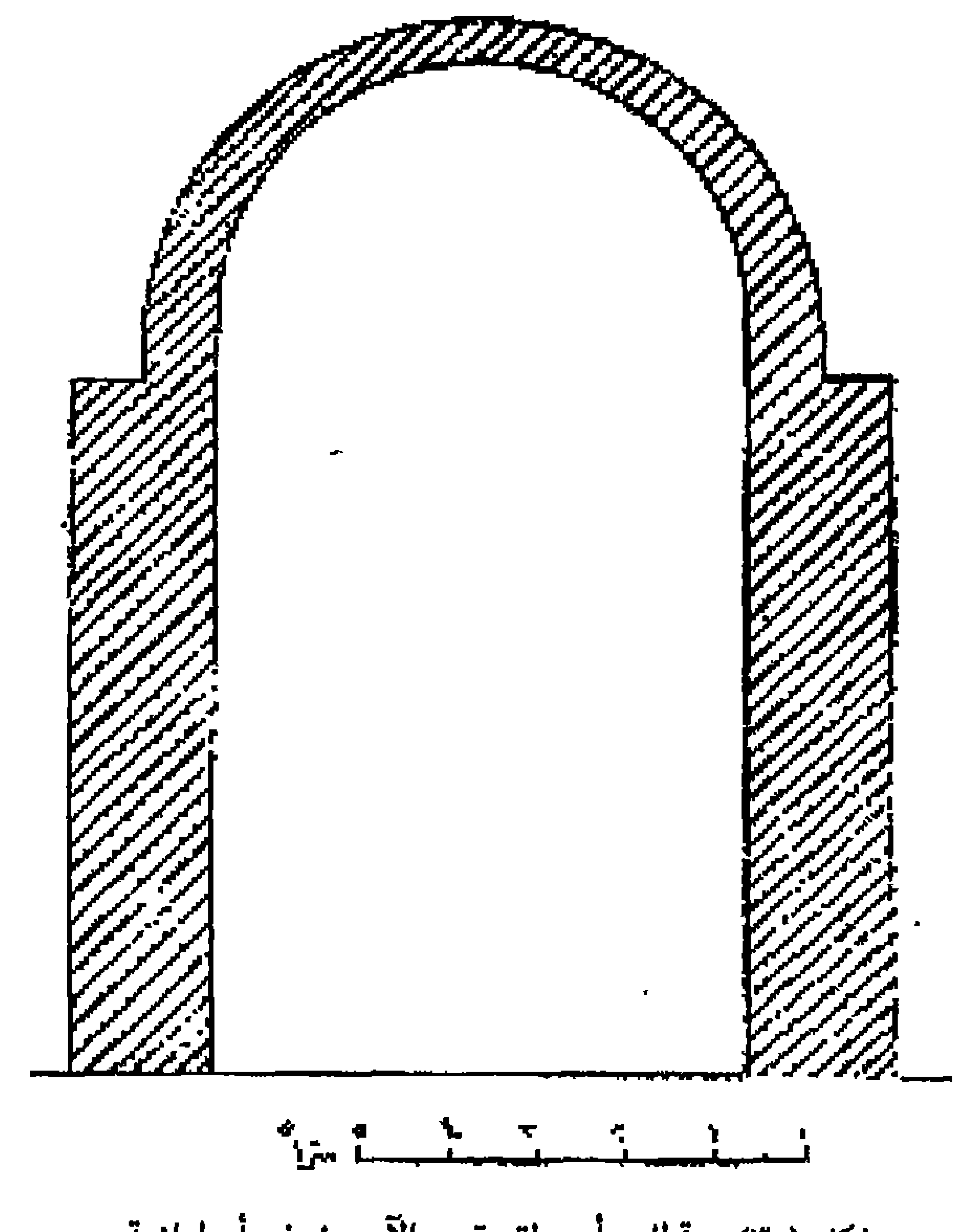
---

(١) يمتد جدار القبلة فى الإيوان المتخلف من المدارس الصالحية عشرة أمتار تقريبًا، وهو ذرع بيت الصلاة، ويمتد جوفه خمسة عشر مترًا، ولا تعرف مساحة بيت الصلاة فى الكاملية، ولكنه كان على هذه الهيئة من زيادة طول الجوف على الذرع.

(٢) يمتد جدار المؤخر، أى إيوان المالكية، المقابل لجدار القبلة فى المدارس الصالحية تسعة أمتار ونصف المتر ويبلغ عمق الإيوان أحد عشر مترًا ونصف المتر، أما فى الكاملية فيمتد جدار المؤخر تسعة أمتار ونصف المتر ويمتد جوف الإيوان عشرة أمتار ونصف المتر.

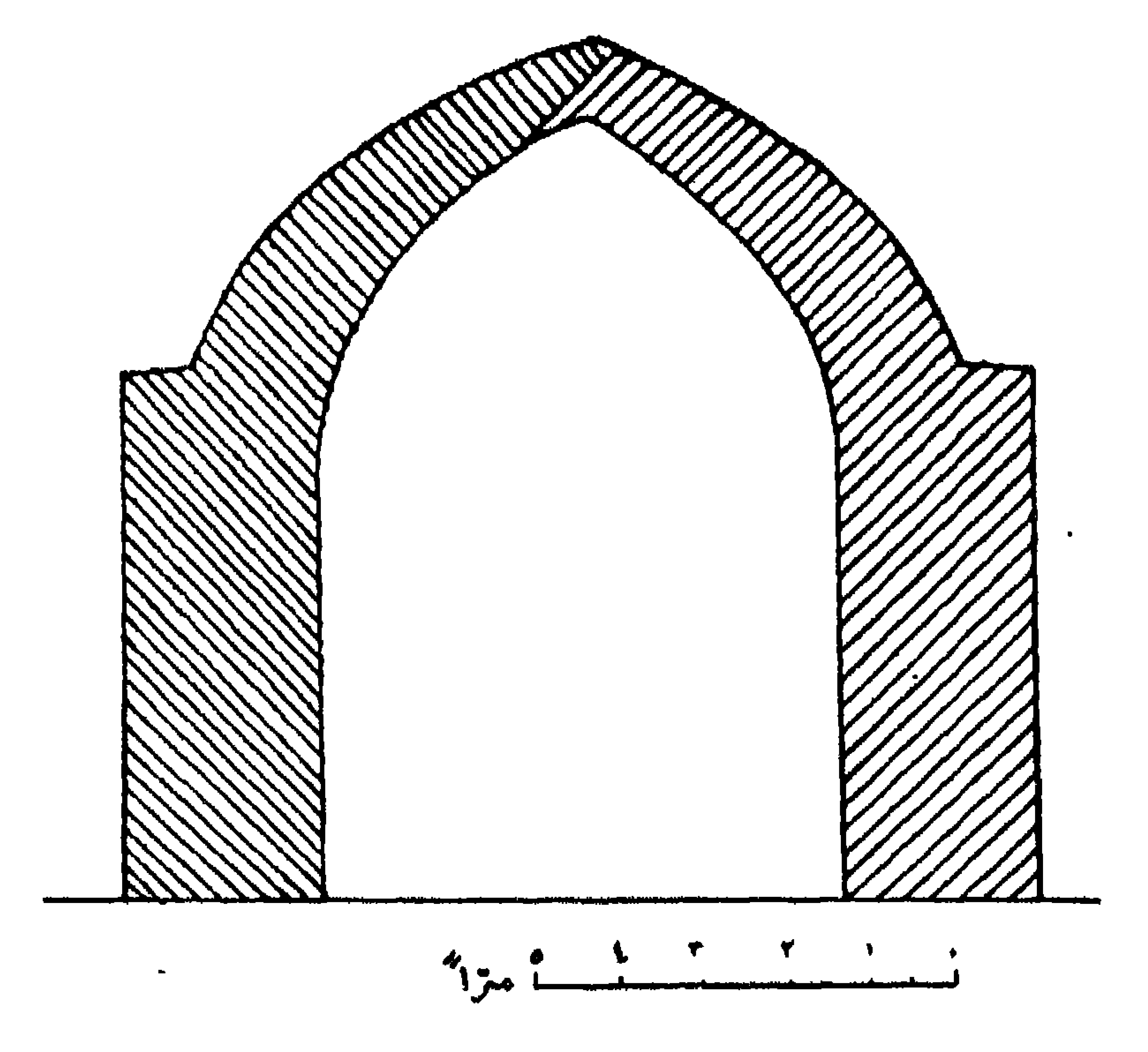
(٣) اتساع فتحة قبوة الكاملية تسعة أمتار ونصف المتر وكان ارتفاع باطن قمتها يزيد على ١٣ مترًا، أما قبوة الثعالبة فاتساع فتحتها ستة أمتار وربع المتر وارتفاع باطن قمتها تسعة أمتار وربع المتر.

فتحتها عشرة أمتار وارتفاع باطن قمتها ثلاثة عشر مترًا ونصف المتر، شكل (١٤) ويبلغ سمك جدران قاعة الدردير مترًا ونصف المتر، ويبلغ اتساع فتحة قبوتها ٦ أمتار وارتفاعها ١٢ مترًا، شكل (٣٢)، وقد وصل سمك الجدران إلى سبعة أمتار فى إيوان مدرسة السلطان حسن، وهو أضخم إيوان قائم فى العمارة الإسلامية بالقاهرة، إذ يبلغ اتساع فتحة قبوته ٢٢ مترًا، وارتفاع باطن قمتها عن سطح الأرض ٢٦ مترًا.



شكل (٣٠) – قطاع رأسى لقبوة من الآجر نصف أسطوانية

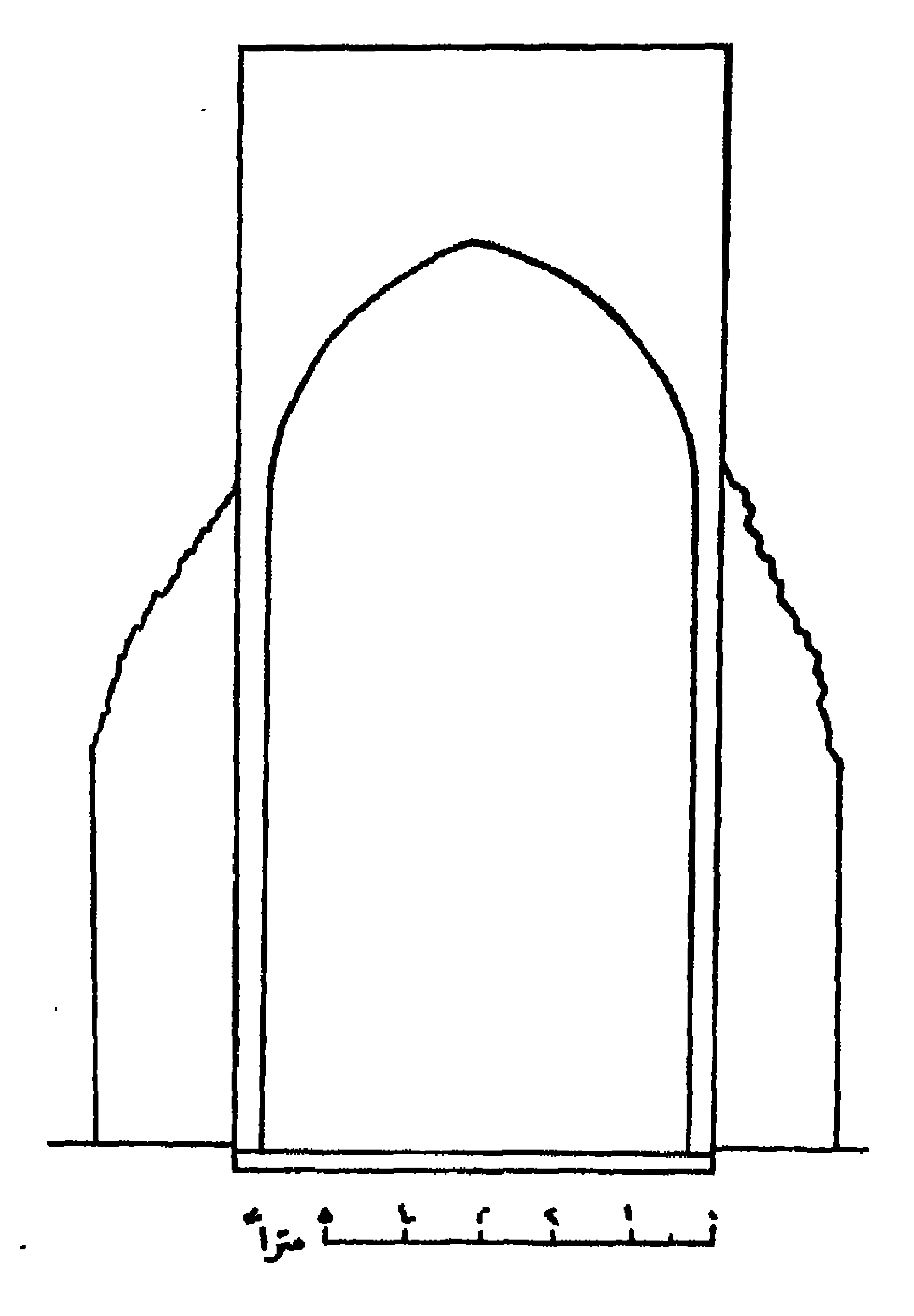
اختفت المجنبتان من نظام الميسجد الجامع نتيجة لسمك جدران إيوانى بيت الصلاة والمؤخر، ولهذا رؤى أن تقام عوضًا عنهما، وفى موضعيهما، مبان لا تتطلب وظيفتها الاتصال المباشر بهذا البيت وهذا المؤخر، ويتحقق بإقامتها التناسق المعمارى للنظام التقليدى للمسجد الجامع، ذلك النظام الذى كانت تحيط المبانى فيه بالبهو من كل جهة. وهكذا شُغل هذان الموضعان بغرف يقيم فيها طلاب المدرسة، كل غرفة مستقلة عن الأخرى، وبالتالى تستقل هذه الغرف جميعا عن بيت الصلاة والمؤخر.



شكل (٣١) – قطاع رأسى لقبوة قاعة مشهد الثعالبة

وكان نتيجة اتخاذ هذا النظام الجديد المتطور، أن بقيت فراغات فى أركان حدود المسجد المربعة أو المستطيلة، فيما بين صفوف هذه الغرف وبين جدران بيت الصلاة من جهة، وجدران المؤخر من جهة أخرى. وقد ملئت هذه الفراغات بالملحقات الجديدة التى تطلبتها إضافة وظيفة جديدة إلى وظيفة المسجد الجامع، وبنيت فى هذه الأركان قاعات ومنافع عامة، وخصص جزء منها أحيانًا لبناء ضريح.

احتفظت المدرسة فى النظام الجديد بحدود المسجد الجامع التقليدية، واحتفظت بنظام بيت الصلاة والمؤخر، بالرغم مما لحقهما من اختلاف فى نسبة الذرع إلى الجوف، واحتفظت بالبهو الفسيح فى الوسيط، واستبدلت بالمجنبتين مبان، وأضيفت إلى الأركان ملحقات جديدة.



شكل (٣٢) – قطاع رأسى لقبوة قاعة الدردير بالقاهرة

كانت العناصر المعمارية، التى أشرنا إليها، من العوامل التى أدت إلى تطوير نظام المسجد الجامع. وسنرى فى الفصول التالية أن عوامل أخرى، ليست أقل أهمية، تؤكد أن نظام المدرسة المعمارى قد استمد كيانه ومقوماته من النظام التقليدى للمسجد الجامع.



النظم التخطيطية للمدارس

١ - المدارس المتخلفة من القرن الخامس الهجرى حتى نهاية العصر الأيوبى

٢ - الصفات المشتركة لأنظمة المدارس المعروفة.

الفصل السادس

النظم التخطيطية للمدارس



المدارس المتخلفة من القرن الخامس الهجرى حتى نهاية العصر الأيوبى

أشرنا فى بداية الفصل الخامس من هذا الكتاب إلى أننا نرجئ البحث فى النظم التخطيطية للآثار المتخلفة من العصر الأيوبى إلى ما بعد استيفاء بحث العناصر المعمارية. ويتطلب بحث هذه النظم التخطيطية، وهى مقصورة فى كتابنا على المدارس، أن يتصدر هذا البحث عرض لما نعرفه عن نظم المدارس منذ عهد إنشائها إلى نهاية العصر الأيوبى.

كان المتوارد أن المدارس أنشئت فى نيسابور، وأن أقدمها عهدًا هى مدرسة ابن فورك، وتاريخها يرجع إلى ما قبل سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م. وانتشر بناء المدارس بعد ذلك التاريخ فى العراق وخراسان والشام، وخاصة منذ منتصف القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى)[١]. وقد استعرضنا فى الفصل الرابع إنشاء المدارس بالديار المصرية، وأقدمها عهدًا المدرسة العوفية والمدرسة السلفية، اللتان أنشئتا بالإسكندرية فى العصر الفاطمى، فى سنتى ٥٣٢هـ/١١٣٨م و ٥٤٦هـ/ ١١٥١م، والمدرسة المسرورية، التى أنشئت فى القاهرة فى نهاية العصر الفاطمى[٢] كذلك. أما فى العصر الأيوبى فقد أنشئت بالفيوم مدرستان[٣]، وبمصر والقاهرة عدة من المدارس تقتصر معرفتنا بها على أربع وعشرين منها، كان أقدمها عهدًا، المدرسة الناصرية الأولى، التى عرفت فيما بعد بالمدرسة الشريفية، والتى أنشأها صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، وآخرها عهدًا المدارس الصالحية[٤].

---

(١) انظر الجزء الأول.

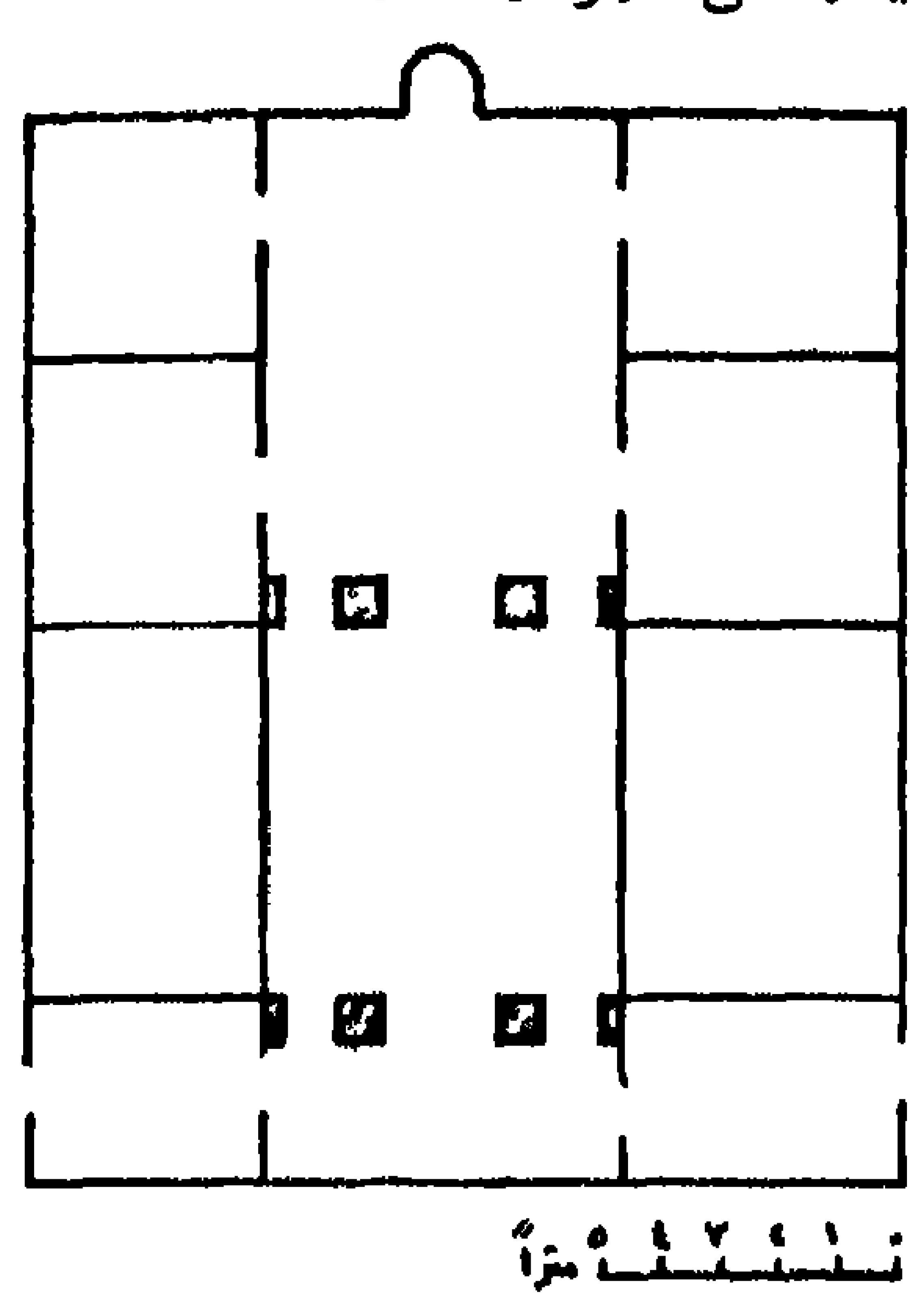
(٢) انظر فيما سبق.

(٣) انظر فيما سبق

(٤) انظر فيما سبق.

وقد اندثرت معظم مدارس نيسابور والشام والعراق، واندثرت كذلك مدارس الإسكندرية والفيوم ومصر والقاهرة، فيما عدا الأطلال التى تبقت من المدرستين الكاملية والصالحية، اللتين أنشئتا على التوالى فى سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م و ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م. وتبقت بعض آثار المدارس فى الشام والعراق، بحيث يمكن الاستدلال منها على نظمها وتخطيطها فى عهود إنشائها.

كان المعتقد حتى عهد قريب أن أقدم الآثار المتخلفة من المدارس توجد فى أطلال مدرسة ابن منصور كومشتكين فى بُصرى بالشام، وهى التى أنشئت فى سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م[1]. ويستدل من الرسم التخطيطى الاجتهادى لماتبقى من أطلال هذه المدرسة شكل (٣٣)، أنها تنحصر فى مستطيل طول جدار القبلة فيه نحوًا من سبعة عشر مترًا، وطول كل من ضلعيه الشرقى والغربى عشرون مترًا. ويتوسط البناء بهو مربع، طول كل ضلع من أضلاعه خمسة أمتار ونصف المتر، كان يطل عليه بيت للصلاة، عرضه خمسة أمتار ونصف المتر كذلك، وجوفه سبعة أمتار ونصف المتر.



شكل (٣٣) – رسم تخطيطى افتراضى لمدرسة كومشتكين فى بصرى

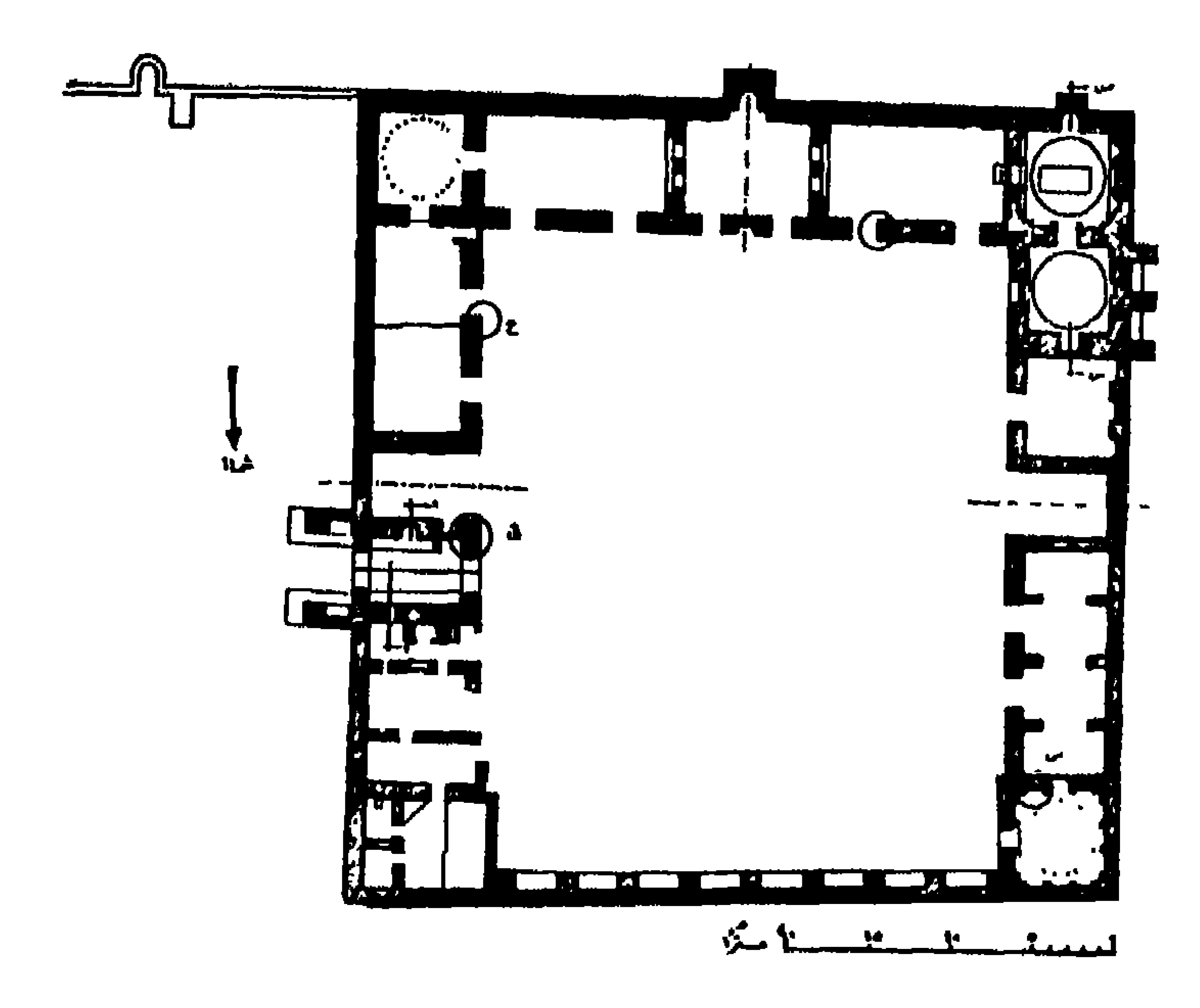
وأغلب الظن أنه كانت قد نظمت على جوانب البهو الثلاثة الأخرى غرف وقاعات، وأنه كانت تحتل أركان البناء قاعات أخرى. ومن هذا يتضح أن هذه المدرسة صغيرة وأن أكبر أقسامها مساحة وحجمًا هو بيت الصلاة، ويليه أهمية البهو.

وادعى بعض علماء الآثار حديثًا أن أطلالاً متخلفة من بناء فى خَرجِرد فى خراسان، فى الجنوب الغربى من نيسابور، تتخلف من المدرسة النظامية التى بنيت هنالك فى سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م. وسنرى فى الفصل التالى أن الشك يحوم حول هذا الافتراض، وأن الأجزاء الباقية من البناء أقرب

(١) انظر صفحة ١٠٨ من الجزء الثانى من كتاب (كريسويل)، «العمارة الإسلامية فى مصر». هذا ويرجح المؤلف فى صفحة ١١٨ من نفس المرجع أن أقدم الآثار المتخلفة فى المدارس توجد فى المدرسة المجاورة للمسجد الجامع فى الرها بالأناضول والتى احتفظت بنقش كتابى يحمل تاريخ سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، غير أن الكاتب يعترف فى الصفحة التالية، صفحة ١١٩ من المرجع نفسه، أن من المتعذر الاستدلال من الأبنية الحالية على نظام المدرسة القديم وأن بيت الصلاة الذى تبقى منها وحدة قد جدد مرارًا. أما تاريخ مدرسة بصرى التى اندثر معظم آثارها فهو مسجل على لوحة منقوشة، نشر نصها فى صفحة ١٩٩ من الجزء الثامن من «مرجع الكتابات العربية» تأليف (كومب) و (فييت) وآخرين.

إلى المسجد منه إلى المدرسة، إذ إنها تقتصر على بيت للصلاة يطل على بهو. أما الأجزاء الباقية الأخرى فهى غير واضحة المعالم[1].

وإن صح ما انتهى إليه بحث الدكتور عبد العزيز حميد من أن عمارة المشهد المعروف بمزار «الأربعين» فى تكريت بالعراق كانت مدرسة، وأنها شيدت فى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، وهو ما ترجحه - فى رأينا - كذلك عناصر البناء والزخرفة، فإنه يحتمل أن يكون هذا البناء «أقدم مدرسة دينية إسلامية... فى العالم الإسلامى أجمع»[2]. وأغلب الظن أن هذا البناء أسبق عهدًا من مدرسة بُصرى، وهو كذلك أكثر احتفاظًا بعناصره الأولى، وأكبر أهمية ومساحة، شكل (٣٤). وتمتد حدود هذا البناء الخارجية حول مربع تقريبًا طول كل ضلع من أضلاعه سبعة وأربعون مترًا، أى إن مساحة هذا البناء تبلغ تسعة أضعاف مساحة مدرسة بُصرى. ولمزار «الأربعين» بيت للصلاة طوله سبعة أمتار ونصف المتر وجوفه خمسة أمتار ونصف المتر، ويحف بهذا البيت، من كل من شرقيه وغربيه، غرفة



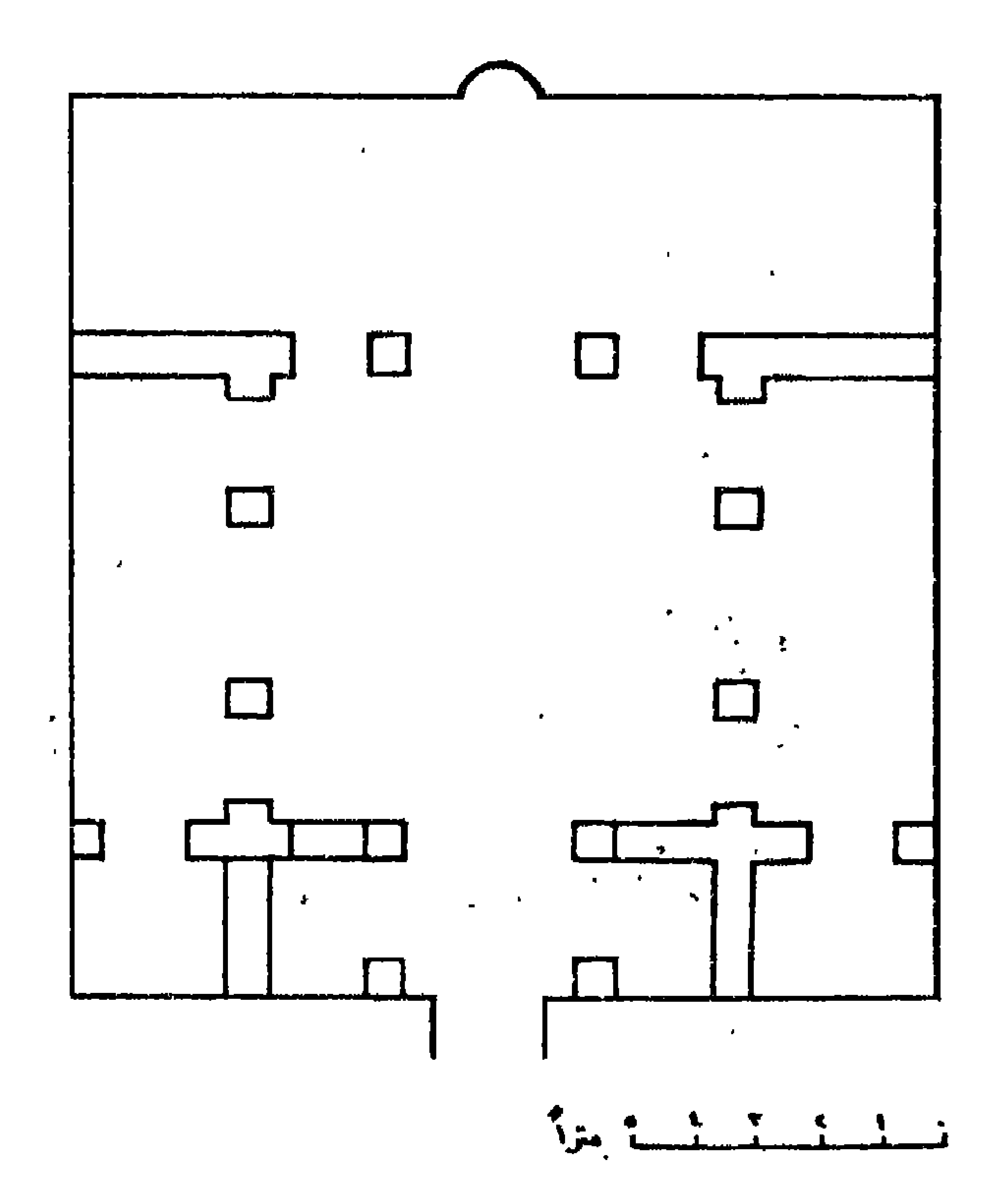
شكل (٣٤) - رسم تخطيطى لمدرسة الأربعين فى تكريت بالعراق، (عن عبد العزيز حميد)

(١) انظر فيما يلى صفحة ١٣٧، والحاشية (٣) من نفس الصفحة.

(٢) انظر صفحة ١٤٠ من مقال «عمارة الأربعين فى تكريت» للدكتور (عبد العزيز) حميد، بمجلة سومر، الجزء الأول والثانى، المجلد الحادى والعشرون، بغداد سنة ١٩٦٥م، صفحات ١٢٣ إلى ١٥٥.

مستطيلة يزيد طولها على عشرة أمتار، وعرضها مثل جوف بيت الصلاة، الذى تتصل به كل من الغرفتين بباب مزدوج، وهذا يرجح أنهما كانا امتدادًا لبيت الصلاة. ويؤكد هذا الرأى أن بالغرفة الشرقية ثلاثة محاريب مسطحة، وبالغرفة الغربية محراب مسطح، أى إن بيت الصلاة كان يمتد أكثر من ٣٧ مترًا، وأنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام متصلة. وقد أدت طريقة تسقيف البناء إلى هذا التقسيم، فقد أقيمت قبة فى وسطه، وهى التى اقتضت أن يكون هذا القسم الأوسط أصغر مساحة من الطرفين اللذين سقف كل منهما بقبوة شبه أسطوانية.

وللبناء بهو فسيح مكشوف يطل عليه بيت الصلاة ببابين مزدوجين عرض كل منهما متر، وكذلك يطل كل من الطرفين عليه ببابين. وتزيد مساحة هذا البهو على ٣٦ مترًا طولا و ٣٠ مترًا عرضًا. وقد أقيمت على جانبيه الشرقى والغربى غرف كانت مسقوفة بقبوات، ويتقابل فيهما غرفتان متساويتان حجمًا، تتوسطان هاتين المجنبتين وتطلان على البهو، كل منهما بعقد يمتطى



شكل (٣٥) - رسم تخطيطى افتراضى لدار الحديث النورى بدمشق، (عن سوفاجيه)

واجهـــة الغرفـــة، التى تمتد ما يقرب من أربعة أمتار، ويبلغ عمق كل من الغرفتين ســبعة أمتار تقريبًا. وقد أقيم فى ركنى البناء – فيما بين نهايتى المجنبتين وطرفى بيت الصلاة – ضريحان، ضريـــح فـــى الركن القبلى الشـــرقى، وآخر فى الركـــن القبلى الغربى، أعد لـــكل منهما محراب مجـــوف، وأقيمـــت على كل منهما قبة. ولم تكشـــف الحفائر التى أجريت فى البناء عن أســـس مؤخر المسجد، وإن كان من المرجح أن هذه الأسس قد انتزعت لبناء مقابر فى تلك الجهة تحت سطح الأرض، كما أن نظام البناء يوحى بأنه كان بالمؤخر سقيفة أو غرف. وهكذا يتضح أن هذا البناء قد أقيم على نظام المســاجد، فيه بيت مديد للصلاة، وبهو فســيح ومجنبتان ومؤخر، وإنما استخدمت أجزاء منه لإقامة ضريحين، وغرف من طابق أو طابقين، وقاعات ومنافع عامة.

وتبقت أجزاء من بناء دار الحديث النورى فى دمشـــق، وهى التى أنشـــئت فيما بين ســـنتى ٥٤٩هـ و ٥٦٩هـ / ١١٥٤م و ١١٧٤م[١]، والتى يصح اعتبارها مدرسة. إلا أن المتبقى من أبنيتها القديمة يقتصر على بيت الصلاة، وعلى الجزء المقابل له فى المؤخر وفيه الباب والمدخل، شـــكل (٣٥). وقـــد درس ثلاثة من المستشـــرقين آثار هذه الـــدار، وحاول اثنان منهما أن يضع كل واحد رسمًـــا تخطيطيًّا لما كانت عليه عند إنشـــائها[٢]. والرسمان مختلفان تفصيلاً، ولكنهما يتفقان فى الدلالة على أن البناء صغير، شـــبيه بمســـجد، حدوده الخارجية شبه مربعة، طول كل ضلع من أضلاعها ١٦ مترًا تقريبًا، وأنه يشمل بيتا للصلاة مستطيلاً، يمتد جدار القبلة فيه ١٤ مترًا ويمتد جوفه أربعة أمتار، وفيه محراب مجوف. ويســـتدل كذلك مما تبقى من أبنية هذه الدار أن بيت الصلاة كان يطل على بهو مكشوف مربع طول كل ضلع من أضلاعه سبعة أمتار، وأنه كان يحيط بهذا البهو مجنبتان مفتوحتان عليه، ومؤخر مقسم إلى غرف أربعة يتوسطها المدخل.

---

(١) انظر صفحة ٩٩ وما يليها من كتاب «الدارس فى تاريخ المدارس» لمؤلفه النعيمى، «عبد القادر بن محمد المتوفى سنة (٩٢٧هـ / ١٥٢١م)» عنى بنشره وتحقيقه جعفر الحسنى، الجزء الأول، دمشق ١٩٤٨م.

(٢) انظر كتاب (سوفاجيه)، «الآثار الأيوبية فى دمشق» صفحة ١٥ إلى ١٧.

SAUVAGET: *Les Monuments Ayyoubides de Damas*, Paris, 1938.

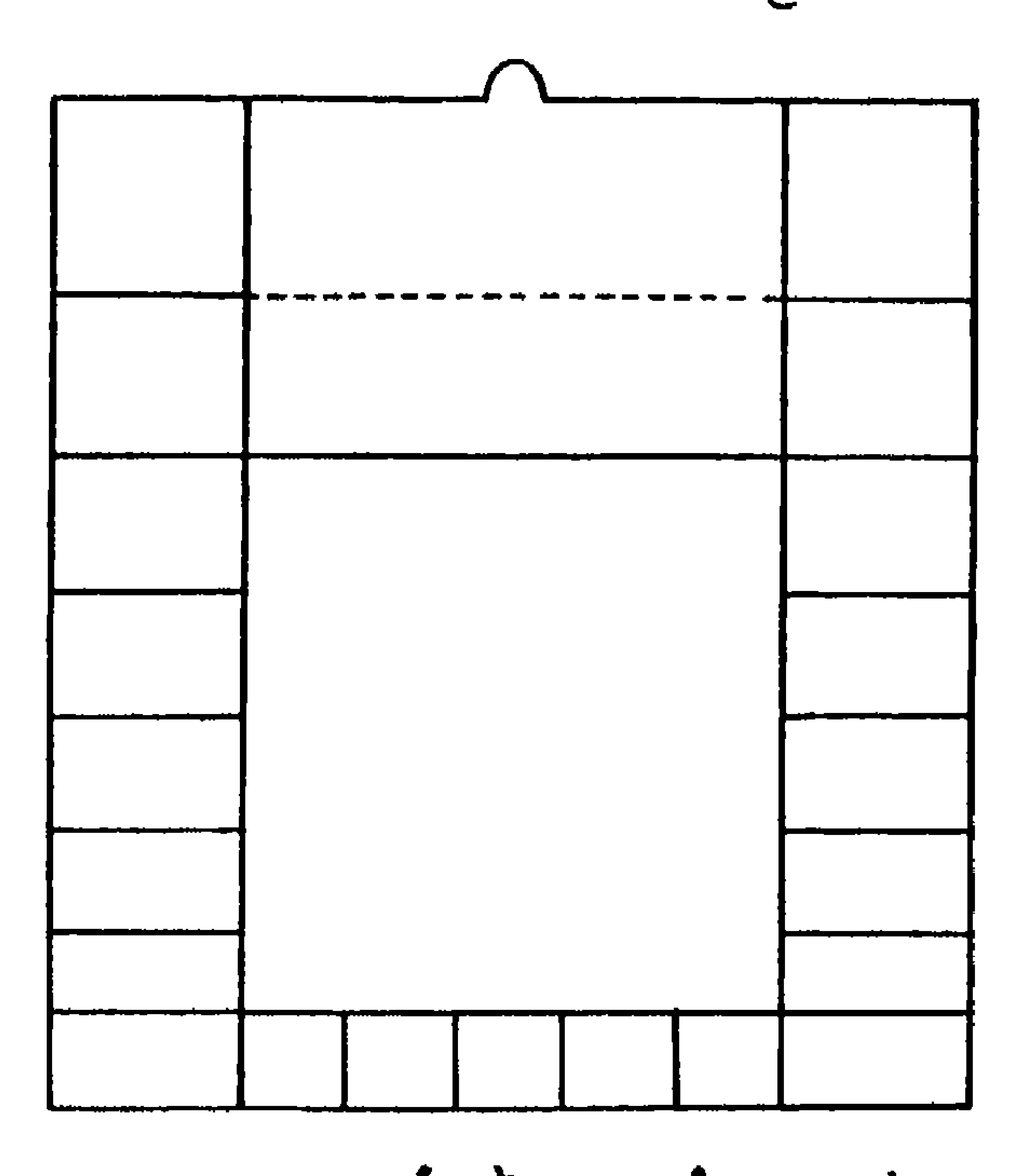
ومقال (هرتزفلد) «دراسات فى العمارة» صفحة ٥١ شكل ٣٩ من القسم الثانى:

HERZFELD: Studies in Architecture, I, Ars Islamica, Vol. IX, 1942, pp. 1 – 53 ; II, Vol. X, 1943, pp. 13 – 70; III, Vol. XI – XII 1946, pp. 1 – 71.

وصفحة ١٠٨ من الجزء الثانى من كتاب (كريسويل)، «العمارة الإسلامية فى مصر».

هذا وقد اكتفى (كريسويل) بنقل الشكلين اللذين وضعهما (سوفاجيه) و (هرتزفلد)، ولكنه يفترض أن كلا من المجنبتين فى هذه الدار كانت تطل على البهو بعقد واحد، على نظام مدرسة بصرى، لا بعقود ثلاثة كما افتراض (سوفاجيه)

ويلى دار الحديث النورى تاريخًا مما تبقى من آثار المدارس، مدرسة خان آتون فى حلب، وهى التى بنيت فى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وكانت مخصصة للمذهب الحنفى، كما يوضحه النقش الكتابى المتخلف عنها[1]. ويستدل مما تبقى من أبنية هذه المدرسة على أنه كان بها بيت للصلاة، جوفه أربعة أمتار، يمتد جدار القبلة فيه أكثر من ١٤ مترًا، ويتوسطه محراب مجوف. وكان لهذه المدرسة بهو مكشوف فسيح مربع، طول كل ضلع من أضلاعه ١٤ مترًا. وأغلب الظن أنه كانت تتقدم هذا البهو سقيفة، أو مجنبة ملاصقة لبيت الصلاة، وأنه كانت تحيط بجوانبه الثلاثة الأخرى غرف صغيرة. وأغلب الظن كذلك أن هذه الغرف كانت من طابقين، وأنه كان بأركان البناء غرف أخرى ومنافع عامة، شكل (٣٦) [2].

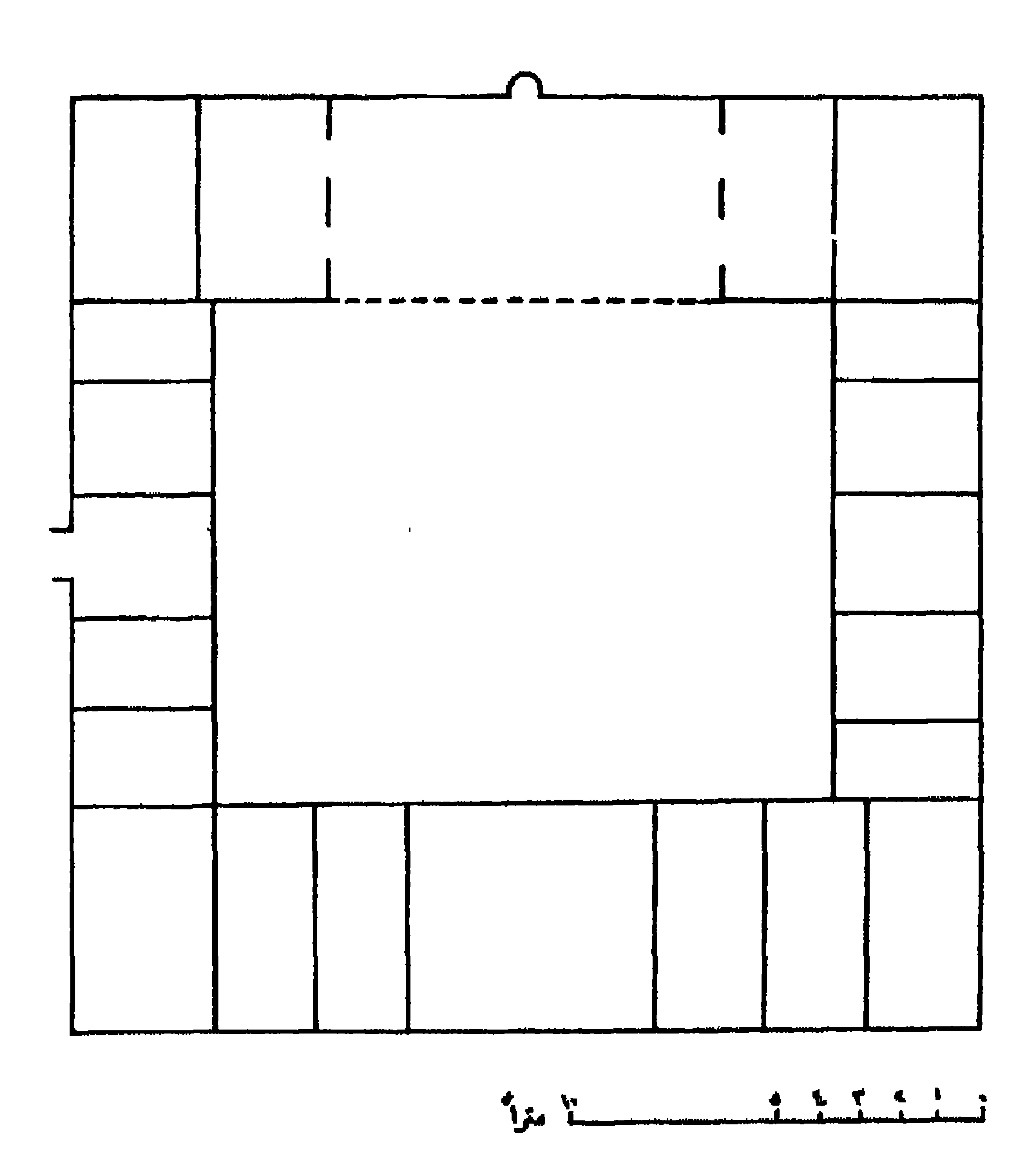


شكل (٣٦) – رسم تخطيطى افتراضى لمدرسة خان آتون بحلب

(١) انظر صفحة ٥٩ من الجزء التاسع من «مرجع الكتابات العربية» تأليف (كومب) و (سوفاجيه) و (فييت).

(٢) أورد (كريسويل) فى صفحة ١٠٩ من الجزء الثانى من كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر» رسمًا تخطيطيًا لما تبقى من مبانى هذه المدرسة، كما نشر صورة فوتوغرافية لواجهة بيت الصلاة على الحصن، شكل (٥٥) المواجه لصفحة ١١٤ من نفس الكتاب.

ولعلّ ما تبقى من المدرسة النورية الكبرى فى دمشق، يكون أقرب دلالة عن وضعها القديم، مما تبقى من آثار المدارس التى أشرنا إليها فى الصفحات السابقة، بالنسبة لنظمها القديمة. وقد أنشأ هذه المدرسة السلطان نور الدين زنكى فى شعبان من سنة ٥٦٧هـ / أبريل ١١٧٢م وخصصها للمذهب الحنفى[1].



شكل (٣٧) – رسم تخطيطى بيانى للمدرسة النورية الكبرى بدمشق، (عن هرتزفلد)

(١) انظر النص التاريخى المسجل على لوحة على بابها فى صفحة ٦٥ من الجزء التاسع من «مرجع الكتابات العربية» تأليف (كومب) وآخرين.

ويستدل من الرسم التخطيطى لآثارها القائمة، شكل (٣٧)، أنه كان لها بيت للصلاة جوفه ٦ أمتار تقريبًا وطول جدار القبلة فيه ١٤ مترًا، وأنه كان يتوسطه محراب مجوف. وكانت تقوم بكل من طرفى هذا البيت قاعة مستطيلة متصلة به عرضها ثلاثة أمتار تقريبًا. ثم إن هاتين القاعتين وهذا البيت كانت تطل على بهو مكشوف فسيح، طوله عشرون مترًا ونصف المتر، وعرضه أكثر من ١٦ مترًا، وكانت تحيط به من الجوانب الثلاثة غرف صغيرة من طابقين. ويبدو أنه كان يتوسط هذه الغرف، فى كل من الجانبين الشرقى والغربى، إيوان مفتوح على البهو، عرضه أربعة أمتار تقريبًا وطوله أربعة أمتار ونصف المتر. وكان الإيوان الشرقى يتخذ مدخلاً للمدرسة ومازال بابها مفتوحًا فيه. وكان يقابل ببت الصلاة على الجانب الشمالى للبهو مؤخر، على هيئة إيوان فسيح، طوله أكثر من ثمانية أمتار، وعرضه سبعة أمتار ونصف المتر تقريبًا، ويحتل الضريح الذى بناه لنفسه السلطان نور الدين زنكى ركنًا من أركان البناء مجاورًا لبيت الصلاة، ويبدو أنه كانت تحتل قاعات مستطيلة أركان البناء الأخرى[1].

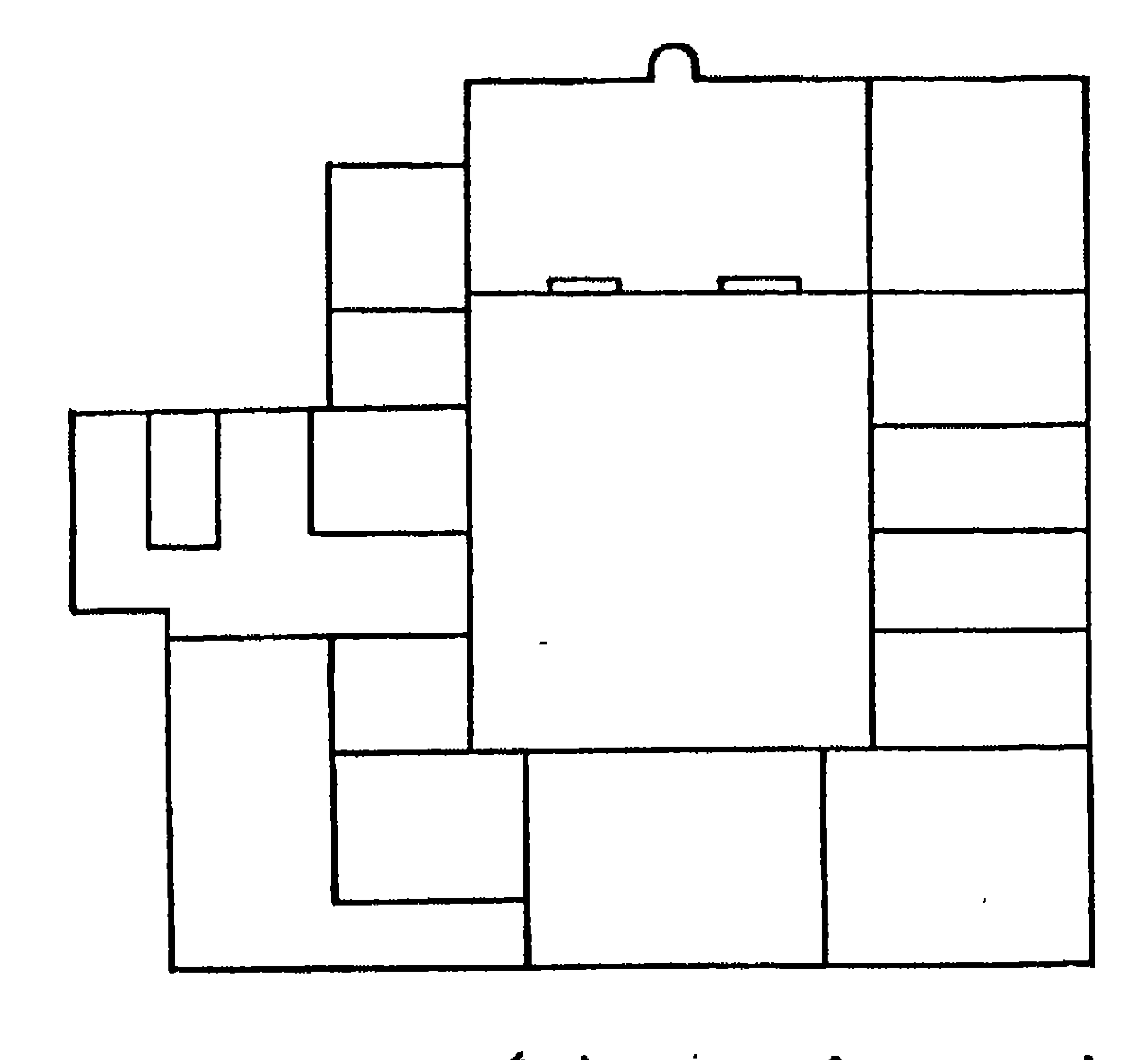
وتبقت بحلب آثار من مدرسة أنشأها شاذبخت، معتوق الملك العادل محمود بن زنكى، فى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، وأوقفها على فقهاء المذهب الحنفى، واسمها مدرسة المعروف أو المدرسة البختية[2]. وهى بناء صغير الحجم، تبقى على حاله من قديمه فحسب بيت للصلاة من أسكوب واحد، جوفه أربعة أمتار وطول جدار القبلة فيه ثمانية أمتار، تعلوه قبة، ويتوسطه محراب مجوف، وكان يطل على البهو بثلاثة عقود. ويبدو أنه كان يقابله فى مؤخر المسجد إيوان مسقوف بقبوة مدببة، مفتوح على البهو بعقد فتحته ستة أمتار. والبهو مستطيل طوله عشرة أمتار وعرضه ثمانية، وقد أقيمت على جانبيه الشرقى والغربى غرف صغيرة وممرات ومنافع عامة. وكذلك أقيمت فى أركان البناء قاعات أخرى، شكل (٣٨)[3].

---

(١) انظر صفحات ١٠٩ إلى ١١١ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر»، تأليف (كريسويل). ويلاحظ أن الرسم التخطيطى لهذه المدرسة شكل (٥٦) صفحة ١١٠، منقول عن مقال (هرتزفلد)، «دراسات فى العمارة»، القسم الأول، شكل (٢٨) صفحة ٤٢، بمجلة الفن الإسلامى، المجلد التاسع، سنة ١٩٤٢م.

(٢) انظر النص التاريخى المسجل على لوحة على باب المدرسة، والمنشور فى صفحة ١٨٩ من الجزء التاسع من «مرجع الكتابات العربية» تأليف (كومب) وآخرين.

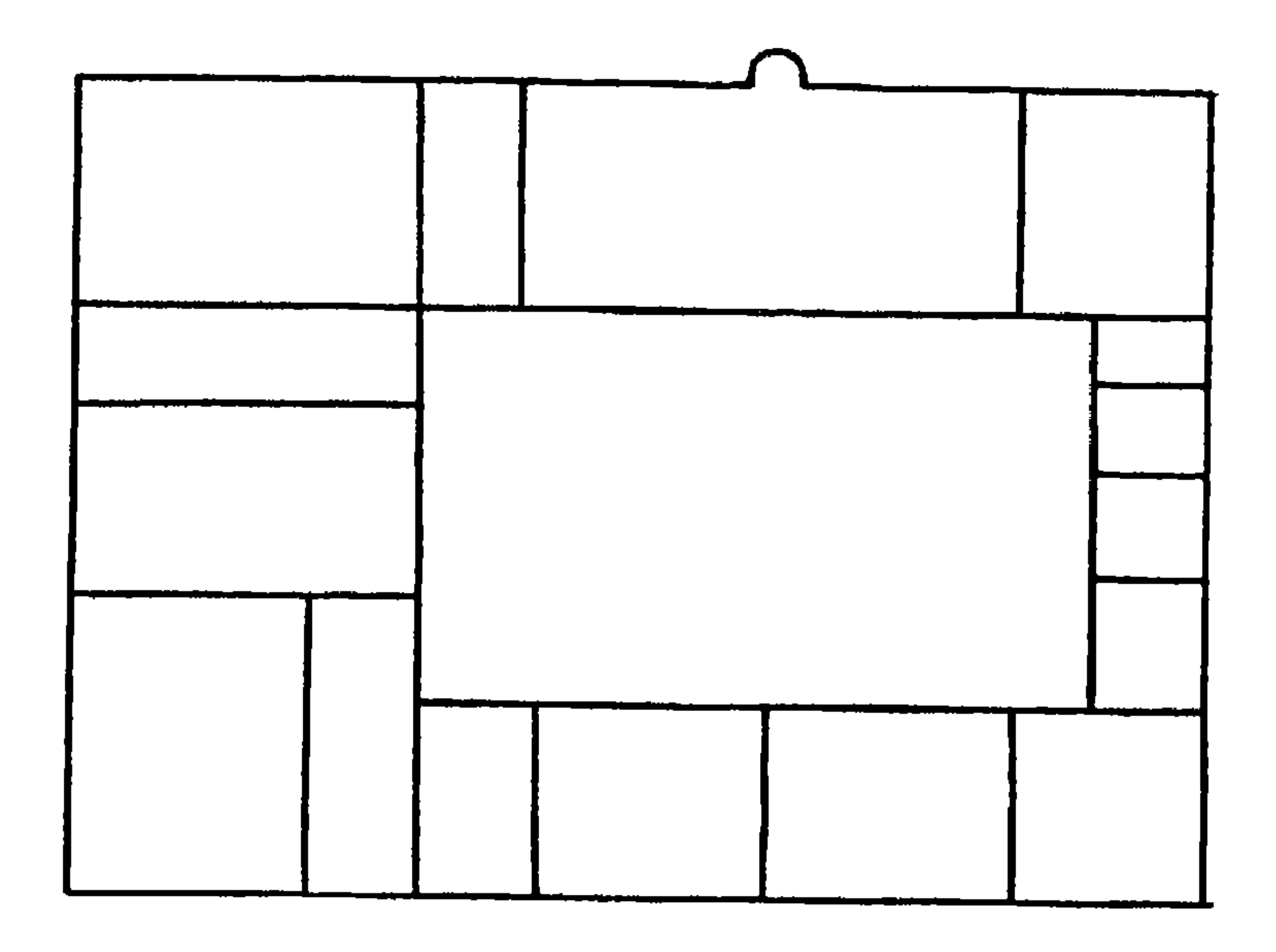
(٣) رسم (كريسويل) تخطيطًا غير كامل لهذه المدرسة أراد أن يبرز فيه أنها تحوى إيوانًا واحدًا لأنها مخصصة لمذهب واحد، انظر شكل (٥٧)، صفحة ١١١ من الجزء الثانى من كتابه المشار إليه فى حاشية سابقة.



شكل (٣٨) – رسم تخطيطى افتراضى للمدرسة البختية بحلب

ويلي هذه المدرسة تاريخًا، مما تبقى من آثار المدارس العتيقة، المدرسة الشافعية بمعرة النعمان التى أنشئت فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م، وأوقف على المذهب الشافعى[1]. وهى بناء صغير الحجم كذلك، فيه بيت للصلاة تتوسطه قبة مقامة أمام محرابه المجوف، وبه أسكوب واحد طوله عشرة أمتار وعرضه أربعة أمتار تقريبا، ويطل هذا البيت بثلاثة عقود على بهو مكشوف مستطيل، طوله ثلاثة عشر مترًا ونصف المتر، وعرضه تسعة أمتار، شكل (٣٩). وكان يحيط بالبهو من جوانبه الثلاثة الأخرى غرف من طابقين وقاعات ومنافع عامة.

(١) انظر النص التاريخى المسجل على لوحة تحت قبة بيت الصلاة، والمنشور فى صفحة ٢٢٣ من الجزء التاسع من «مرجع الكتابات العربية» تأليف (كومب) وآخرين وقد جاء فى هذا النص أن محمد بن إدريس «أنشأ هذه المدرسة المباركة والمنبر الميمون...».



شكل (٣٩) – رسم تخطيطى افتراضى لمدرسة معرة النعمان بالشام

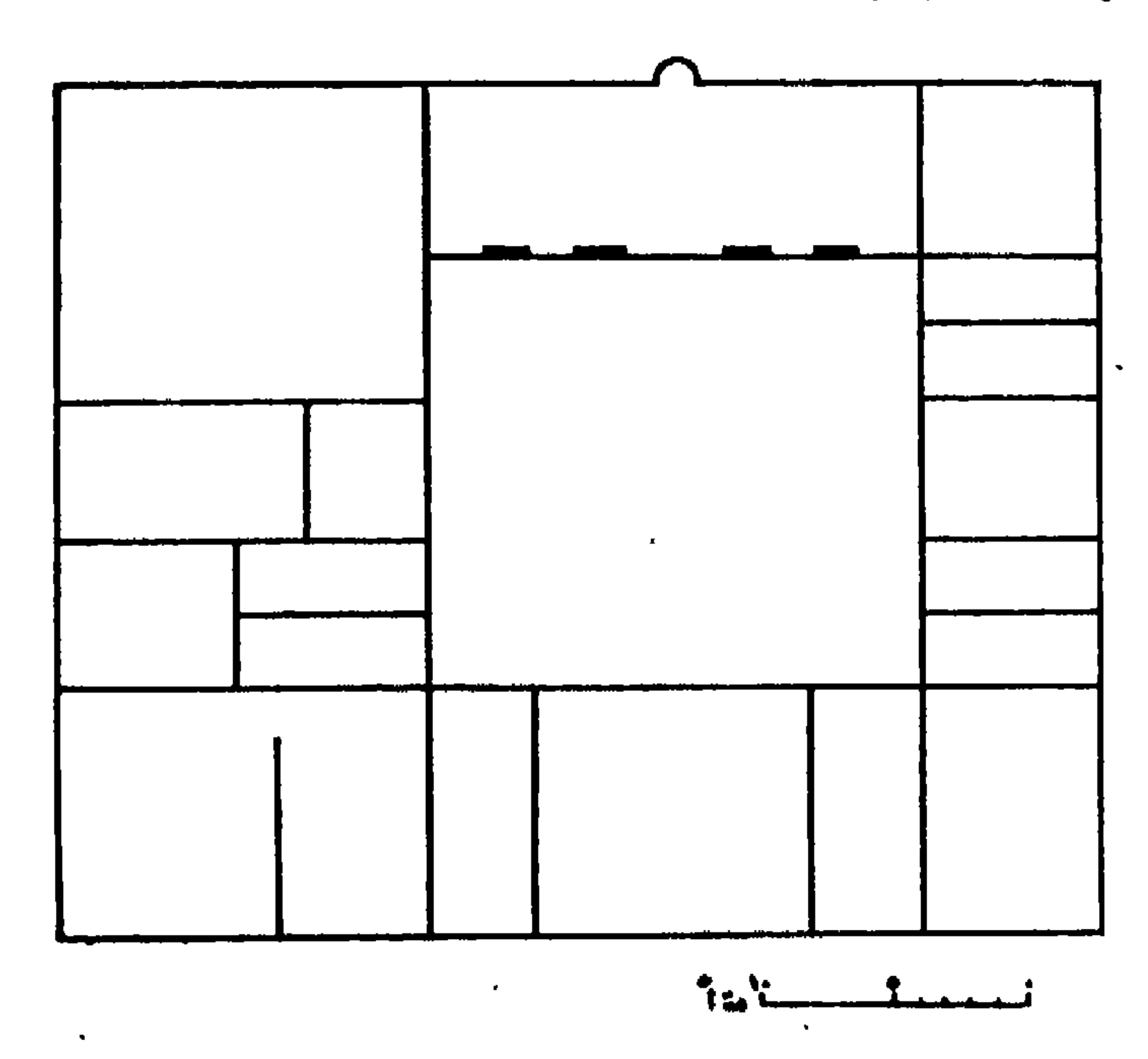
وأنشأ السلطان نور الدين زنكى مدرسة أخرى بدمشق على نمط المدرسة النورية الكبرى، هى المدرسة العادلية ولكنه توفى قبل أن يتم بناءها، فأتمها الملك المعظم عيسى فى سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، وجعل بها ضريحًا ودفن فيه أباه الملك العادل سيف الدين بن أيوب، الذى كان قد توفى فى سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م[١]. وكانت هذه المدرسة موقوفة على المذهب الشافعى[٢].

---

(١) تراجع صفحة ٣٥٩ وما يليها من كتاب «الدارس فى تاريخ المدارس» لمؤلفه النعيمى. وتوصف هذه المدرسة بالكبرى لوجود مدرسة أخرى تسمى المدرسة العادلية الصغرى كانت قائمة مقابل دار الحديث النورى. هذا ويفترض (كريسويل) فى صحفة ١١٢، شكل (٥٨) من كتابه المشار إليه أنه كان بالجانب الغربى من البهو إيوان فسيح يطل عليه بعقد فتحته ٦ أمتار ونصف المتر تقريبًا.

(٢) نشر (هرتزفلد) بحثًا عن هذه المدرسة فى الجزء التاسع من مجلة «الفن الإسلامى» (Ars Isamıca) صفحات ٤٦ إلى ٤٩. ونشر الرسم التخطيطى فى الجزء الحادى عشر من هذه المجلة، سنة ١٩٤٦م، صفحة ٢٢، وقد نقله (كريسويل) فى صفحة ١١٣ من الجزء الثانى من كتابه المشار إليه، شكل (٥٩). والمعروف أن جوانب البهو فى رسم (هرتزفلد) افتراضية لأنها تحتلها أبنية حديثة، وبالتالى فإنه ليس ما يؤكد أنه لم يكن حول البهو غير إيوان كبير واحد مفتوح فى مؤخر المدرسة مواجهًا لبيت الصلاة. ينظر كذلك صفحة ٣٥٩ من كتاب «الدارس فى تاريخ المدارس»، للنعيمى، وصفحة ٧٦ من كتاب (سوفاجيه)، «الآثار الأيوبية بدمشق».

وتتقارب مساحة هذه المدرسة من مساحة المدرسة النورية، وكذلك يتقارب نظاماهما، وإن اختلفتا تفصيلا بعض الاختلاف. وللمدرسة العادلية بيت للصلاة من أسكوب واحد، طوله ١٧ مترًا وجوفه خمسة أمتار ونصف المتر، يتوسطه محراب مجوف. ويطل هذا البيت على البهو بخمسة عقود، أوسطها أوسعها فتحة. والبهو مربع تقريبًا، طول كل ضلع من أضلاعه ١٨ مترًا. وقد أعيد بناء الجانب الغربى من البهو، واندثرت أبنية الجانب الشمالى، أى مؤخر المدرسة، وعدلت أقسام الجانب الشرقى الذى يقع الضريح جنوبيها، مجاورًا لبيت الصلاة، وأغلب الظن أنه كان يحيط بالبهو غرف للطلاب من طابقين، وقاعات مقرنصة عليه، على غرار المدرسة النورية الكبرى، شكل (٤٠).

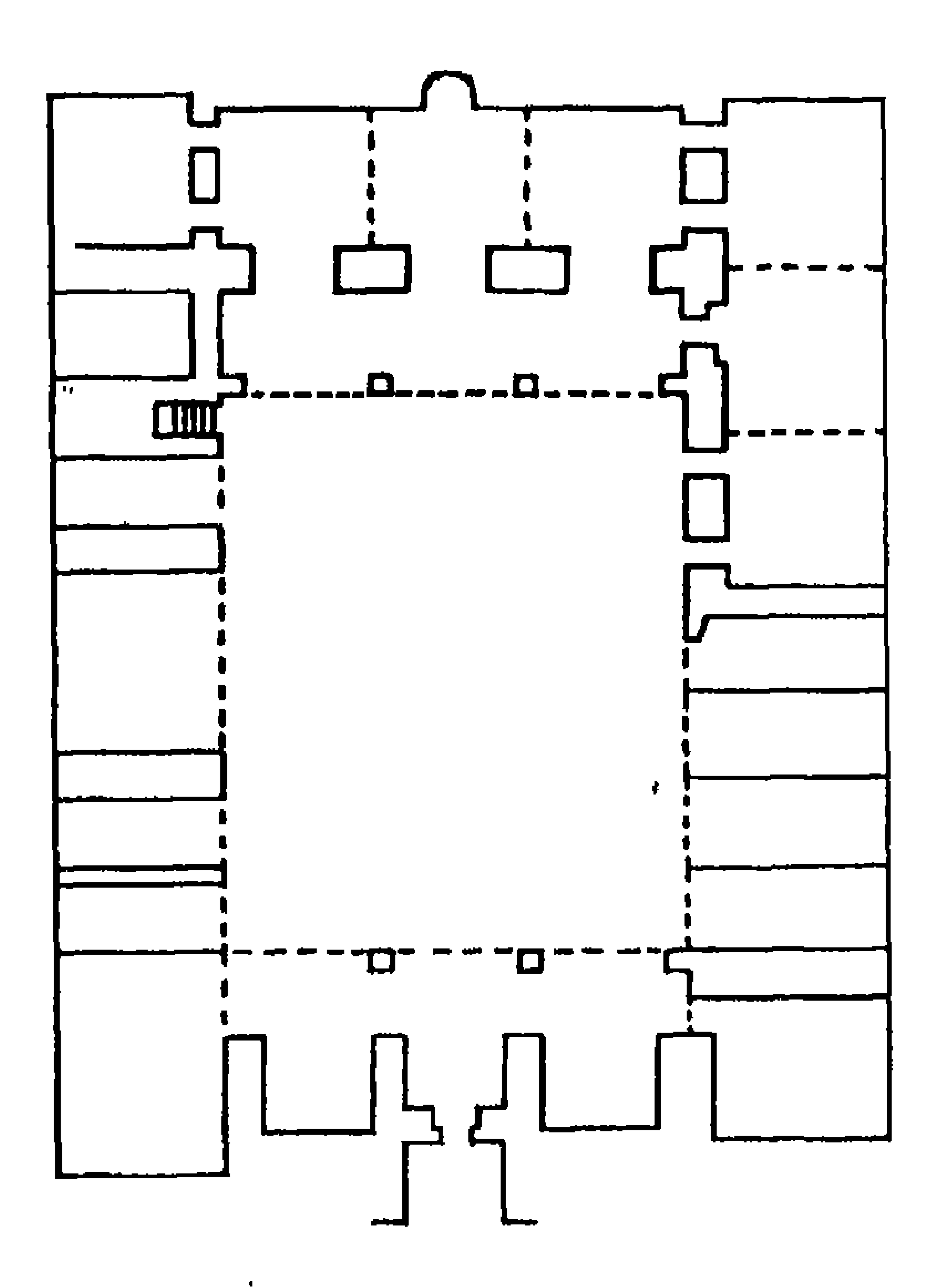


شكل (٤٠) – رسم تخطيطى افتراضى للمدرسة العادلية الكبرى بدمشق، (عن هرتزفلد)

وبنيت المدرسة الظاهرية فى حلب سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م، وأوقفت على المذهب الشافعى، شكل (٤١) [1]. وقد تهدمت أجزاء منها وتبقت أجزاء يستدل منها على أنها كانت تحتل مستطيلاً حدوده

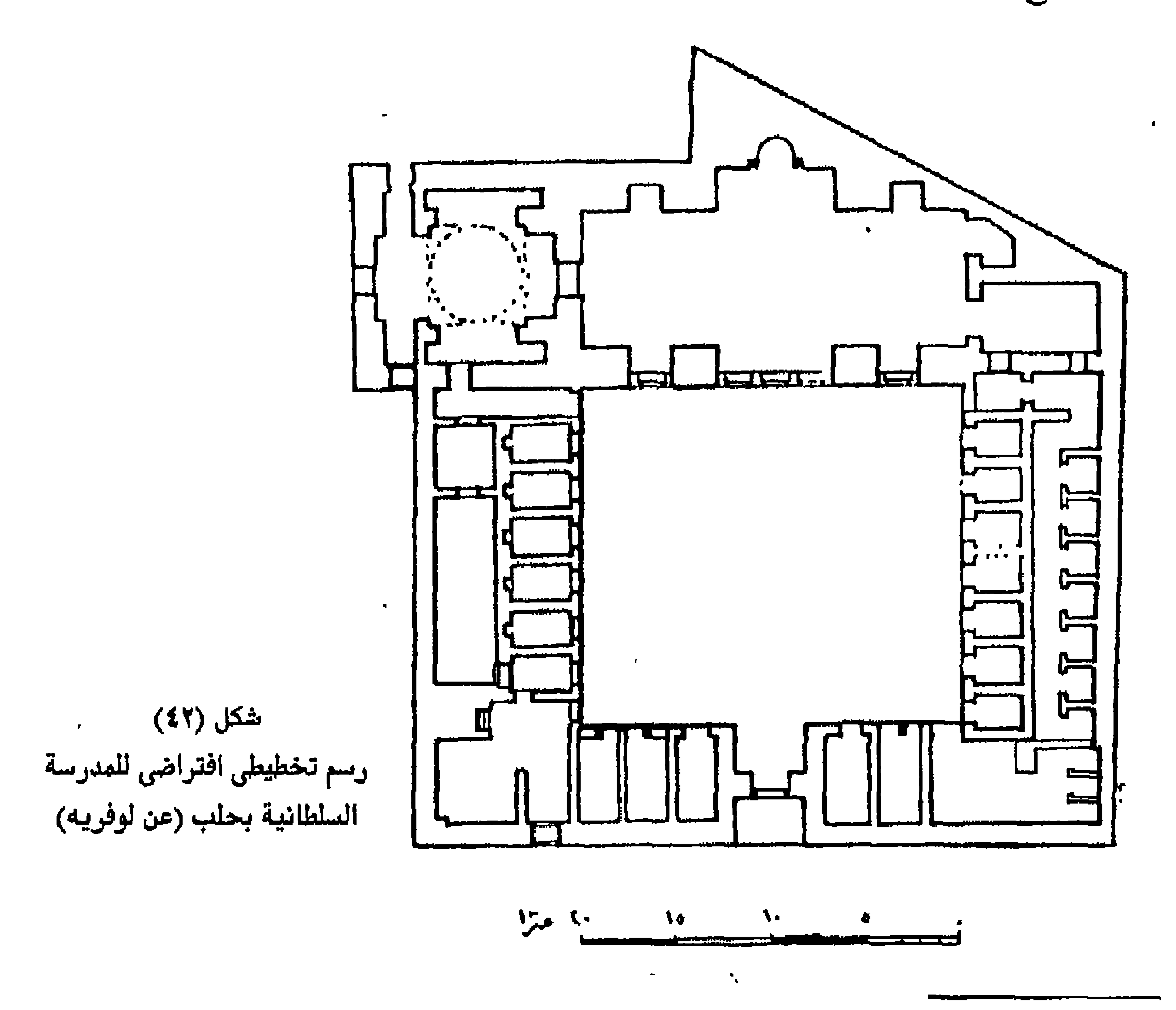
(١) انظر صفحة ١١٣ من كتاب «الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب» لمؤلفه محمد بن الشحنة (المولود حوالى سنة ٨٠٠هـ – ١٣٩٧م، نشره يوسف إلياس سركيس، بيروت ١٩٠٩م. وانظر مقال ساطع (أكرم)، «المدرسة الظاهرية فى حلب»، صفحات ٤٧ إلى ٥٤ من المجلد الخامس، جزء أول (سنة ١٩٦٥) من مجلة «الحوليات الأثرية السورية».

الخارجية ٣٨ مترًا من الشمال إلى الجنوب، و ٢٩ مترًا من الشرق إلى الغرب. وللمدرسة بيت للصلاة من أسكوب واحد طول جدار القبلة فيه ١٥ مترًا وجوفه ٤ أمتار ونصف المتر. وهو يتصل بمجنبة له على البهو طولها مثل طوله وعرضها ثلاثة أمتار، وهى تطل على البهو بعقود ثلاثة تقابل العقود الثلاثة المفتوحة بين رواقها وبين بيت الصلاة. ويتصل هذا البيت عن كل من جانبيه الشرقى والغربى بقاعة مربعة تقريبًا، ضلعها خمسة أمتار. وكانت كل من هاتين القاعتين تضم ضريحًا، أو كانت إحداهما تتخذ قاعة لشيخ المدرسة والأخرى تضم ضريحًا. وللمدرسة بهو فسيح طوله ١٨ مترًا وعرضه ١٥. وكانت تحيط به على كل من جانبيه الشرقى والغربى غرف للطلاب وقاعات، إحداها، فى الجانب الشرقى، على هيئة إيوان مفتوح على البهو. أما مؤخر المدرسة فكان يتوسطه المدخل، وتتقدمه سقيفة شبيهة بمجنبة بيت الصلاة، كما كان يضم على جانبى هذا المدخل غرفًا صغيرة أخرى وقاعات.



شكل (٤١) – رسم تخطيطى افتراضى للمدرسة الظاهرية بحلب

وانتهى من بناء المدرسة السلطانية فى حلب فى سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م، وكانت موقوفة على المذهبين الشافعى والحنفى[١]. وقد تهدمت معظم أجزائها، فيما عدا بيت الصلاة والضريح. ولكنه أجريت حديثا فى موقعها حفائر يمكن الاستدلال من نتائجها على نظامها القديم، شكل (٤٢)[٢]. وكانت المدرسة تحتل شبه مربع طول ضلعه الخارجى ٣٥ مترًا تقريبًا، وكان يتوسطها بهـو فسيح مستطيل طولـه ٢٠ مترًا وعرضه ١٧. وكان يتقدمها بيت للصلاة من أسكوب واحد



شكل (٤٢)
رسم تخطيطى افتراضى للمدرسة السلطانية بحلب (عن لوفريه)

(١) انظر النص التاريخى كاملا فى صفحتى ٢٠٠ أو ٢٠١ من الجزء العاشر من «مرجع الكتابات العربية» تأليف (كومب) وآخرين. هذا وقد سميت المدرسة فى هذا المرجع بالمدرسة الظاهرية وهى مشهورة باسم المدرسة السلطانية، وينظر ما بعده، صفحة ١٦١.

(٢) انظر صفحة ١١٦، شكل (٦٥) من الجزء الثانى من كتاب (كريسويل) «العمارة الإسلامية فى مصر»، وخاصة صفحات ٤٩ إلى ٦٦ من مقال (لوفريه): «المدرسة السلطانية بحلب» فى الجزء الثالث من مجلة «الحوليات الأثرية السورية».

J. LAUFFRAY: *Une Madrasah Ayyoubide de la Syrie du Nord, La Sultaniya d'Alep, Etude Architec-.turale, Annales Archéologiques de Syrie*. Tome III, 1953

طول جدار القبلة فيه ٢٠ مترًا وجوفه ٧ أمتار. وكان هذا البيت يطل على البهو بثلاثة عقود أوسطها كبير تمتد فتحته ٦ أمتار، ويحف به من كل جانب عقد صغير فتحته متران. وكان بالركن الجنوبي الشرقي ضريح ملاصق لبيت الصلاة، وكان يحف بالبهو غرف صغيرة للفقهاء. ولم تكن بالمدرسة قاعات فسيحة أو إيوانات مفتوحة على البهو، وكان المدخل يتوسط مؤخرها، وكانت تحف به من الجانبين غرف صغيرة كذلك[1].

وأقيمت في بغداد المدرسة الشرابية أو الإقبالية، وتكامل بناؤها في سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م[2]. وهي تحتل شبه مربع، طول حدوده الخارجية ٤٨ مترًا وعرضها يقرب من ذلك. ويتوسط البناء بهو شبه مربع كذلك طوله ٢١ مترًا ونصف المتر، وعرضه ٢٠ مترًا. ويتصدر هذا البهو بيت للصلاة من أسكوب واحد طول جدار القبلة فيه نحو ١٣ مترًا وجوفه أربعة أمتار ونصف المتر. ويحيط بالبهو رواق مسقوف من جهاته الشرقية والغربية والشمالية، يطل عليه من كل من الجانبين الشرقي والغربي صف من سبع غرف، حجم الواحدة منها يقرب من مترين ونصف المتر عرضًا وأربعة أمتار طولاً. ويتوسط الجانب الشمالي، مقابل بيت الصلاة، مؤخر على هيئة إيوان مفتوح على الرواق والبهو، تبلغ فتحة عقده خمسة أمتار، ويبلغ جوفه ستة أمتار تقريبًا. وأقيمت في أركان البناء وخلف الغرف الشرقية، قاعات ومنافع عامة تتراوح مساحاتها بين ٤ أمتار و٦ أمتار عرضًا، و٥ أمتار و٩ أمتار طولاً، شكل (٤٣). وللمدرسة طابق ثان تمتد على جوانبه الشمالية والشرقية والغربية غرف صغيرة شبيهة بغرف الطابق الأرضي.

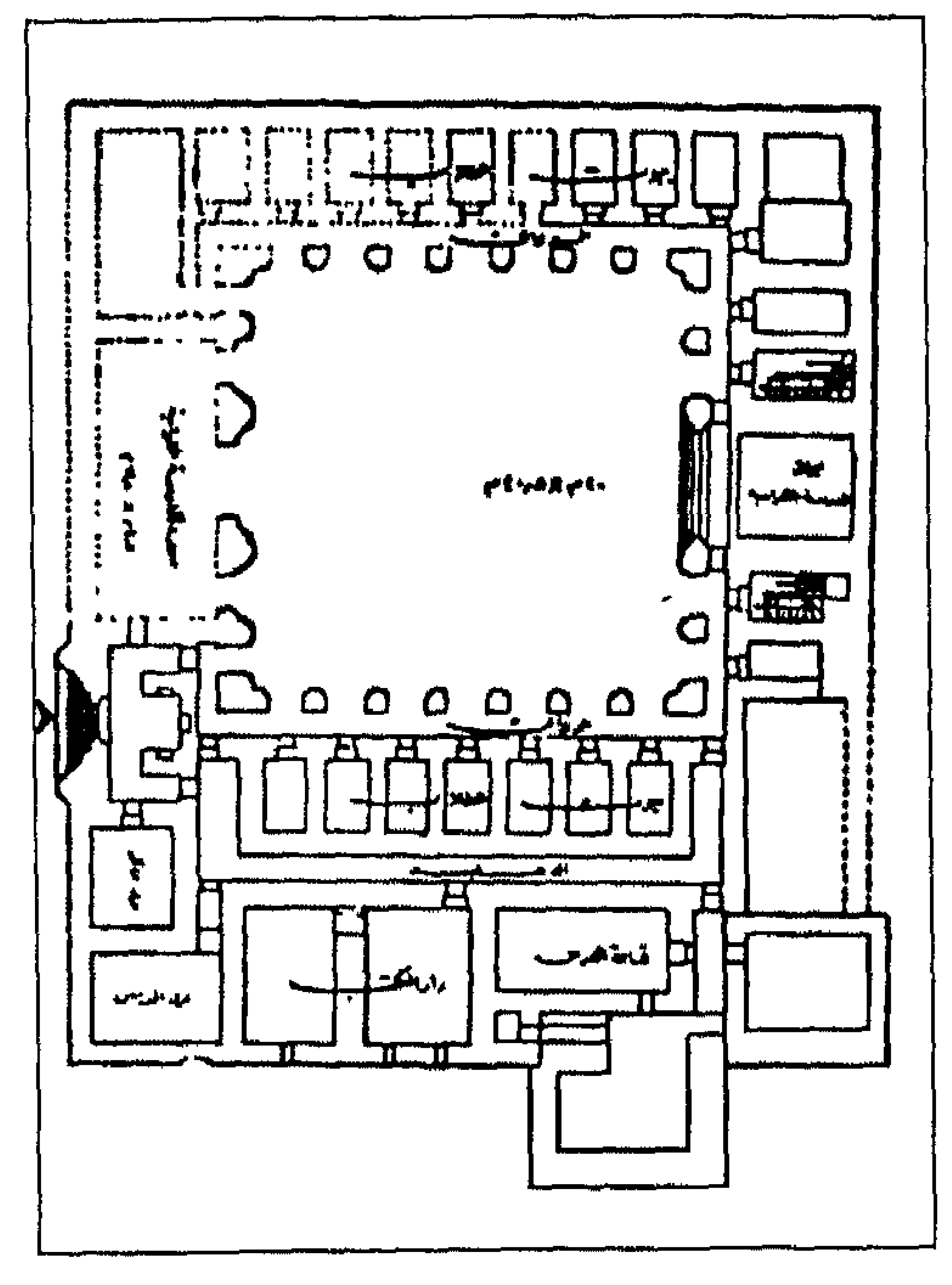
وكانت المدرسة المستنصرية تبنى ببغداد عند افتتاح المدرسة الشرابية، إذ بدأ العمل فيها سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م وكمل في سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م. وكانت المدرسة المستنصرية أول مدرسة في العالم الإسلامي تخصص للمذاهب الأربعة، وهي بالنسبة للمدارس التي أقيمت حتى نهاية العصر الذي نؤرخ له، أكبرها حجمًا، وأكثرها احتفاظا بعناصرها التخطيطية والمعمارية، وأجلها مظهرًا وبنيانًا، وقد أقيمت هذه المدرسة على مساحة كبيرة طولها ١٠٥ أمتار، وعرضها يتراوح بين ٤٨

---

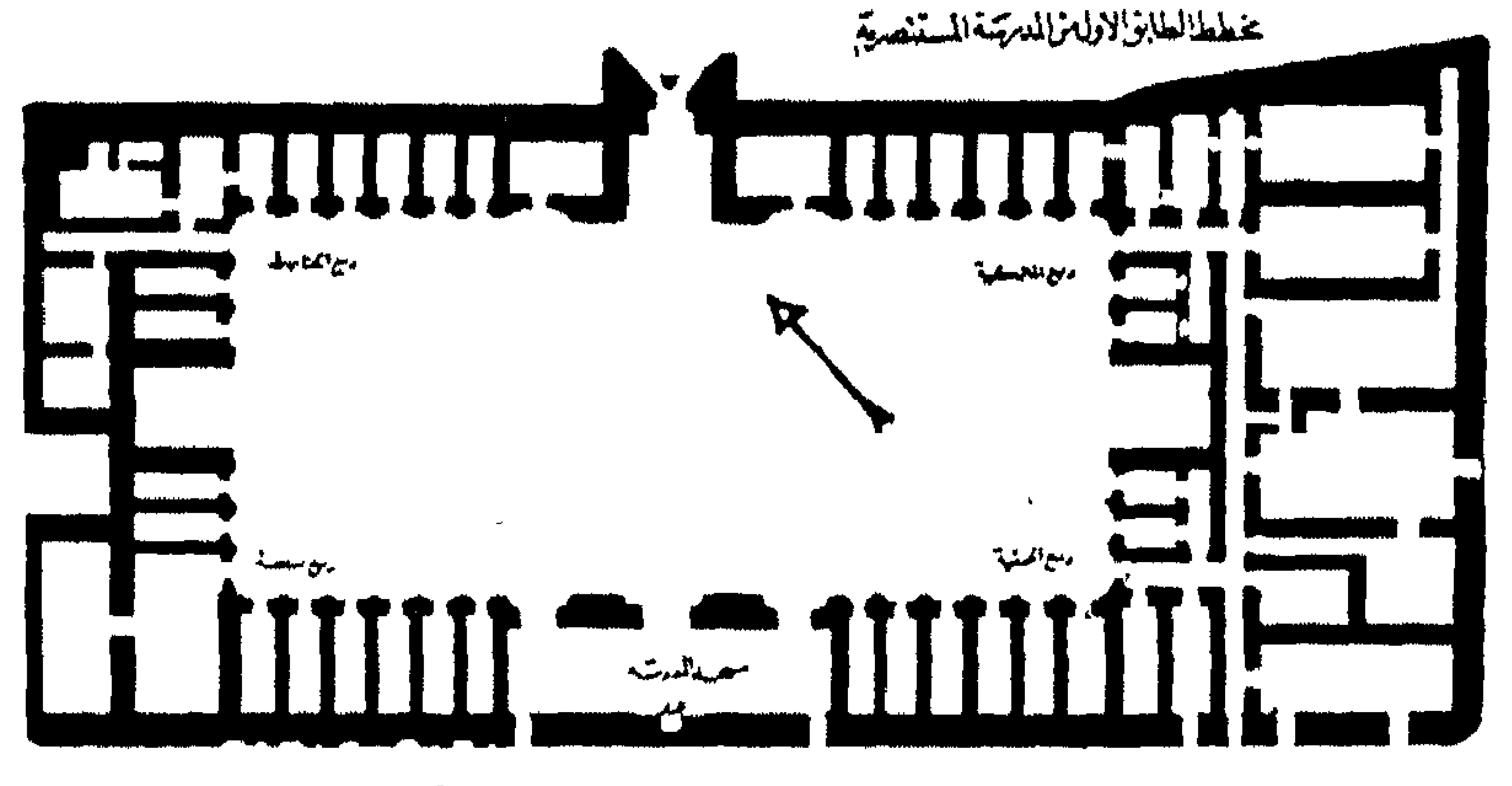
(١) يفترض (كريسويل) في المرجع المشار إليه في الحاشية السابقة أنه كان بالمدرسة إيوانان، استنتاجًا من أنها كانت مخصصة لمذهبين، غير أن الحفائر التي أجريت حديثًا بالمدرسة قد أثبتت عدم وجود آثار لإيوانات حول البهو. وقد نشر (لوفريه) في المقال المشار إليه في الحاشية السابقة نتائج هذه الحفائر.

(٢) انظر صفحة ١٥٩ و ١٦٠ من كتاب النعيمي (الدارس في تاريخ المدارس). وكان بناء هذه المدرسة معروفًا (بالقصر العباسي). وقد أثبت الأستاذ (ناجي) معروف في كتابه (المدارس الشرابية)، بغداد، ١٩٦٦م، صفحات ١٣٣ إلى ١٤٢، أن هذه التسمية خاطئة، وأن البناء يخصص بالمدرسة الإقبالية أو الشرابية نفسها. وإني أؤيد النتائج التي انتهى إليها بحث الأستاذ ناجي معروف، إذ أن نظام هذا البناء لا يصلح لغير الغرض الذي يستهدف من بناء المدارس. ومما يؤكد ذلك أن بيوت المدرسة، أي غرفها، تتسع تمامًا لعدد الفقهاء الذين كانوا يسكنونها وهو ٢٥، بالإضافة إلى بضعة من المدرسين والمعيدين.

جنوبا و٤٤ شمالا، شكل (٤٤). ويتصدّر المدرسة بيت للصلاة من أسكوب واحد طول جدار القبلة

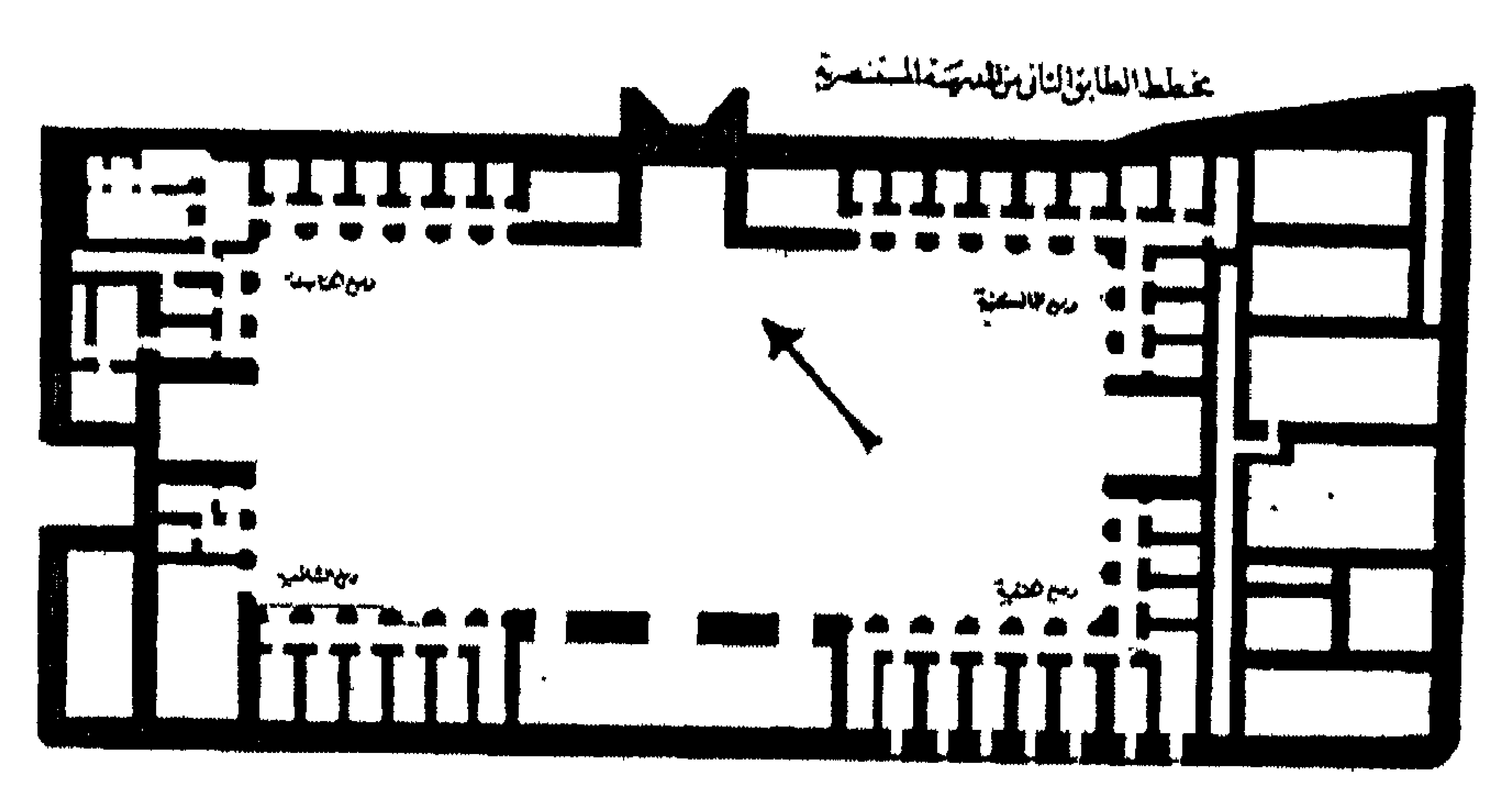


شكل (٤٣) – رسم تخطيطي للمدرسة الشرابية، (القصر العباسي)، ببغداد، (عن ناجي معروف)



شكل (٤٤) – رسم تخطيطي للمدرسة المستنصرية ببغداد، الطابق الأرضي، (عن ناجي معروف)

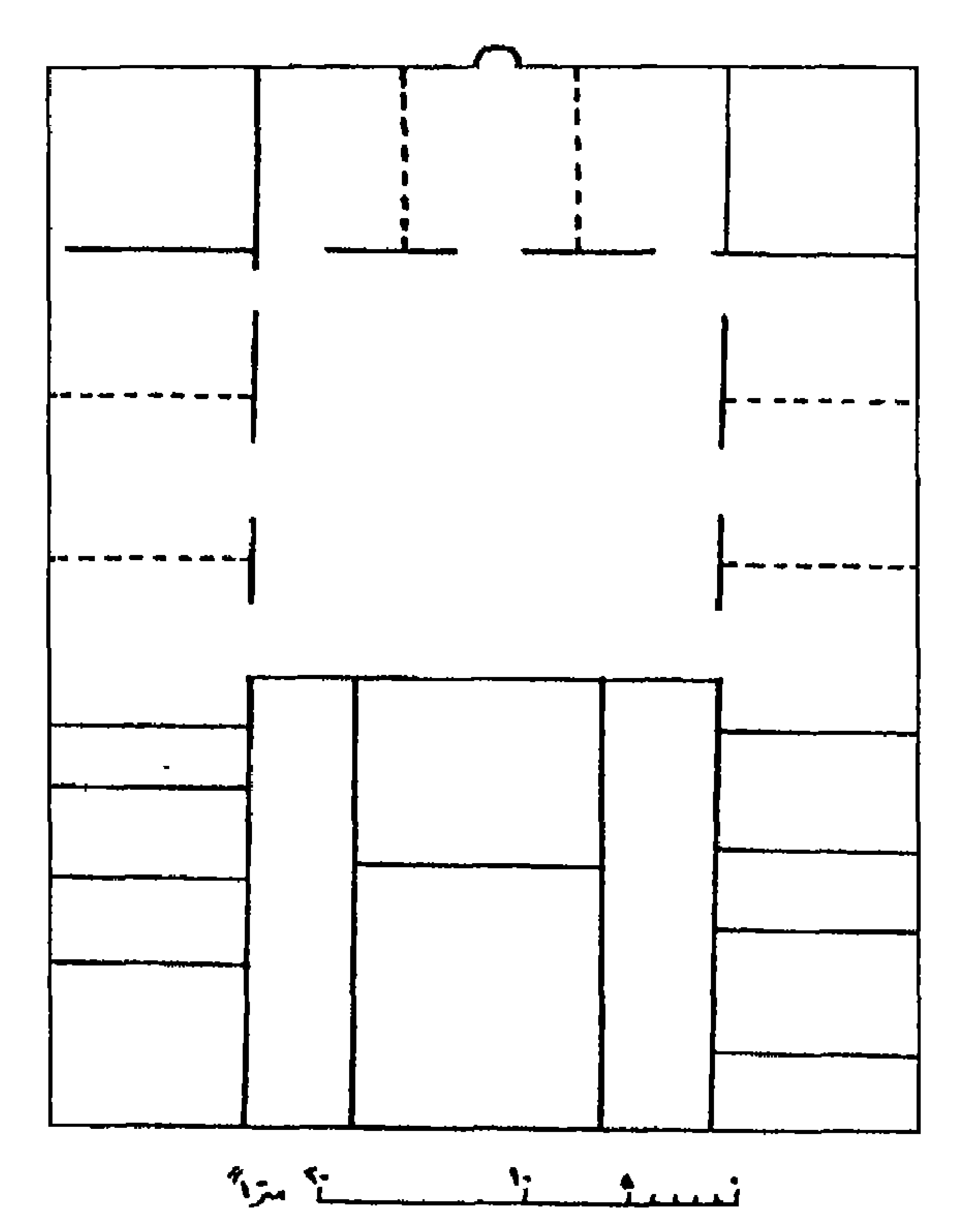
فيه يزيد على ٢٣ مترًا، ويزيد على ٢٣ مترًا، ويزيد طول جوفه على ستة أمتار، وهو يطل على البهو بعقود ثلاثة، أوسطها أوسعها، والبهو مكشوف مستطيل فسيح، طوله ٦٢ مترًا ونصف المتر، وعرضه ٢٧ مترًا ونصف المتر، ويحيط به من جوانبه الأربعة غرف صغيرة من طابقين، يبلغ عددها في الطابق الأول ٣٧ غرفة،، تتراوح مساحاتها بين ٧ أمتار و٤ أمتار ونصف المتر طولا، ويقترب عرض كل منها من متر ونصف المتر، ويبلغ عددها فيما تبقى من الطابق الثانى ٣٧ غرفة كذلك، ولكنها أقل مساحة وحجمًا من غرف الطابق الأرضى، شكل (٤٥) [1]. ويتوسط الغرف الأرضية المسجد الجامع، شكل ٤٥ فى الجانب الجنوبى، وإيوان، فى كل من الجانبين الشرقي والغربى، ومدخل المدرسة، فى الجانب الشمالى. وتبلغ مساحة كل من هذين الإيوانين ٨ أمتار طولاً و٦ أمتار عرضًا. أما المدخل فيحف به عن كل من جانبيه قاعة طولها ٧ أمتار وعرضها ٤ أمتار، مفتوحة كل منهما بباب صغير على البهو. ونظمت المنافع العامة فى الركن الشمالى الشرقى من البناء، واحتلت قاعتان كبيرتان الركن الجنوبى الشرقى، وهما يجاوران إيوان دار القرآن التى كانت مقامة خارج البناء، فى الجهة الشرقية، وهذا هو السبب فى أن هذا الإيوان مفتوح على الخارج ولا يتصل بمنفذ إلى المدرسة. أما الجهة الغربية فقد نظمت بها سبع قاعات كبرى فتحت أبوابها على ممر طويل يفضى إليه ممران صغيران مفتوحان فى طرفى الجانب الغربى من البهو، شكل (٤٤).



شكل (٤٥) – قطاع أفقى للطابق الثانى من المدرسة المستنصرية ببغداد (عن ناجى معروف)

(١) كان عدد الغرف أكثر من ذلك. انظر صفحة ١٤٤ وما يليها فيما بعد، وفيها بيان بالمراجع الهامة لهذه المدرسة.

وأخيرًا تبقت فى حلب آثار من مدرســة الفردوس التى بنيت فى ســنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م[١]، أى قبل بداية العمل فى بناء المدارس الصالحية بالقاهرة بســت ســنوات، وهى أكبر المدارس الباقية فى الشام حجمًا، من العصر الذى نؤرخ له. وكانت المدرسة مخصصة فيما يقال للمذهب الشافعى[٢]. وهى تحتل مســتطيلات تمتد حدوده الخارجية ٤٤ مترًا من الشـرق إلى الغرب، و ٥٦ مترًا من الشمال إلى الجنوب. ويتصدرها بيت للصلاة من أســكوب واحد، طول جــدار القبلة فيه ٢٥ مترًا، ويزيد جوفه على ٧ أمتار طولاً، ويحف من كل جانبيه قاعة مربعة، كانت كل منهما تضم ضريحًا. وكان للمدرسة بهــو مربــع طول كل ضلع من أضلاعه ٢١ مــترًا، فتحت ثلاثة أبواب فســيحة فى كل من جوانبه الشرقية والغربية والجنوبيــة (شكل ٤٦). وتؤدى هذه الأبواب إلى بيت الصلاة فى الجانب الجنوبى،



شكل (٤٦) – رسم تخطيطى بيانى لمدرسة الفردوس بحلب

(١) سجل تاريخ البناء فى موضعين من المدرسة ونشر النصان فى صفحات ٥٦ إلى ٥٨ من الجزء الحادى عشر من (مرجع الكتابات العربية) المشار إليه فى حواش سابقة. وجاء ذكر هذه المدرسة فى صفحة ١١٣ من (الدر المنتخب) لابن الشحنة.

(٢) انظر صفحة ١١٣ من (الدر المنتخب) لابن الشحنة.

وفى كل من الجانبين الشرقى والغربى، إلى قاعة متسعة مستطيلة طولها ٢١ مترًا، وعرضها يعادل عرض بيت الصلاة. أما فى الجانب الشمالى من البهو، أى فى المؤخر، فقد أقيم إيوان طوله ١٩ مترًا وعرضه ٩ أمتار، وقد ألصق بجداره الشمالى إيوان آخر مفتوح على الشارع الخلفى للمدرسة، طوله ١٢ مترًا وعرضه مثل عرض الإيوان الداخلى. وكان يحف بهذين الإيوانين ممر من كل جانب، ويؤديان إلى غرف وقاعات ومنافع، نظمت فى ركنى بناء المدرسة الشمالى الشرقى والشمالى الغربى[1].



الصفات المشتركة لأنظمة المدارس المعروفة حتى سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م

استعرضنا فيما سبق أنظمة المدارس التى يمكن الاستدلال عليها من آثار ثلاث عشرة مدرسة، هى كل ما تبقى من آثار المدارس التى بنيت فى البلاد الإسلامية قبل نهاية العصر الذى نؤرخ له، وذلك بالإضافة إلى المدرستين الكاملية والصالحية المتخلفتين من مدارس مصر والقاهرة. ونستخلص من مقارنة أنظمة هذه المدارس أنها تشترك فى صفات تتكون من أربعة عناصر رئيسية.

وأول ما يتضح لنا من هذا الاستعراض أن جدار القبلة هو العامل الرئيسى فى تخطيط هذه المدارس جميعًا، وأن حدودها الداخلية تنتظم فى مستطيل أو مربع قائم على خط هذا الجدار. ويتضح تبعًا لذلك، أن بكل من هذه المدارس بيتًا للصلاة، وأن هذا البيت يتصدر بناءها، وأنه أكثر قاعاتها أهمية واتساعًا[2]، وهذا هو العنصر الرئيسى المشترك الأول. وإذا كان هذا

(١) تبقت كذلك آثار من المدرسة الشرقية فى حلب، غير أنه لا يمكن الاستدلال منها على نظام المدرسة القديم، كما أن تاريخها غير محدد. وأغلب الظن أنها بنيت بعد بناء المدارس الصالحية، أو فى تاريخ متقارب منها. وعلى كل حال فإن نظامها لا يمكن أن يختلف عن نظم المدارس الشامية التى استعرضناها. ينظر الرسم التخطيطى للآثار المتخلفة من هذه المدرسة فى صفحة ١١٨ من الجزء الثانى من كتاب (كريسويل). (العمارة الإسلامية فى مصر).

(٢) تبلغ مساحة بيت الصلاة فى مدرسة بصرى أكثر من ٤٧ مترًا مربعًا، وتبلغ مساحة أكبر قاعة فيها حوالى ٣٠ مترًا مربعًا. وتبلغ مساحة بيت الصلاة فى مدرسة الأربعين ١٦٠ مترًا مربعًا ومساحة أكبر قاعة فيها ٦٥. وفى دار الحديث النورى يغطى بيت الصلاة ٥٦ مترًا مربعًا، ولا تتعدى مساحة أكبر قاعة ٢١ مترًا مربعًا. وتعادل مساحة بيت الصلاة فى مدرسة خان آتون مساحة بيت الصلاة فى دار الحديث النورى، وتبلغ مساحة أكبر قاعة فى المدرسة ٢١ مترًا مربعًا كذلك. أما المدرسة النورية فإن مساحة بيت الصلاة فيها ١٠٠ متر مربع، ومساحة أكبر قاعة مغطاة ٤٠ مترًا مربعًا. ومساحة بيت الصلاة فى المدرسة البختية ٣٢ مترًا مربعًا، وأكبر قاعة فيها ٢٢. وفى المدرسة الشافعية بمعرة النعمان تبلغ مساحة بيت الصلاة ٥٠ مترًا مربعًا، وهى ضعف مساحة أكبر قاعة فيها. وفى المدرسة العادلية بدمشق تبلغ مساحة بيت الصلاة، وهى ٩٣ مترا مربعا، ثلاثة أضعاف تقريبا مساحة أكبر قاعة فيها. وفى المدرسة الظاهرية بحلب تبلغ مساحة بيت الصلاة ما يقرب من ٧٠ مترًا

العنصر يبدو واضحًا من الرسوم التخطيطية لهذه المدارس، فإن أهمية بيت الصلاة بالنسبة لأجزاء المدرسة الأخرى، كانت تبدو أكثر وضوحًا للداخل إليها والواقف فى بهوها. ولنضرب مثلا بالمدرسة المستنصرية، فإن الداخل إليها يقابل بيت الصلاة فيها أول ما يقابل، ويجتذب مظهر هذا البيت أول نظرة يلقيها العابر من بوابة المدرسة إلى البهو. ثم إن مساحة هذا البيت، التى تبلغ ١٤٠ مترًا مربعًا، تفوق بكثير مساحة أى قاعة من قاعات المدرسة التى تقرب أكبرها مساحة من ١٠٠ متر مربع. وتزيد مساحة هذا البيت على ثلاثة أضعاف مساحة كل من الإيوانين المطلين على الصحنين فى جانبيه الشرقى والغربى، وتزيد على خمسة أضعاف مساحة كل من القاعتين المجاورتين للمدخل[1].

ويلاحظ فى بيوت صلاة هذه المدارس أنه قد روعى فى تخطيطها أن تمتد فى موازاة جدار القبلة أكثر من امتدادها فى اتجاهه، وذلك باستثناء مدرسة بصرى[2]. والجديد فى نظام هذه البيوت أنها أولا، صغيرة الحجم، نسبيًا، وأنها ثانيًا، لا تنقسم إلى أساكيب وبلاطات ومربعات، بل يتكون داخلها من فسحة واحدة. أما صغر حجمها، فإنه لا يمنع اتساع كل بيت من هذه البيوت ليستوعب عدد المقيمين داخل جدران المدرسة. ولنضرب مثلا كذلك بالمدرسة المستنصرية، وهى التى نعرف جملة عدد سكانها وهو يناهز الثلاثمائة[3]، فإن بيت الصلاة فيها يمكن أن يستوعب هذا العدد، وإذا أضفنا إلى ذلك أن البهو والإيوانين كانت تستخدم للصلاة فى يوم الجمعة، اتضح لنا أن هذه المدرسة كانت لها صفة المسجد الجامع، وأن بيت الصلاة منه فيها كان بمثابة «المقدم» أو «المغطى». والأمر كذلك بالنسبة لجميع المدارس التى أشرنا إليها من قبل. وأما أن بيوت الصلاة فى هذه المدارس غير مقسمة إلى أساكيب وبلاطات، فهذا يرجع إلى انعدام الأعمدة فيها، واستبدال القبوات بالسقف المسطحة الخشبية، وقد أوضحنا هذه الظاهرة فيما سبق[4].

مربعًا، وذلك بالإضافة إلى مجنبته على الصحن التى تبلغ مساحتها ٤٥ مترًا مربعًا، وتبلغ مساحة أكبر قاعة فى المدرسة ٤٠ مترًا مربعًا. ولا تزيد ماسحة أكبر قاعة فى المدرسة السلطانية بحلب على ٣٠ مترًا مربعًا، فى حين تزيد مساحة بيت الصلاة فيها على ١٤٠. وتبلغ مساحة بيت الصلاة فى المدرسة الشرابية ٥٨ مترًا مربعًا، ولا تزيد مساحة أكبر قاعة فيها على ٣٥. ولا تشذ عن هذه القاعدة غير مدرسة الفردوس، فإن مساحة بيت الصلاة فيها، وقدرها ١٧٥ مترًا مربعًا، تعادل مساحة كل من القاعتين الواقعتين على الجانبى الشرقى والغربى للبهو، ومع ذلك فإن أهمية بيت الصلاة، بالنسبة لهاتين القاعتين، تبدو واضحة على الرسم التخطيطى، وكانت تبدو أكثر وضوحًا فى عمارة البناء نفسه قبل تهدم أجزاء منه.

(١) انظر صفحة ١١١ فيما سبق وصفحة ١٤٤ وما يليها فيما بعد، ويراجع الرسم التخطيطى للمدرسة شكل (٤٤). هذا وتبلغ مساحة كل من الإيوانين ٤٢ مترًا تقريبًا، ومساحة كل من القاعتين المجاورتين للمدخل ٢٦ مترًا مربعًا، ومتوسط مساحة القاعات الكبرى فى المدرسة ٧٠ مترًا مربعًا، أى نصف مساحة بيت الصلاة.

(٢) هذا إن افترضنا صحة الرسم التخطيطى لما تبقى من اطلال هذه المدرسة، وقد سبق أن ذكرنا أن معظم آثار هذه المدرسة قد اندثر، تنظر صفحة ٩٦ فيما سبق، ويراجع ما كتبه (كريسويل) عنها فى صفحة ١٢١ من الجزء الثانى من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٣) انظر صفحة ٥٦ من الجزء الأول من «تاريخ علماء المستنصرية» لمؤلفه (ناجى) معروف، مطبعة العانى، بغداد ١٩٦٥م.

(٤) انظر فيما سبق صفحة ٨٥ وما يليها

وكانت أهمية بيوت الصلاة فى المدارس، كما ذكرنا، هى العنصر الرئيسى الأول المشترك. أما العنصر الرئيسى الثانى فهو البهو، إذ يلاحظ فى هذه المدارس جميعًا أن بكل منها بهوًا مكشوفًا فسيحًا، مربعًا أو مستطيلاً، أو قريبًا من ذلك. وتبلغ فسحة هذا البهو فى كل من مدرستى الأربعين والنورية نصف مساحة المدرسة كلها، إذا اعتبرت حدودها الخارجية، وهى فى كل من مدرستى السلطانية والمستنصرية تزيد على ثلث المساحة الكلية للمدرسة، وهى فى كل من البُختية والشافعية بمعرة النعمان والعادلية والظاهرية ربع المساحة، وفى دار الحديث النورى ومدارس خان آتون والشرابية والفردوس خمس المساحة. أما فى مدرسة بُصرى، وهى التى نشك فى صحة الرسم التخطيطى الموضوع لنظامها القديم، فإن مساحة البهو لا تبلغ مثل الفسحة التى تبلغها فى غيرها من المدارس ولا تتعدى سبع المساحة الكلية للمدرسة[1].

ويلاحظ ثالثًا أن جميع هذه المدارس تحوى بيوتًا للطلاب من غرف صغيرة حجمًا، بعضها من طابق واحد، ومعظمها من طابقين[2]، وهذا هو العنصر الرئيسى الثالث المشترك. وعدد هذه الغرف يتفاوت من مدرسة لأخرى، ولكنه يتناسب مع حجمها ومع سعة بهوها وبيت صلاتها. وبالإضافة إلى هذه الغرف، فقد نظمت فى كل مدرسة قاعات فسيحة تتناسب مساحاتها مع الغرض التى أعدت له، كخزانات للكتب، أو قاعات لتذكير الدروس وتناول الطعام وجلوس المدرسين والنظار والمشرفين والكتبة. وتضم كل مدرسة من هذه المدارس مبانى، داخل حدودها، وفى جانب من جوانبها أو ركن من أركانها تصلح لمطبخ ومخبز وحمام وغير ذلك من المنافع العامة.

ويلاحظ أخيرًا أن معظم هذه المدارس تضم ضريحًا أو أكثر، وأن موضع هذا الضريح وبناءه لا يقتطع جزءًا هامًا من بناء المدرسة، وإنما روعى أن ينحصر فى ركن من الأركان، وأن يحتل من البناء قدر ما تحتله قاعة من قاعات المدرسة، أو موضع من مواضع منافعها العامة، وأصبحت هذه الظاهرة متبعة فيما بعد، وفى جميع البلاد الإسلامية، حتى ما كادت تبنى مدرسة إلا وأعد فيها مكان ضريح لمنشئها أو لأحد أفراد أسرته. وهذا هو العنصر الرئيسى الرابع من العناصر المشتركة لأنظمة المدارس.

---

(١) تبلغ مساحة البهو التقريبية فى مدرسة الأربعين ١١١ أمتار مربعة، وفى دار الحديث النورى ٤٩، وفى خان آتون ٢١٦، وفى المدرسة النورية ٣٤٠، وفى البختية ٨٠، وفى معرة النعمان ١٢١، وفى العادلية ٣٠٠، وفى الظاهرية ٢٧٠، وفى السلطانية ٣٤٠، وفى الشرابية ٤٣٠، وفى المستنصرية ١٧٢٠، وفى مدرسة الفردوس ٤٤٠، وتبلغ المساحة التقريبية الكلية لمدرسة الأربعين ٢٢٣٥ مترًا مربعًا، ولدار الحديث النورى ٢٥٦، ولخان آتون ١٠٧٠، وللنورية ٧٣٠، وللبختية ٣٦٠، ولمعرة النعمان ٤١٤، وللعادلية ١٢٠٠، وللظاهرية ١١٠٠، وللسلطانية ١١٢٥، وللشرابية ٢٣٠٠، وللمستنصرية ٤٨٥٠، ولمدرسة الفردوس ٢٤٦٥. أما المساحة المفترضة لمدرسة بصرى فهى ٢٣٠ مترًا مربعًا، وقد جعل البهو يحتل منها ٣٥ مترًا مربعًا تقريبًا.

(٢) افترض الدكتور عبد العزيز حميد فى صفحة ١٢٣ من مقاله المشار إليه فى حاشية سابقة، أن بعض المدارس لم يكن يحتوى بيوتا للطلاب، وذكر تأييدًا لهذا الرأى ثلاثة أمثلة هى، مدرسة بصرى ودار الحديث النورى ومدرسة الأربعين. أما مدرسة بصرى فقد تهدمت ولا يعرف تحقيقًا نظامها القديم، وأما دار الحديث النورى ومدرسة الأربعين فيتضح من رسميهما التخطيطى أنه كان يصلح لإيواء بيوت للطلاب. وهذا وليس من الضرورى أن تكون البيوت فى الطابق الأرضى وحده، فإنه كثيرًا ما كانت تبنى غرف الطلاب بالمدارس فى الطابق الثانى كذلك.



نظريات المستشرقين عن مصادر تخطيط المدارس

١ - نظرية (فان برشم) - النظام الصليبى البيزنطى السورى.

٢ - نظرية (كريسويل) - القاعة والدُّرقاعة المصرية.

٣ - النظرية الفارسية والساسانية.

٤ - عودة إلى نظرية «القاعة» المصرية.

الفصل السابع

نظريات المستشرقين عن مصادر تخطيط المدارس



نظرية (فان برشم) – النظام الصليبى البيزنطى السورى

أثارت نظم المدارس ومصادر تخطيطها اهتمام علماء الآثار والمستشرقين منذ نهاية القرن الماضى، وكان (فان برشم) أول من كتب من المستشرقين عن أنظمة المدارس، وأفرد، فى سنة ١٨٩٤م، صفحات طويلة عن تاريخها[1]، وانتهى (فان برشم) من دراسته إلى نتائج أربع، هى:

أولاً: أن الظروف السياسية تدخلت تدخلا كبيرًا فى نشأة المدارس وتطورها، إذ «خرجت المدارس الدينية من ميدانها الخاص، وأصبحت مؤسسة سياسية تخضع لإشراف الدولة الرسمى»، وأن المسئول عن ذلك هو «نظام الملك، وزير السلطانين السلجوقيين ألب أرسلان وملك شاه»[2].

ثانيًا: أن المدرسة دخلت سوريا بعد ذلك ومنها انتقلت إلى مصر ابتداء من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)، وكان ذلك نتيجة لجهاد المسلمين، حملة لواء السنة، ضد الصليبيين من جهة، وضد الفاطميين من جهة أخرى، وإن الحكام استخدموا فقهاء المذاهب الأربعة لتعزيز هذا الجهاد، وخاصة فقهاء المذهب الشافعى، الذى كان أكثر المذاهب شيوعا فى عهدهم[3].

ثالثًا: أن نظام المدرسة يتكون من أربعة إيوانات متعامدة، داخل إطار مربع، على هيئة صليب حول بهو وسيط، وأن هذا النظام اتخذ لأنه يوافق الغرض الرئيسى من المدرسة، وهو تدريس المذاهب الأربعة[4]، ثم إن هذا النظام اشتق من الكنائس البيزنطية ذات الشكل الصليبى، فى سوريا[5].

---

(١) انظر صفحات ٢٥٤ إلى ٢٦٩ من الجزء الأول من «موسوعة النقوش العربية» الخاصة بمصر.

(٢) انظر صفحة ٢٦٠ من المرجع السابق.

(٣) انظر صفحتا ٢٦٢ و ٢٦٣ من المرجع السابق.

(٤) انظر صفحة ٢٦٥ من المرجع المشار إليه فى الصفحة السابقة.

(٥) انظر صفحة ٢٦٨ من المرجع السابق. وتبعا لذلك يؤكد (فان برشم) فى الحاشية رقم (٤) من هذه الصفحة أن مهندس مدرسة السلطان حسن بالقاهرة كان مسيحيًا وأنه ما كان يمكن أن يكون غير ذلك. وقد هزأ (كريسويل) من هذا الرأى ودحضه بأدلة قاطعة فى صفحة ٥١ من المقال المشار إليه فى الحاشية (١) من صفحة ١٢٨ فيما بعد.

رابعــا: أن علمــاء الآثار خلطوا بين المســجد والمدرســة، مــع أن لكل منهمــا نظاما مختلفًا تمام الاختلاف[1].

وأضــاف (فان برشــم) إلى ذلك أن المدرســة تطــورت فيما بعد حتى أصبحت مســجدًا، وأن نظامهــا اتخذ فى عصر المماليك نظامًا للمســاجد، إذ «بترت» الإيوانات الجانبية واتســع بيت الصلاة، واقترب نظام المدرسة من نظام المسجد فى العصور الأولى[2]. وكان لهذا التطور فى النظام التخطيطى أثر على أســاليب البناء، فاســتغنى البناة عن الســقف المبنية المعقودة، وأقاموا على «الإيوانات» سقفًا مسطحة خشبية[3].

وقد ردد (فان برشــم) هذه الآراء كلها فى المقال الذى كتبه عن العمارة الإســلامية فى دائرة المعارف الإســلامية فى ســنة ١٩١٠م، وأضاف إليهــا أنه إذا كانت إيوانات المدارس مســقوفة بسقف مبنية معقودة على نظم القصور الساسانية والفارسية، فإنها قد خططت ونظمت على هيئة الصليب، وعلى غرار الكنائس البيزنطية والسورية[4].

ولخص (فان برشم) نظريته هذه فى فقرتين هما[5]:

١ – أدخــل صــلاح الدين المدرســة إلى مصــر. وكان نظامها المعمارى خليطًــا من عناصر فارســية وســورية. وهذا النظام الصليبــى يتفق مع وظيفة المدرســة لتدريس المذاهب الأربعــة.

٢ – أخذت المدرســة بعد ذلك تفقد من صفتها التعليمية فأصبحت مســجدًا «جامعًا» وأخذ هذا المســجد «ينبذ» نظامه العتيق ويتبع النظام الصليبــى، وإن كان هذا النظام الأخير قد تطور واختل حتى قارب نظم المساجد الجامعة الأولى.

---

(١) انظر صفحة ٢٦٩ من الجزء الأول من (فان برشم) «موسوعة النقوش العربية».

(٢) انظر صفحات ٥٣٣ إلى ٥٣٥ من الجزء الثانى من (فان برشم) «موسوعة النقوش العربية» الخاصة بمصر.

(٣) انظر صفحة ٥٣٤ من المرجع السابق وقد أثبتنا فى الفصل الخامس، صفحات ٨٦ إلى ٩٦ فيما سبق، أن العكس هو الذى حدث، وأن أساليب البناء هى التى أثرت فى تطور النظام التخطيطى.

(٤) انظر صفحات ٤٢٩ وما يليها من الجزء الأول من. «دائرة المعارف الإسلامية».

Architecture, in Encyclopoedia of Islam, Vol. I, Leyden, 1913.

(٥) انظر صفحة ٥٣٦ من الجزء الثانى من «موسوعة النقوش العربية» الخاصة بمصر.

وأخذ (مكس هرتس) بنظرية (فان برشـم) أول الأمر[1]. ثم عاد بعد ذلك بسـنوات فادعى أن نظام المدارس الصليبى مأخوذ جميعه من العمارة الفارسـية[2]. وكذلك أخذ (مارسـيه) أول الأمر بنظرية (فان برشـم)، أى باشتقاق المدارس نظامها الصليبى من الكنائس البيزنطية السورية[3]، وكذلك كان قد فعل (سلادان)[4].

وقد فند الأسـتاذ (جبرييل) هذه النظرية فى سـنة ١٩٢١م وأوضح خطأها[5]، وأكد أنه ليس ما يبرر الادعاء باشـتقاق نظم المدارس من نظم الكنائس البيزنطية أو السـورية، إذ أن العوامل المعمارية مختلفة فى كل من النظامين. وتخطيط المدارس مسـتمد من ضرورة وجود بهو مكشوف يتوسطها، أما تخطيط الكنائس على نظام الصليب الإغريقى، أى متساوى الأطراف، فقد فرضته مقتضيات معمارية، إذ إنه حل عملى بديع لمشـكلة بناء قبة تتوسـط البناء، وتتطلب سندًا من كل جانـب يتحمل قوة الضغط المندفع منهـا، دون أن تظهر فى هذه الجوانب دعامات طفيلية خارجة عن البناء، أى أن البنّاء البيزنطى قد ابتكر الشـكل الصليبى لكنيسته استجابة لضرورة معمارية، هى قوة الضغط المندفع من القبة الكروية التى تتوسط البناء، كما يتضح من الرسم الذى نورده تفسـيرًا لهذه النظرية، شـكل (٤٧). وهذه الضرورة المعمارية منعدمة بالنسبة للمدارس، فوسـطها مكشوف لا مسـقوف. وبعبارة أخرى يختلف النظام المعمارى فى تخطيط المدارس عنه فى تخطيط الكنائس الإغريقية من أنه فى هذه الكنائس يستمد كيانه من تركيز البناء فى الوسط، فى حين أن التخطيط فى المدارس يسـتمد كيانه من انعدام الأبنية فى الوسـط، وتطرفها حول فراغ مكشوف، هو البهو.

---

(١) انظر صفحتى ٣٣ و ٣٤ من «فهرس مقتنيات دار الآثار العربية» تعريب على بهجت، المطبعة الأميرية، ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م.

(٢) انظر محاضر لجنة حفظ الآثار العربية، صفحتا ٩٨ و ٩٩ من سنة ١٩٠٤م من الطبعة الفرنسية.

(٣) انظر صفحة ٤٠ من «آثار تلمسان العربية»

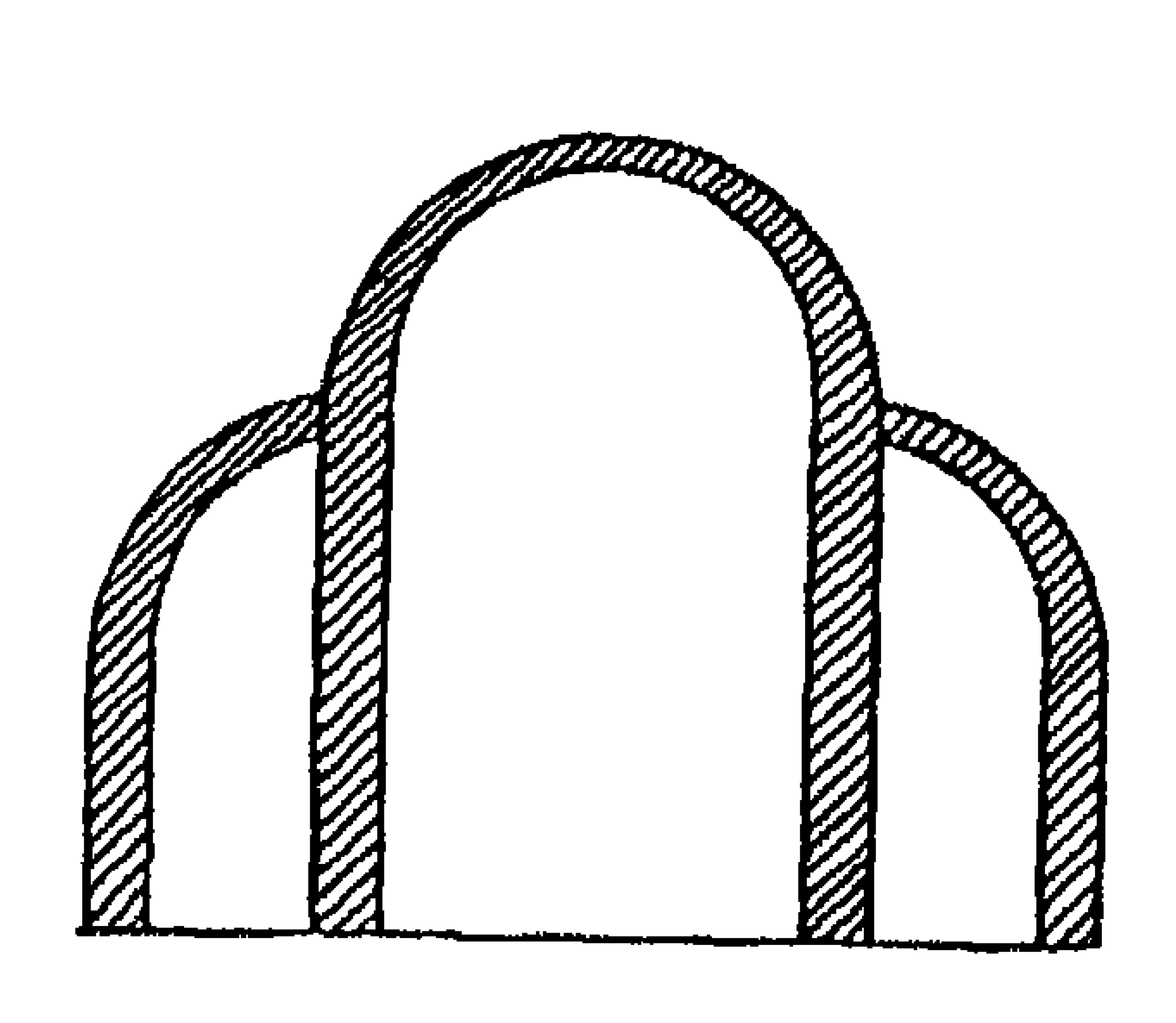
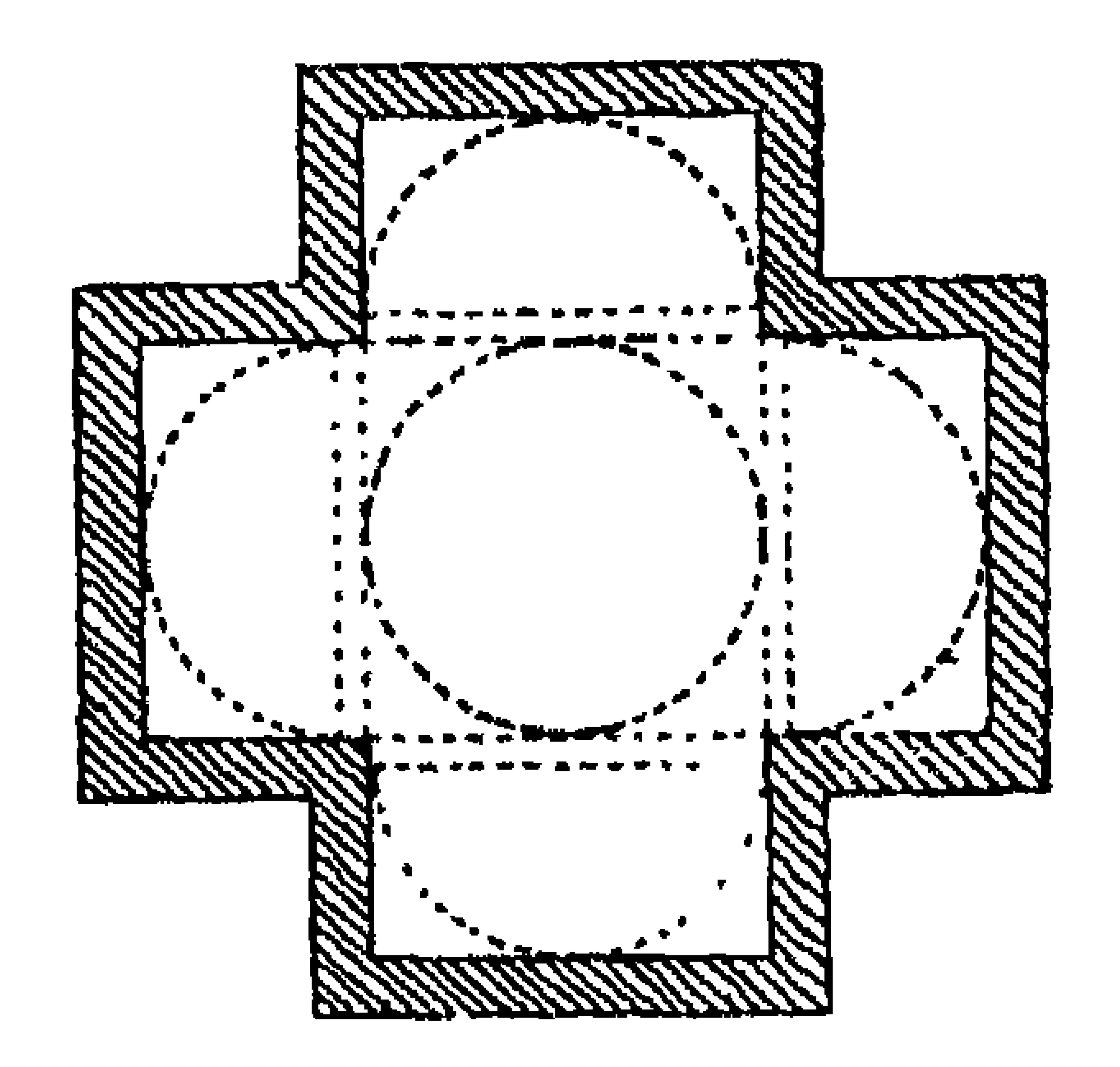
MARÇAIS, George; *Les Monuments Arabes de Tlemcen*, Paris, 1903

(٤) انظر صفحة ١٠٩ من «كتاب الفن الإسلامى»، العمارة:

SALADIN, Henri; *Manuel d'Art Musulman, l'Architecture*, Paris, 1907

(٥) انظر صفحة ٨٢ من كتاب «حفائر الفسطاط» لمؤلفيه (على) بهجت و (البرت) جبرييل:

BAHGAT (Aly) et GABRIEL (Albert); *Fouilles d' Al-Foustat*, Publications du Musée d'Art Arabe du Caire, Le Caire, 1921

شكل (٤٧) – رسم تخطيطى بيانى وقطاع رأسى لكنيسة على نظام الصليب الإغريقى



نظرية (كريسويل) – القاعة والدُّرقاعة المصرية

وفى سنة ١٩٢٢م تصدى (كريسويل) لهدم نظرية (فان برشم) من أساسها وكتب مقالا فى هذا الموضوع[١]. ثم إنه عاد فزاد الموضوع بحثاً وتفنيدًا فى سنة ١٩٥٩م[٢].

وقد أثبت (كريسويل) فى هذين البحثين أنه لا توجد مدرسة سورية واحدة من بين المدارس المعروفة تتخذ النظام الصليبى أو شبه الصليبى، وبالتالى فإنه ينعدم السند الصحيح لنظرية اشتقاق المدارس المصرية ذات النظام «الصليبى» من مصدر سورى، ولهذا يتعين رفض هذه النظرية[٣].

(١) انظر «مصادر تخطيط المدارس القاهرية الصليبى»:

K.C.CRESWELL; The Origins of the Cruciform Plan of Cairené Madrasas, Bulletin de l'Institut Français d' Archéologie Orientale, Tome XXI. pp. 1 – 54 . Le Caire, 1922.

(٢) انظر صفحات ١٠٤ إلى ١٣٣ من الجزء الثانى من كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٣) انظر صفحة ١٢٠ من المرجع السابق. هذا وقد حصر (كريسويل) المدارس السورية المعروفة وذكر منها، تأييدًا لرأيه، ١٣ مدرسة تخلفت من المدارس التى أقيمت فيما بين سنتى ٥٣٠هـ / ١١٣٦م و ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م، وذلك فيما عدا مدرسة واحدة هى مدرسة كومشتكين فى بصرى المشار إليها أعلاه.

وكذلك أوضح (كريسويل) أنه لم تنشأ، فيما أوردته المصادر التاريخية، مدرسة واحدة فى سوريا للمذاهب الأربعة، وأن معظمها أنشىء لمذهب واحد، وقلة قليلة لمذهبين، وذلك منذ سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م وحتى قبيل سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م[١].

وأشار كريسويل إلى أن أقدم مدرسة معروفة متخلفة من المدارس فى جميع البلاد الإسلامية هى مدرسة أبى منصور كومشتكين، وهى التى أنشأها هذا الأمير لفقهاء الحنفية فى بُصرى بسوريا سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٦م، ونقل (كريسويل) رسمها التخطيطى عن كتاب ألمانى عن البلاد العربية، وهو الرسم الذى نشرناه بدورنا فيما سبق، شكل (٣٣)[٢]. وهى مدرسة صغيرة تبلغ حدودها الخارجية عشرين مترًا طولا وسبعة عشر مترًا عرضًا، ولها بيت للصلاة من قاعة واحدة عرضها خمسة أمتار ونصف المتر، وعمقها سبعة أمتار ونصف المتر، ولها بهو مربع تقريبًا، طول ضلعه خمسة أمتار، ونصف المتر، وتمتاز بأن هذا البهو كان مسقوفًا بقبة مبنية، وأنه قد فتحت عليه ثلاث غرف، فى جوانبه الشرقية والغربية والشمالية، وفى رأى (كريسويل) أنه كان لهذه المدرسة إيوانان اثنان، وأن بيت الصلاة والمؤخر لا يعتبران إيوانين.

وأورد (كريسويل) مثلا آخر للمدارس السورية، وهى المدرسة النورية فى دمشق، وهى التى أنشأها نور الدين زنكى فى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م لفقهاء المذهب الحنفى، شكل (٣٧). وهى مدرسة أكبر حجمًا من مدرسة بُصرى، ولها بيت للصلاة فسيح من قاعة واحدة مستطيلة، يمتد جدار القبلة فيها أربعة عشر مترًا تقريبًا، وعمقها ستة أمتار، ويحف بها غرفة من كل من جانبيها. ولهذه المدرسة بهو مكشوف طوله عشرون مترًا ونصف المتر وعرضه ستة عشر مترًا ونصف المتر، ولها مؤخر يطل على هذا البهو، أما المجنبتان فقد استبدلت بهما قاعات[٣].

ثم أشار (كريسويل) إلى المدرسة المستنصرية فى بغداد، وهى أول مدرسة أنشئت فى العالم الإسلامى لتدريس المذاهب الأربعة، أنشأها الخليفة المستنصر بالله، وتكامل بناؤها فى منتصف سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٤م، وجعل منها مدرسة للمذاهب الأربعة ودارًا للحديث والقراءات، وأكد (كريسويل) أن هذه المدرسة ليست صليبية النظام، وأنها لم تتخذ أنموذجًا للمدرسة الصالحية التى أقيمت بعدها بعشر سنوات، فهى تختلف عنها وظيفة ونظامًا[٤].

---

(١) انظر الصفحة المشار إليها فى المرجع السابق.

(٢) انظر صفحة ١٠٧، شكل ٥٠ من المرجع السابق. والكتاب الذى نقل عنه (كريسويل) هذا الشكل هو الجزء الثالث من Die Provincia Arabia لمؤلفيه : DomeRzewski, Brunov

(٣) انظر صفحة ١١٠، شكل (٥٦) من الجزء الثانى من كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٤) انظر صفحة ١٢٦ من المرجع السابق.

وانتقل (كريسويل) بعد ذلك إلى المدرسة الظاهرية التى أنشأها السلطان الملك الظاهر بيبرس بالقاهرة فى سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م، وهى، فى رأيه، أول مدرسة أنشئت على النظام الصليبى[١]، وكان يدرس بها، على حد قول المقريزى، «الشافعية بالإيوان القبلى... والحنفية بالإيوان البحرى... والحديث بالإيوان الشرقى... والقراءات السبع بالإيوان الغربى»[٢].

وأوضح (كريسويل) بعد ذلك أن المدارس المصرية، فى العصر الأيوبى وفى أوائل عصر المماليك تختلف اختلافًا جوهريًّا عن المدارس السورية، السابقة عهدًا أو المعاصرة لها، خاصة وأن بيت الصلاة كان عنصرًا رئيسيًّا فى المدرسة المصرية، وكذلك كانت المئذنة[٣].

ثم أشار (كريسويل) إلى أن أقدم مدرسة، فى رأيه، أنشئت على النظام الصليبى للمذاهب الأربعة هى المدرسة الناصرية بالقاهرة، التى كمل بناؤها فى سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م. وهكذا، فى رأى (كريسويل)، لم تكن أول مدرسة صليبية النظام، وهى المدرسة الظاهرية، مخصصة للمذاهب الأربعة، أما المدرسة الناصرية فهى أقدم مدرسة تجمع بين النظام الصليبى، شكلاً، والمذاهب الأربعة وظيفة.

وانتهى (كريسويل) من نقده لأصحاب نظرية اشتقاق نظام المدرسة من الكنائس السورية البيزنطية بقوله: «إن الكنيسة البيزنطية الصليبية النظام لم تكن معروفة فى سوريا، وإنما كان نظامها شائعًا فى آسيا الصغرى والقسطنطينية، وكانت دائمًا تغطيها قبة، وكان قيام هذا النظام الصليبى ضرورة لبناء القباب[٤]، فى حين أن النظام الصليبى (للمدارس) لم يكن له شأن ببناء القباب.. وكذلك لم يكن هذا النظام حتميًّا للمذاهب الأربعة... ولم تكن المدارس (ذات النظام الصليبى) معروفة فى سوريا فى ذلك الوقت»[٥].

فنّد (كريسويل) نظرية اشتقاق نظام المدارس من الكنائس السورية البيزنطية. ولكنه لم يرد على جميع النقاط التى أوردها (فان برشم)، فلم يشر، مثلا، إلى الادعاء بأنه كان للظروف السياسية، كما كان للجهاد ضد الصليبيين ومحاربة الشيعة، أثر فى نشأة المدارس وتشكيل نظمها، وهو ادعاء لا أساس له من الصحة، فقد نشأت المدارس من عوامل أخرى، كما سنرى فى الفصل التالى من

---

(١) انظر صفحة ١٢٧ من المرجع السابق.
(٢) انظر صفحة ٣٧٩ من الجزء الثانى من «الخطط»
(٣) انظر صفحة ١٢٧ من المرجع المشار إليه سابقًا.
(٤) وفى هذا يردد (كريسويل) رأى الأستاذ (جبرييل) الذى نشره فى سنة ١٩٢١م وشرحناه فى صفحة سابقة.
(٥) صفحة ١٢٨ من المرجع السابق الإشارة إليه.

هذا الكتاب. ولم يشر (كريسويل) كذلك إلى اتهام (فان برشم) لعلماء الآثار بالخلط بين نظامى المسجد والمدرسة، مع أن لكل منهما – فى رأى (فان برشم) – نظامًا مختلفًا تمام الاختلاف. ولعل (كريسويل) كان يوافق على هذا الرأى الذى سيتضح خطؤه كذلك مما نوضحه فى الفصل التالى. ولم يشر (كريسويل) أيضًا إلى ادعاء (فان برشم) بأن نظام المدرسة قد تطور فيما بعد اتخاذه للنظام الصليبى واتخذ نظام المساجد، والواقع عكس ذلك، كما سنرى فى الفصلين التاليين، وهو أن نظام المدرسة كان تطورًا من نظام المسجد، ثم استرد المسجد فيما بعد، فى نهاية عصر المماليك، نظامه التقليدى، وذلك لتحول طرق البناء من إقامة السقف المبنية، وعودتها إلى الطريقة الأولى، طريقة السقف المسطحة الخشبية.

هدم (كريسويل)، على حد قوله نفسه، نظرية النظام الصليبى السورى البيزنطى[1]، ولكنه أخذ يفترض نظرية جديدة. وبدأ عرض هذه النظرية بالادعاء بأن المدرسة بناء أقيم خصيصا للتدريس، وأن كل إيوان بها كان مخصصًا لتدريس مذهب من المذاهب، أو لمادة محددة من المواد العلمية، كدراسة الحديث أو القراءات، وبالتالى فإن نظام بناء المدرسة كان يتبع الغرض التدريسى الذى خصصت له، وأن عدد الإيوانات فى المدرسة الواحدة كان يتوقف على عدد المذاهب أو الدراسات التى اختصت بها[2].

ثم ادعى (كريسويل) أن نظام المدرسة اشتق أصلا من نظام المساكن التى كان بها قاعة، إذ أن «القاعة» عبارة عن إيوانين متقابلين بينهما صحن مسقوف بسقف مفتوحة، وهو المسمى «دُرقاعة»[3]. واستند فى ذلك إلى أن كثيرًا من الدور قد حولت إلى مدارس مثل المدرسة القمحية والمدرسة السيوفية والمدرسة التقوية وغيرها. وعلى هذا النظام أقيمت، فى رأيه، المدرسة الكاملية. ثم ضوعف نظام الإيوانين فأصبح أربعة إيوانات من مدرستين متلاصقتين، كما كان

---

(١) ويضيف (كريسويل) فى الحاشية (١١) من صفحة ١٢٨ من كتابه المشار إليه أن (فان برشم)، وهو صاحب هذه النظرية، قد اقتنع بوجاهة آراء (كريسويل) عند زيارته القاهرة فى سنة ١٩٢٠م، وأنه أبلغه ذلك.

(٢) انظر صفحة (١٢١) من المرجع المشار إليه، وقد جاء فى هذه الصفحة ما نصه:

each rite was provided with a liwan (whether one only or two) and, conversely each liwan implied a rite.

وهذا جزء من نظرية (فان برشم) التى لخصناها فيما قبل والتى جاء فيها أن النظام الصليبى، وهو نظام الأربعة إيوانات، يوافق الغرض الرئيسى من إنشاء المدرسة، وهو تدريس المذاهب الأربعة، فكأن (كريسويل) قد أخذ بنظرية (فان برشم) فيما يتصل بوظيفة المدرسة، وهدم القسم الثانى من هذه النظرية، الذى يحدد مصدر نظام المدرسة فى النظام الصليبى للكنائس السورية البيزنطية.

(٣) انظر صفحة ١٢٩ من المرجع المشار إليه. والدرقاعة معروفة فى العراق باسم «طارمة».

الحال فى المدرسة الصالحية. ويمضى (كريسويل) فى شرح نظريته فيفترض أن المرحلة التالية لتطور نظام المدرسة تمت باندماج الإيوانات الأربعة فى بناء واحد وتقابلها وتعامدها على النظام الصليبى[1]. وتم هذا التحويل، فى رأى (كريسويل)، وتحقق فى المدرسة الظاهرية[2]، أى بعد أربعين سنة من ظهور نظام الإيوانين المتقابلين فى المدرسة الكاملية، وبعد عشرين سنة من ازدواج هذا النظام فى المدرسة الصالحية.

وجاء (كريسـويل) بحجة قويـة، فى رأيه، يدعم بها نظريته، وهـى أن نظام «القاعة» كان معروفـا منذ العصر الفاطمى، وأنه كان يتضمن إيوانـين متقابلين وأن قاعة الدردير هى الأنموذج الواقعى لهذه «القاعات»[3]. ونظرية (كريسـويل) هذه نظرية افتراضية، لا تسـتند على أسـاس تاريخى أو أثرى أو معمارى، وسنرجئ الرد عليها إلى فصل تال.



٣ النظرية الفارسية والساسانية

أخذ (ريشموند) فى سنة ١٩٢٦م بنظرية (كريسويل)، ولكنه، أضاف إليها مصدرًا جديدًا، وهو أنه يغلب على ظنه أن نظام المساكن المصرية، بقاعته ومقعده، كان مقتبسًا من أنظمة القصور الساسانية، التى كانت شائعة فى العصر العباسى الأول، قبل قاعة الدردير بالقاهرة[4]. ويعتقد (ريشموند) مثل (كريسويل) أن المساكن اتخذت مدارس، فى مصر وسوريا، لصلاحية نظامها للتدريس، بالرغم من أن نظام المدَارس السورية كان أقرب صلة إلى نظم المساجد، ولكنها فى رأيه كانت مجرد تطوير لهذه النظم، بحيث أصبح بيت الصلاة يلائم إيوان المدرسة، ويجعله صالحا للتدريس. أما ما حدث فى المدارس المصرية فكان عكس ذلك، فى راى (ريشموند)، إذ أن نظامها اقتبس من نام المساكن الذى تطورت القاعة فيه بحيث أصبحت إيوانًا للمدرسة. ملائمًا لبيت الصلاة، وصالحًا للتدريس والصلاة معًا، مثلما حدث فى المدرسة الكاملية[5].

(١) انظر صفحة ١٢٨ من المرجع السابق.
(٢) انظر صفحة ١٢٧ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر».
(٣) انظر صفحة ٢٦١ إلى ٢٦٣ من الجزء الأول من «العمارة الإسلامية فى مصر».
(٤) انظر صفحة ١٠٦ إلى ١٠٩ من كتابه «العمارة الإسلامية».
(٥) انظر صفحة ١٠٩ من المرجع المشار إليه فى الحاشية السابقة.

واعترض كثير من العلماء على نظرية (كريسويل) وتصدوا للرد عليها بتنفيد آرائه. وكان أولهم (هوتكور) [1]، الذى وصف هذه النظرية بأنها افتراضية ضعيفة السند، واعترض عليها بأن نظام القاعة لم يكن معروفًا بصفة قاطعة قبل العصر الأيوبى[2]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن صحن «القاعة» عادة مسقوف، فى حين أن بهو المدرسة دائما مكشوف. وأخذ (هوتكور) بالتعديل الذى أدخله (ريشموند) على نظرية (كريسويل)، أى إن نظام المدرسة اشتق بهوه المكشوف من نظام المساكن ذات الصحن المكشوف الوسيط، واشتقت إيواناته المسقوفة من الإيوانات الفارسية الساسانية.

أبدى (هوتكور) هذا الرأى فى سنة ١٩٣٢م، وبعد ذلك بعشر سنوات نشر (هرتزفلد) بحوثا اعترض فيها كذلك على نظرية (كريسويل)، وعلى ما كان قد ذهب إليه فيها من أن عدد المذاهب هو الذى أثر فى نظام المدرسة، وأن عدد الإيوانات مرتبط بعدد المذاهب التى تخصص المدرسة لتدريسها. وافترض (هرتزفلد) أن نظام المدرسة اشتق من النظام المصلب الذى كان منتشرًا من قبل فى العمارة الفارسية، وأن هذا الاشتقاق قد تم لاعتبارات معمارية لا شأن لها بوظيفة المدرسة، أو بعدد المذاهب أو العلوم التى تدرس بها[3]. وافترض (هرتزفلد) أن الوزير نظام الملك استخدام بناة من الفرس لبناء مدارسه العديدة فى العراق وخراسان، وأن هؤلاء البناة استطاعوا أن يوفقوا بين الأساليب المعمارية التى كانت متبعة منذ القدم فى المساكن والبيمارستانات والأربطة والقيروانات الفارسية، وبين مقتضيات المدرسة الضرورية لتشكيل نظام البناء الجديد وتصميمه. وهكذا «استوردت»، فى رأى (هرتزفلد)، المدرسة المصلبة من إيران[4]. ثم دخلت المدرسة بنظامها الجديد هذا فى بغداد، واتبعت، وفقًا لرأيه، فى المدرسة المستنصرية، وكانت قد انتقلت منها قبل ذلك إلى دمشق، فطبقت فى دار الحديث وفى المدرسة النورية، اللتين أقيمتا حوالى سنة ٥٦٧هـ / ١١٦٢م.

غير أن (هرتزفلد) يعترف بأن النظام الفارسى تطور فى طريقه من إيران إلى بغداد ودمشق، وهو رأى شبيه بما كان قد أدلى به (ريشموند) من قبل. ويؤكد (هرتزفلد) أن نظام المدرسة قد أصبح

---

(١) انظر «مساجد القاهرة»، الجزء الأول.

(٢) اكتشفت قاعة الدردير بعد ظهور كتاب (هوتكور)، وبهذا سقطت، فى رأى (كريسويل)، حجة من حجج ذلك العالم الأثرى.

(٣) انظر صفحات ١٤ إلى ١٦ و ٢٩ من القسم الثانى من مقاله «دراسات فى العمارة».

(٤) انظر صفحة ٢٩ من المقال المشار إليه فى الحاشية السابقة. واللفظ الذى استخدمه (هرتزفلد) للتعبير عن الاشتقاق هو (improted) وهو الذى ترجمناه حرفيًا.

«شيئًا جديدًا» بالرغم من قدمه، وأن المدرسة السورية تبدو غريبة بالنسبة لآثار فارس، مثلما يبدو «مدارس شاه» فى اصفهان، غريبًا بالنسبة لآثار دمشق، فقد تحور، فى رأيه أحد الإيوانات الأربعة فى طريقه إلى سوريا وأصبح بيتًا للصلاة[1].

وإذا كان (هرتزفلد) يبدو معتدلا فى نظريته الفارسية، فإن (دين) يؤكد أن نظام المدرسة فارسي صميم[2]. أما (جودار) فكان أشد العلماء تحمسا للنظرية الفارسية، واعتراضًا على نظرية (كريسويل) [3]. وقد نشر فى سنة ١٩٥١م بحثًا رفض فيه الرأى القائل باشتقاق المدرسة من «القاعة»، وذهب مذهب (هرتزفلد) من أن نظام المدرسة كان قد استقر فى بلاد فارس قبل دخوله سوريا ومصر، وأكد أن من الخطأ ربط هذا النظام بالمذاهب الأربعة، وافترض أن النظام الصليبى كان قائمًا من قبل، وإنما اتخذته المدرسة لأنه كان يلائم وظيفتها فى تدريس المذاهب الأربعة. وقدم دلالة على ذلك المدرستين المستنصرية فى بغداد والصالحية فى القاهرة، وأوضح أنهما، وهما أقدم مدرستين معروفتين لتدريس المذاهب الأربعة لم يختط نظامهما على هيئة الصليب، وبالتالى فقد نفى العلاقة المزعومة بين عدد المذاهب، أو الدراسات، وبين النظام الصليبى. وكذلك نفى (جودار) العلاقة المزعومة بين «القاعة» وبين نظام المدرسة، وافترض أن هذا النظام كان معروفا قبل وجود «القاعة». كان هذا النظام، فى رأى (جودار)، معروفا فى مساكن باميان، وفى الرى، وفى المنطقة الشرقية من إيران، فى المدرسة النظامية فى خَرجِرد خراسان، فى الجنوب الغربى من نيسابور، وهى مدرسة بنيت فى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م شكل (٤٨)، أى قبل إنشاء المدرسة الظاهرية بالقاهرة بقرنين من الزمان[4]. والحقيقة أن (هرتزفلد) كان قد سبق (جودار) إلى إبداء هذا الرأى وأرخ مبانى خَرجِرد فى سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٨م. غير أن (هرتزفلد) أبدى رأيه بتحفظ، إذ أنه شك فى أن يكون البناء أصلاً مدرسة[5]، لأن الأطلال

(١) انظر صفحة ٣٠ من المقال المشار إليه فى حاشيه سابقة

(٢) انظر صفحة ٩٢١ من الجزء الثالث من (بوب)، «موسوعة الفن الفارسى»:

DIEZ (Ernst); *The Principles and Types*, in vol. III, pp 916 - 929 of POPE (Arthur Upham); A Survey of Persian Art, 6 vols, Oxford, 1938 - 39.

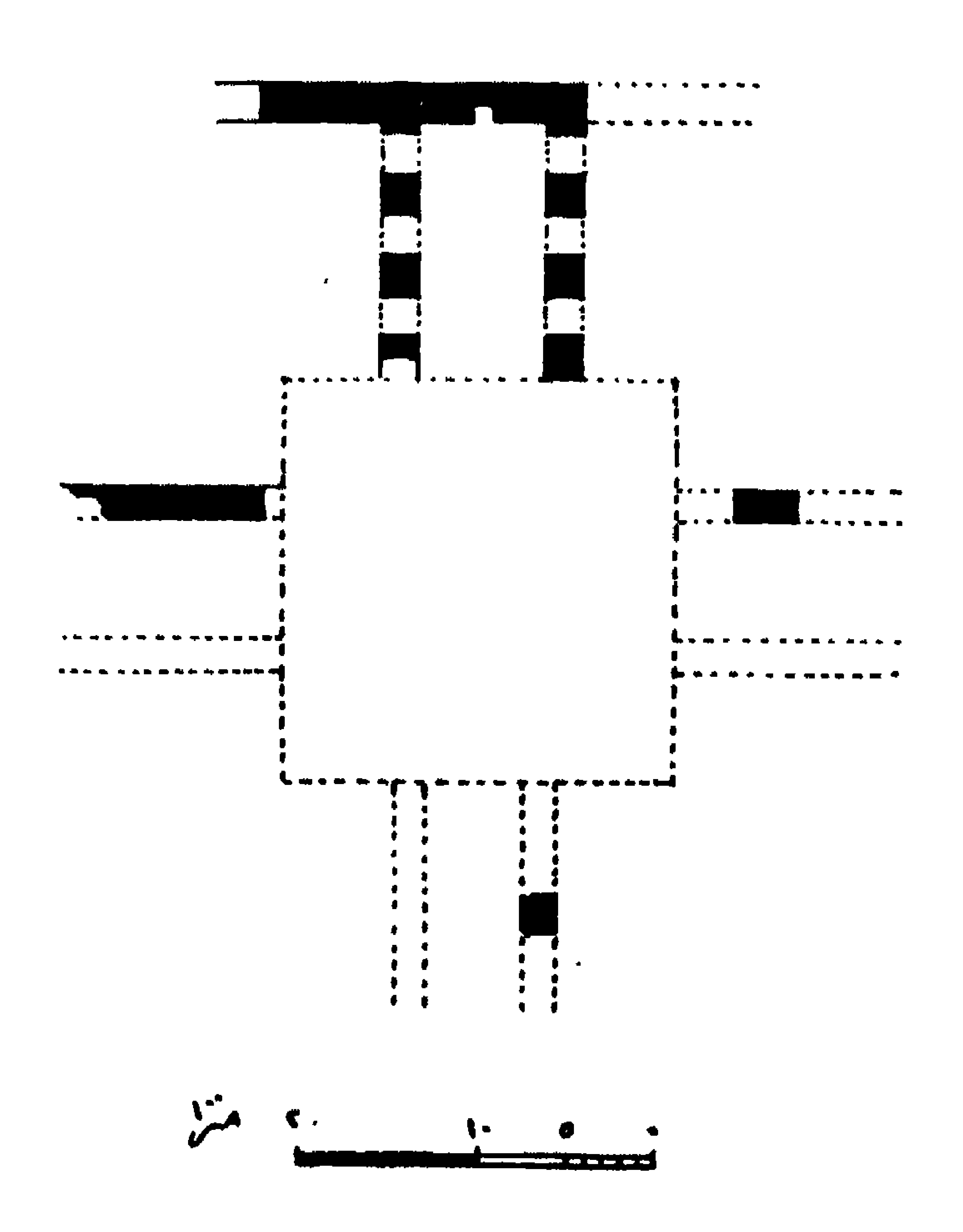
(٣) انظر «مصدر المدرسة» مقال فى «مجلة الفن الإسلامى»

GODARD (André); *L'Origine de la Medrasah, de la mosque et du Caravansérail á quatre Iwans*, in Ars Islamica, Vol. XV-XVI, 1951, pp. 1-9.

(٤) وهى المدرسة التى يقرر (كريسويل)، كما رأينا، أنها أول مدرسة تجمع بين النظام الصليبى وتدريس أربع مواد من الدراسات، وكان إنشاؤها فى صفر سنة ٦٦٢هـ / ديسمبر ١٢٦٣م

(٥) انظر صفحة ١٧ من المقال المشار إليه فى حاشية سابقة.

المتخلفة منه لا تساعد على إعادة تخطيط البناء الأول عن ثقة ، وأنه من الجائز أن يكون أصله مسجدًا لا مدرسة ، كما يتضح من الرسم التخطيطي لهذه الأطلال.



شكل (٤٨) – رسم تخطيطي افتراضي لأطلال مدرسة خرجرد، (عن جودار)

ويمضى (جودار) فى بحثه عن أصل هذا النظام الذى افترض استقراره فى المدرسة النظامية فى خرجرد، فادعى أن هذا النظام المتعامد كان ذائعًا ومشهورًا فى بلاد الفرس، إلى درجة أن المساجد نفسها أخذت تتبناه، مثل مسجد إصفهان الجامع، الذى أنشئ فى سنة ٥١٥هـ/ ١١٢٠م، ومسجد زوارى، الذى أنشئ بعد ذلك بخمس عشرة سنة، وهما مسجدان وضعا على النظام المتعامد الذى يتكون من بهو وسيط مربع، محاط من كل جانب بإيوان[1].
ويبحث (جودار) عن مصدر هذا النظام الذى اتبع فى المدرسة النظامية فى خرجرد، ويقول: «إنه يجب علينا أن نفترض أن نظام البهو الوسيط المحاط من جوانبه بإيوانات أربعة كان شائعًا ومتبعًا بمهارة فى خراسان. وذلك فى الوقت الذى أنشئت فيه المدرسة النظامية ببغداد فى منتصف القرن الخامس الهجرى»[2]. وأخيرًا يلخص (جودار) نتيجة أبحاثه بقوله: «وأغلب الظن أن نظام المدارس ذات الإيوانات الأربعة قد تولد عن نظام المساكن فى خراسان، وهى التى كانت تحوى إيوانات أربعة، وأن المدارس بدورها كانت السبب فى تولد نظام المساجد الإيرانية ذات أربعة الإيوانات»[3].

وظهر منذ سنوات قليلة، بعد مقال (جودار) بسنتين، مقال آخر كتبه (لوفريه)، وبحث فيه عن أصل المدارس السورية، وادعى أنها اشتقت نظامها من المساكن الخاصة فى سوريا، التى كانت اشتقت نظامها من قبل من المساكن البيزنطية فى شمال سوريا[4]. وهى نظرية كان قد أبداها (سوفاجيه) من قبل ذلك بخمس عشرة سنة[5]. ويفترض (لوفريه) أن نظام المدرسة السورية

---

(١) يحوم الشك حول ما يدعيه (جودار). ومسجد إصفهان «الجامع» الحالى لا يعبر عن صورة نظامه فى السنة التى يحددها (جودار). ينظر ما كتبه (شرودر) عن مراحل بنائه فى الصفحات ٩٥٤ إلى ٩٦٣ من الجزء الثالث من كتاب (بوب) «موسوعة الفن الفارسى»؛ بل إن (شرودر) يذهب إلى غير ما ذهب إليه (جودار)، ويفترض أن المسجد الجامع بإصفهان كان قبل منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) على نظام المساجد الجامعة ذات البهو المحاط بمجنبات من أروقة مسقفة بقبوات·

SCHROEDER (Eric); *Standing Monuments of the First Period, in vol. III, pp. 930 - 966, of POPE, .A Survey of Persian Art*

وانظر صفحة ٩٠ وما يليها مما سبق.

(٢) انظر صفحة ٤ من المقال المشار إليه فى حاشية سابقة؛ «مصدر المدرسة».

(٣) انظر صفحة ٩ من المقال المشار إليه فى حاشية سابقة.

(٤) انظر صفحة ٦٥ من مقال (لوفريه)، «المدرسة السلطانية بحلب».

(٥) انظر مقال عن «الفن الساسانى»، صفحة١١٣:

SAUVAGET (J.): Remarques sur l'Art Sassanide, Revue des Etudes Isamıques, 1938

أخذ يتطور بعد ذلك فى هذا الاتجاه الصليبى، فى نفس الوقت الذى تطور فيه النظام الفارسى المماثل، أى ذو أربعة الإيوانات، فى بلدان أخرى. أى إن (لوفريه) لا يعارض نظرية (جودان)، لكنه يخرج المدارس السورية من التيار الفارسى.

واعترض (لوفريه) على نظرية (كريسويل) التى تفترض اشتقاق نظام المدارس من نظام «القاعة» المصرية، كما اعترض على نظرية (فان برشم) و (سلادان) التى تفترض اشتقاق نظام المدارس من الكنائس السورية البيزنطية، وأكد أن هاتين النظريتين أصبحتا مرفوضتين، وأنهما قد «انهارا» بفضل أبحاث (جودان)[1].

٤

عودة إلى نظرية «القاعة» المصرية

عاد (كريسويل) مرة أخرى فى سنة ١٩٥٨م، فهاجم الآراء التى أبداها كل من (هوتكور) و (هرتزفلد) و (جودان) و (لوفريه)، كما كان قد هاجم من قبل آراء (فان برشم) و (سلادان) وغيرهما، وأكد أن جميع النظريات التى أبداها هؤلاء العلماء لا تقوم على سند تاريخى أو أثرى صحيح، وأن نظريته وحدها قد أصبحت «حقيقة تاريخية ثابتة»، بفضل اكتشاف قاعة الدردير التى يغلب على ظنه أنها أقيمت فى نهاية العصر الفاطمى، وفى النصف الأول من القرن السادس (الثانى عشر الميلادى)[2]. وبهذا ظن (كريسويل) أنه، على حد قوله، قد هدم الأساس الذى كان يستند عليه اعتراض (هوكتور). غير أنه تجاهل ركنًا هامًا من هذا الاعتراض، وهو أن القاعة ذات صحن مسقوف بينما بهو المدرسة مكشوف، وهذا الاختلاف ينفى الصلة بينهما. وحاول (كريسويل) أن يفند نظرية (هرتزفلد)، التى لا تربط بين عدد الإيوانات وعدد المذاهب التى تخصص المدرسة لتدريسها، واستخرج سبعة أدلة تؤيد وجهة نظره من أن الإيوانات فى المدرسة كانت مخصصة للتدريس، وأنه كان لكل مذهب إيوان منفرد، وأن نظام المدرسة كان مرتبطًا بعدد المذاهب، وأن «فى هذه الأدلة السبعة»، على حد

(١) انظر صفحة ٦٤ من المقال المشار إليه فى حاشية سابقة. هذا وقد هزأ (كريسويل) من اعتراضات (لوفريه)، وذلك فى صفحة ١١٦ من الجزء الثانى من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر»

(٢) انظر صفحة ٢٦٣ من الجزء الأول من «العمارة الإسلامية فى مصر» وصفحات ١٠٤ إلى ١٣٤ من الجزء الثانى، وفيها الردود التفصيلية على آراء هؤلاء العلماء

قول (كريسويل)، ما يكفى لتحطيم اعتراض (هرتزفلد)[1]. وسنعود إلى مناقشة هذا الرأى فى الفصل التاسع من هذا الكتاب[2]. أما عن اعتراض (جودان)، و (لوفريه)، فقد أوضح (كريسويل) أن الشك يحوم حول الآثار التى يستند عليها كل منهما فى تكوين نظريته، سواء من حيث تاريخها، أم من حيث موضوعها، وأنه يتعين رفض هاتين النظريتين[3].

وقد ظهر منذ سنوات قليلة تعريف لكتاب (كريسويل)، كتبه الأستاذ (جرابار)، ولم يعترض فيه على نظرية (كريسويل) اعتراضًا مباشرًا، ولكنه أشار إلى أن البحث عن مصادر أنظمة المدارس يجب الأخذ باعتبارات ثلاثة: أولا، الفكرة فى بناء المدرسة، أى تخطيطها، وثانيا، وظيفتها، وأخيرًا، صلة ذلك بالعناصر المعمارية. غير أن (جرابار) يميل إلى الأخذ بأسبقية المدرسة الفارسية على المدارس الشامية والسورية، ويتساءل عما إذا كانت نظم المدارس الفارسية والعراقية لم تؤثر فى تشكيل نظم المدارس الشامية والسورية. وأخيرًا يعترف (جرابار) بأن آثار المدارس الأولى، أى المدارس الإيرانية، ما تزال موضع الشك، وأن المشكلة كلها لهذا السبب، مشكلة مصادر أنظمة المدارس، لم تجد بعد «حلا نهائيًا»[4].

(١) انظر صفحة ١٢١ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر»..

(٢) انظر صفحة ١٧٣ وما يليها فيما بعد.

(٣) انظر صفحة ١٢٣ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٤) (جرابار) تعريف كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر» فى مجلة «الفن الشرقى».

GRABAR (Oleg): *K C. Creswell, Muslim Architecture of Egypt*, in Ars Orientalis, Vol. IV, 1961, pp. .426 - 427

الفصل الثامن

المدارس فى الإسلام
نشأتها ووظائفها

١ - التدريس فى الإسلام.

٢ - دور العلم والحكمة.

٣ - التدريس بأجر «معلوم» ودور سكنى الطلاب.

٤ - إنشاء المدارس.

٥ - وظائف المدرسة.

الفصل الثامن

المدارس فى الإسلام

نشأتها ووظائفها

نظام تخطيط المدارس نظام مستحدث، لم تحدد بعد مراحله التاريخية والأثرية الأولى، فقد تعارضت كما رأينا نظريات علماء الآثار، عن مصادر هذا النظام، ولم تعد تلك النظريات مقبولة. فأصبح باب البحث مفتوحًا من جديد فى هذا الموضوع. ويقتضى هذا البحث تعريف وظيفة المدرسة، التى ظن المشتغلون بالآثار أنها مقصورة على التدريس. ولهذا يجدر بنا الرجوع إلى تاريخ التدريس فى الإسلام.



المعروف أن الدرس والتدريس نشآ بنشأة الإسلام، فقد روى أن جماعة من الصحابة كانوا يعلّمون فى مسجد قباء فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم[1]. واستخدمت المساجد للتدريس منذ ذلك العهد الأول. يحدثنا المؤرخون أن أبا عثمان ربيعة، «المشهور بربيعة الرأى»، كان يجلس فى مسجد الرسول بالمدينة، وكاد يأتيه «مالك والحسن وأشراف أهل المدينة» للأخذ عنه، وكانت له فيه «حلقة وافرة»[2].

ويتوالى ذكر هذه «الحلقات» فى كتب التاريخ، بل يكاد لا يخلو تاريخ حياة عالم من العلماء أو شيخ من الشيوخ، من الإشارة إلى «حلقة» له بمسجد من المساجد. وكانت تلك الحلقات منتشرة، منذ العصور الأولى، فى المساجد الجامعة، بالحجاز والشام والعراق والقيروان وقرطبة، وغيرها من المناطق والممالك الإسلامية، وعواصمها ومدنها.

---

(١) انظر صفحة ٧ من الجزء الأول من (إحياء علوم الدين)، لمؤلفه الغزالى (أبى حامد محمد بن محمد بن محمد)، المتوفى سنة ٥٠٥هـ/ ١١١٢م، ٤ أجزاء، المطبعة الميمنية بالقاهرة، سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م.

(٢) انظر صفحتا ٢٥٧ و٢٥٨ من الجزء الأول من (وفيات الأعيان) لابن خلكان طبعة المطبعة الأميرية.

وسمى الدرس «حلقة» لأن الطلاب كانوا «يتحلقون»، أى ينتظمون فى شبه عقد أو حلقة حول شيخهم، وكانت الحلقة تضيق أو تتسع أو تتضاعف تبعًا لعدد الطلاب. ومن ذلك ما ذكر أن أبا بكر النعّالى، المتوفى سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م، وكان إمام المالكية بمصر، كان يدرس بمسجد عمرو العتيق، «وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عمودًا لكثرة من يحضرها»[١].

وكان كل شيخ يستند إلى «سارية»[٢]. أى إلى «أسطوانة»[٣]. وكانت هذه الأسطوانة تظل وقفًا عليه «ما ظلّ قائمًا» بالتدريس فى المسجد، وكانت كثيرًا ما تبقى مشهورة باسمه بعد وفاته. قيل: إن إبراهيم بن محمد نفطويه، المتوفى سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م، «وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهانى» كان يجلس للتدريس «إلى أسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محله منها»[٤]. وكان مجلس الشيخ يسمى أحيانًا «طاقا»، ومن ذلك ما ذكره ابن خلكان من أن الشيخ محمد بن عبد الحكم ترك الطاق الذى كان يدرّس فيه الإمام الشافعى، واتخذ طاقًا آخر، وأن الشيخ البويطى أسرع بالجلوس فى الطاق الذى كان يجلس فيه الشافعى للتدريس[٥]. أى أن الطاق أو الأسطوانة كانت تعين باسم الشيخ المستند إليها، وكانت تحتفظ بشهرته واسمه، حتى بعد وفاته. وكانت هذه الأسطوانة موضع اعتبار الطلاب، إذا قدم الشيخ إليها سمعوا أحدهم ينادى فيهم أن «دوروا وجوهكم نحو المجلس»[٦]. وكان المدرس يجلس أحياناً فى المحراب، قيل إنه كان بالمسجد الأموى بدمشق، ثلاثة محاريب، «وقف فى كل محراب منها وقف على مدرس وجماعة من الفقهاء من المذاهب الثلاثة، كل طائفة فى

---

(١) انظر صفحة ٢١٢ من الجزء الأول من كتاب (حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة) لمؤلفه السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) المتوفى سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م، ٤ أجزاء طبع المطبعة الشرقية بالقاهرة، ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م.

(٢) انظر صفحة ٢٦٠ من (رحلة) ابن جبير، المتوفى سنة ٥٥٩هـ / ١٢٠٢م، نشر الدكتور حسين نصار، مكتبة مصر، ١٩٥٥م.

(٣) انظر صفحة ٣٤١ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٤) انظر صفحة ٣٠٨ من الجزء الأول من (معجم الأدباء) لياقوت الحموى، انظر الحاشية (٣) من صفحة ١٤٧ فيما بعد.

(٥) انظر صفحة ٦١ من الجزء السادس من (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، (طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد).

(٦) انظر صفحة ٢٠٥ من الجزء الأول من (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) لمؤلفه المقدسى، (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى، المعروف بالبشارى والمشهور بالمقدسى، المتوفى حوالى سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م (الجزءان الثالث والرابع من المكتبة الجغرافية العربية)، طبع ليدن سنة ١٨٧٧م.

محرابهـا»[1]. وسميت الحلقة «زاوية» فى بعض روايات المؤرخين، ومن ذلك ما روى المقريزى من أنه كان بمسجد عمرو العتيق «زوايا يدرس فيها الفقه»[2]، وما رواه ابن جبير من أنه كان للمالكية فى المسجد الأموى بدمشق «زاوية» للتدريس فى الجانب الغربى[3].

كان التدريس إذن قائمًا فى المساجد، منذ صدر الإسلام، وكان للعلماء فيها حلقات، وكانت هذه الحلقات مأهولة بالطلاب، وكانت منتشرة فى جميع عواصم العالم الإسلامى. وفى مصر، كانت تلقى الدروس فى مسجد عمرو وفى المسجد الطولونى وفى مسجد الأزهر وفى مسجد الحاكم. وتعددت الحلقات فى المسجد الواحد. ولم تكن هذه الحلقات مقصورة على علوم الدين، فكان يجلس للتدريس بها علماء كذلك فى اللغة والنحو والتاريخ وغيرها من العلوم النقلية.

روى المؤرخون أنه كان بمسجد عمرو العتيق «زوايا» وحلقات عديدة[4]، وأن عدد هذه الحلقات بلغ فى نهاية القرن الرابع (القرن العاشر الميلادى) «مائة وعشر حلقات»[5]. وبلغ هذا العدد فى منتصف القرن الثامن والرابع عشر الميلادى «بضعًا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه»[6]. وظل عدد الشيوخ الذين يدرّسون به وعدد الفقهاء الذين يدرسون به كبيرًا فى العصور المتعاقبة[7]. وكذلك كان الحال فى الجامع الأزهر[8]، بل إن عدد الحلقات فيه أخذ يتزايد تزايدًا عظيمًا حتى أصبح عدد الفقهاء به لا يحصى كثرة[9]. وكانت الدروس تلقى كذلك فى المسجد الطولونى[10]،

---

(١) انظر صفحة ١٩٥ من الجزء الأول من (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) لمؤلفه العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل) المتوفى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م.

(٢) انظر صفحة ٢٥٥ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٣) انظر صفحة ٢٦٠ من (رحلة) ابن جبير وكان بداخل صحن الجامع الأموى دار للحديث، وانظر صفحة ٨٢ من كتاب (الدارس فى تاريخ المدارس) (لعبد القادر النعيمى).

(٤) انظر صفحة ٢٥٥ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٥) انظر صفحة ٢٠٥ من الجزء الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى.

(٦) انظر صفحة ٢٥٥ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٧) انظر صفحة ٢٧٧ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٨) انظر الصفحة المشار إليها فى الحاشية السابقة.

(٩) فى كتاب (تاريخ الجامع الأزهر) لمؤلفه (محمد عبد الله) عنان، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٨م، بحث مستفيض عن الدراسة بالجامع الأزهر، وحلقاته، انظر خاصة الصفحات من ٣٩ إلى ٤٤ ومن ٦٠ إلى ٧٥ ومن ٨٦ إلى ٩٠، وانظر، مثلا، صفحتا ٢٧٧ و٣٤١ من الجزء الثانى من (الخطط).

(١٠) انظر صفحة ١٣٩ من الجزء الثانى من (حسن المحاضرة) للسيوطى.

وفى مسجد الحاكم، وتعددت كذلك بهما الحلقات[1]. ولم يقتصر الأمر على هذه المساجد الجامعة، فقد كانت الدروس تلقى، وكانت الحلقات تتعدد كما سنرى، فى غيرها من المساجد فى القاهرة، وفى جميع أنحاء العالم الإسلامى. وبقى التدريس قائمًا قرونًا طويلة منذ العصر الأول، وما زال قائمًا فى بعضها حتى وقتنا هذا.

٢
دور العلم والحكمة

وإلى جانب المساجد أنشئت دور للعلم والحكمة. روى المقريزى عن الواقدى أن «عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجرًا إلى المدينة مع مصعب بن عمير، رضى الله عنهما، وقيل قدم بعد بدر بيسير، فنزل دار القراء»[2]، أى أنه كان بالمدينة، وفى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، دار مخصصة للدرس والقراءة، وهذه أول إشـارة فيما نعلم إلى مثل هذه الدار. ثم إنه كانت تعقد مناظرات فى دور الخلفاء والأمراء والولاة والعلماء[3]. ومن أكثر هذه المناظرات شـهرة تلك التى كانت تعقد فى عهد المأمون وفى قصره.

ولم تكن هذه المناظرات أو المجالس دورًا مخصصة للدرس والتدريس، ولكنها كانت مراكز علم على كل حال. ومثلها كانت بيوت الحكمة أو دور العلم، أنشأها الخلفاء وجمعوا فيها أمهات الكتب، فكانت أشبه بدور للكتب. غير أنه كانت تلقى الدروس بها أحيانا. ومن ذلك «بيت الحكمة» الذى أنشأه الرشيد فى بغداد، حوالى سنة ١٨٥هـ / ٨٠١م، ودعمه من بعده المأمون[4]. ومن ذلك دار العلم بالموصل، أنشأها فى سنة ٣٣٣هـ / ١٩٤٥م أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي، وكان ابن حمدان هذا يملى على الناس فيها من شعره وشعر غيره وحكايات مستطابة وطرفًا من الفقه وما يتعلق به»[5]. ومن ذلك كذلك ما رواه المقريزى من أنه فى ١٠ من

(١) انظر صفحة ٢٧٨ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٢) انظر صفحة ٣٦٢ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٣) انظر صفحـات ٥٤ إلى ٥٩ من الجزء الثانى من (ضحى الإسلام) تأليف (أحمد أمين)، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٦١م.

(٤) انظر صفحات ٥٩ إلى ٦٦ من المرجع السابق ذكره؛ وصفحتا ١٩ و٢٠ من كتاب (المدرسة المستنصرية) تأليف (الدكتور حسّين أمين)، مطبعة شفيق ببغداد، ١٩٦٠م.

(٥) انظر صفحة ٤٢٠ من الجزء الثانى من (كتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) المعروف بـ (معجم الأدباء) أو (طبقات الأدبـاء) لمؤلفه ياقوت (شهاب الديـن الحموى الرومـى)، المتوفـى سـنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، طبعـة مرجوليـوث، ليدن، ١٩٠٧م – ١٩١١م.

جمادى الآخرة من سنة ٣٩٥هـ / ٢٣ مايو ١٠٠٥م «فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعليم..»[1]. كل ذلك في عهد الحاكم بأمر الله، وفي رواية أخرى يسمى المقريزي هذه الدار «دار العلم»[2].



التدريس بأجر «معلوم» ودور سكنى الطلاب

كان التدريس مباحًا لكل من يعهد في نفسه القدرة عليه، وكثيرًا ما يحدثنا المؤرخون أن شيخًا من الشيوخ «تصدر للتدريس» بمسجد من المساجد و «تكاثر عليه الطلبة فيه»[3]. وكان الاستماع إلى الدرس كذلك مباحًا لكل من رغب فيه، وكان «الطلبة والعلماء يتعلمون ويعلّمون على حسابهم الخاص»[4]، إلا ما كان يمنحه الخلفاء والأمراء والولاة وأثرياء القوم لبعض هؤلاء وأولئك. وظل الأمر على ذلك فترة طويلة من الزمن. وكانت أول خطوة من قبل الخلفاء والولاة للتدخل في شئون التدريس هي، ما رأينا، من إنشاء دور العلم وبيوت الحكمة. ثم حدث أن يعنوا بعض العلماء للتدريس مقابل راتب محدود. روى المقريزي أن الخليفة المعتضد بالله، وهو الذي ولي الخلافة من سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م إلى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢م، لما أراد «بناء قصره في الشماسية ببغداد، استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد، فسُئل عن ذلك، فذكر أنه يريده ليبني فيه دورًا ومساكن ومقاصير، يرتب في كل موضع، رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعلمية، ويجري عليهم الأرزاق السنية، ليقصد كل من اختار علمًا أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه»[5].

---

(١) انظر صفحة ٤٥٨ من الجزء الأول وصفحة ٣٤٢ من الجزء الثاني من (الخطط).

(٢) انظر صفحة ٣٤١ من الجزء الثاني من (الخطط).

(٣) انظر، مثلا، صفحات ١٦٨ و١٩١ و٢١٦ و٢١٧ من الجزء الأول من (حسن المحاضرة) للسيوطي.

(٤) انظر صفحة ٦٧ من الجزء الثاني من (ضحى الإسلام) تأليف (أحمد أمين).

(٥) انظر صفحة ٣٦٣ من الجزء الثاني من (الخطط).

ولهذه الرواية أهمية قصوى، إذ إنها تربط بين إقامة دور ومساكن مخصصة للتدريس ولسكنى المدرسين أو الطلاب، وبين إجراء الرواتب لهم. ويضيف المقريزى إلى ذلك قوله: «إن أول ما عرف إقامة دْرس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر فى خلافة العزيز بالله بن نزار بن العز ووزارة يعقوب بن كلس»[1]. وكان ذلك فى سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م، أى بعد مائة سنة من الإجراء الذى كان قد اتخذه المعتضد بالله. وكذلك بنى العزيز بالله، فى نفس الوقت، كما كان قد فعل المعتضد بالله، «دارًا» بجوار الأزهر لجماعة من الفقهاء، وكانوا يحضرون مجلس الوزير يعقوب بن كلس، وكان عددهم «خمسة وثلاثين فقيها»[2]، ورتب الخليفة «لكل واحد منهم ما يكفيه من الرزق الفائض». ويفهم من رواية المقريزى أن ذلك «المعلوم» كان يجرى على المدرسين والطلاب على السواء. وإن صحت رواية المقريزى هذه، وليس هنالك ما يبرر الشك فيها، فإنها تدل على أن إنشاء الدور لسكنى الطلاب وإجراء الأرزاق عليهم، وكذلك تحديد رواتب للرؤساء، أى الشيوخ والمدرسين، كان متبعًا من قبل الخلفاء والولاة والحكام، منذ عهد المعتضد بالله على الأقل، أى منذ أواخر القرن الثالث الهجرى.

أما عن مكان التدريس فإن المقريزى لم يعينه صراحة بالنسبة لبغداد، ولكنه سجله بالنسبة للقاهرة، إذ أضاف إلى روايته أن الفقهاء الذين كانوا يسكنون الدار التى بناها لهم العزيز بالله، كانوا «يتحلقون» فى مسجد الأزهر الجامع بعد صلاة الجمعة[3].

ثم كثرت إشارات المؤرخين إلى «الأجر المعلوم» بعد عهد العزيز بالله. ويذكر السبكى أن نظام الملك، الوزير السلجوقى الذى توفى بعد العزيز بالله بقرن من الزمان، كان يجرى «المعاليم» على الفقهاء والطلبة، غير أنه يشك فى الادعاء بأنه كان أول من قدرها وأجراها[4]. وشاع التدريس بأجر أو راتب «معلوم» فى العالم الإسلامى منذ ذلك العهد، أى منذ أوائل القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى). وكثيرًا ما يحدثنا المؤرخون أن سلطانًا أو أميرًا بنى مسجدًا وعين به مدرسًا بأجر معلوم. ومن ذلك أن الأمير زين الدين أبا الحسن على بن بكتكين، والد الملك المعظم مظفر الدين، عين الشيخ يونس بن محمد بن منعه مدرسًا بمسجده بالموصل[5]، وكان ذلك فى منتصف القرن السادس

---

(١) انظر الصفحة المشار إليها فى الحاشية السابقة.

(٢) انظر صفحة ٣٤١ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٣) انظر الصفحة المشار إليها فى الحاشية السابقة.

(٤) انظر صفحة ١٣٧ من الجزء الثالث من (طبقات الشافعية الكبرى) لمؤلفه السبكى (أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين)، المتوفى سنة ٧٧١هـ / ١٣٧٠م، ٦ أجزاء، طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة، سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م

(٥) انظر صفحة ٤١٩ من الجزء الثانى من (وفيات الأعيان) لابن خلكان.

(الثانى عشر الميلادى). وفى سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٣م أمر نور الدين زنكى ببناء مسجد بالموصل، وهو المعروف بالجامع النورى «ورتب فيه خطيبًا ومدرسًا»[1]. وروى ابن جبير أنه كان بالمسجد الأموى بدمشق «حلقات التدريس للطلبة، وللمدرسين فيها أجراء واسع»، كما روى أنه شاهد عند زيارته لهذا المسجد فى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م، فقيهًا شهيرًا من أهل إشبيلية معروفًا بالمزادىّ، وكان هذا الفقيه يستند إلى سارية من سوارى المسجد، وكان لهذه السارية «وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس»[2].

ورتب السلطان منصور قلاوون «درسًا للحديث النبوى ودرسًا للتفسير»، وذلك بالقبة المنصورية، أى بضريحه، وكان ذلك حوالى سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٥م[3]. وفى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م، رتب الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى مسجد الحاكم، «دروسًا أربعة لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، ودروسًا لإقرار الحديث النبوى، وجعل لكل درس مدرسًا وعدة كثيرة من الطلبة»[4].

كان ترتيب المدرسين، أى تحديد راتب لكل منهم، وتعيين أجر «معلوم» للطلاب، هو الخطوة التاريخية الثانية التى اتخذها الخلفاء والولاة للتدخل فى شئون التدريس، وكان الدافع إليها إما تكريمًا لشيخ جليل، أو تعبيرًا لحظوته لديهم، وإما رغبةً فى تشجيع المدرسين والطلاب، ومعاونتهم على التفرغ للتدريس والدرس، وإما تمييزًا لفريق منهم لأسباب دينية أو سياسية[5].



٤ إنشاء المدارس

كثرت إشارات المؤرخين إلى ترتيب الأجر المعلوم بعد بداية القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى)، وكذلك كثرت إشاراتهم فى الوقت نفسه إلى إنشاء دور لسكنى الفقهاء، ولكنهم بدءوا يطلقون على هذه الدور اسم المدارس.

(١) انظر صفحة ٤٨٠ من الجزء الأول، القسم الثانى، من كتاب (الروضتين) لمؤلفه أبو شامة.

(٢) انظر صفحة ٢٦٠ من (رحلة) ابن جبير.

(٣) انظر صفحة ٣٨٠ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٤) انظر صفحة ٢٧٨ الجزء الثانى من (الخطط).

(٥) ومن ذلك ما روى من أن الشيخ أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى اتهم بالتشيع فأخرج من المدرسة النظامية، وكان مرتبًا لتدريس النحو بها، وتوفى سنة ٥١٦هـ (انظر صفحة ٤١٥ من الجزء الخامس من (معجم الأدباء) لياقوت.

وقد وردت أول إشارة إلى المدارس، فيما نعلم، فى جملة عابرة فى كتاب «أحسن التقاسيم» للمقدسى، الذى ألفه فى سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م، وذلك فى المقدمة التى وصف فيها المؤلف العناء الشديد الذى كان يلاقيه فى جمع مادة كتابه، قال إنه «تفقه وتأدب وتزهد وتعبد»، وإنه فقّه وأدّب، وخطب على المنابر وأذن على المنائر، وأمّ فى المساجد، وذكّر فى الجوامع، واختلف إلى «المدارس»[1]. ووردت كذلك إشارة أخرى إلى المدارس فى رسائل الهمذانى، وهو المتوفى سنة ٣٨٩هـ / ١٠٠٨م[2]، وقيل إن الأمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله أنشأ المدرسة الصادرية فى دمشق فى سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م[3]. وكان المتوارد أن المدارس لم تنشأ إلا بعد هذا التاريخ بسنوات[4].

روى المقريزى رواية مشهورة عن نشأة المدارس جاء بها، «والمدارس مما حدث فى الإسلام، ولم تكـن تعـرف فى زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سـنى الهجرة. وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسـة فى الإسـلام أهل نيسـابور، فبنيت المدرسـة البيهقية، وبنى بها أيضًا الأمير نصر الدين بن سـبكتكين مدرسـة، وبنى بها أخو السـلطان محمود بن سـبكتكين مدرسـة، وبنى بها أيضًا المدرسـة السـعدية، وبنى بها أيضًا مدرسـة رابعة»[5]. ويفهم من نص المقريزى أن أول مدرسـة بنيت فى الإسـلام هى المدرسـة البيهقية، والمعروف أن أبا بكر البيهقى، الذى سميت المدرسـة باسمه، توفى سـنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م، أو سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م[6]، فتكون هذه المدرسة قد بنيت قبل هذا التاريخ بعشرين أو ثلاثين سـنة على الأكثر. غير أنه قد جاء فى كتاب الصفدى أنه بنيت فى نيسابور مدرسة لأبى بكر محمد بن الحسن بن فُورَك المتوفى سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م[7]، وإن صح ما ذكره الصفدى، تكون

---

(١) انظر صفحة ٤٤ من كتاب (أحسن التقاسيم)، الطبعة الثانية، ليدن ١٩٠٦م.

(٢) وذلك فى رسالة إلى ابن أخته، انظر صفحة ٢٤٧ من (كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان) (الهمذانى)، نشر الطرابلسى (إبراهيم أفندى الأحدب)، المطبعة الكاثوليكية فى بيروت، سنة ١٩٢١م.

(٣) انظر صفحة ٩ من (نشأة المدارس المستقلة فى الإسلام)، بحث موجز نشره (ناجى) معروف، مطبعة الأزهر، بغداد، ١٩٦٦، نقلاً عن المنجد (صلاح الدين) فى مقدمة كتاب (دور القرآن فى دمشق)، لمؤلفه النعيمى.

(٤) هذا وكان المؤرخون قد أشاروا من قبل إلى دور شديت أو حولت إلى دور علم، وأودعت فيها خزائن الكتب، وزود بعضها بغرف الطلاب، ولكن أحدًا من هؤلاء المؤرخين لم يطلق على هذا الدور اسم المدارس. ومن ذلك ما جاء مثلاً فى صفحة ١٧١ من الجزء الثانى من (معجم البلدان) لياقوت الحموى من أن أبا حاتم البستى شيد حوالى سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م دارًا فى بلدة بست، وجعل فيها خزانة كتب وبيوت للطلبة.

(٥) انظر صفحة ٣٦٢ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٦) انظر صفحة ٢١ من (المدرسة المستنصرية) تأليف الدكتور (حسين أمين).

(٧) انظر صفحة ٣٤٤ من الجزء الثانى من (كتاب الوافى بالوفيات) تأليف الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك)، المتوفى سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م، ٤ أجزاء نشرت فى إستانبول، طبعة وزارة المعارف، سنة ١٩٣١م إلى ١٩٥٤م.

هذه المدرسة أقدم عهدًا من المدرسة البيهقية. ويفهم من نص المقريزى كذلك أن الأمير نصر الدين ابن سبكتكين، وهو أخو السلطان محمود الغزنوى، بنى أربع مدارس، غير أن أحدًا من المؤرخين لم يشر إلى أن هذا الأمير بنى مدرسة غير المدرسة السعدية[1]. وقد أشار السبكى إلى مدارس أخرى بنيت فى نيسابور، وهى المدرسة التى بناها «أبو سعيد إسماعيل بن على بن المثنى الأستراباذى الواعظ الصوفى شيخ الخطيب»، والمدرسة التى بنيت «للأستاذ أبى إسحاق الإسفراينى»، المتوفى سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، والتى «لم يبن قبلها نيسابور مثلها»[2]، والمدرسة التى بناها أبو بكر البستى، المتوفى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، لأهل العلم على باب داره بنيسابور» كذلك[3].. وذكر ناصر خسرو أنه شاهد العمال يشيدون مدرسة «بقرب سوق السراجين»، وأن الذى أمر ببنائها هو السلطان السلجوقى طغرل بيك، وكان ذلك أثناء رحلته إلى نيسابور فى شهر شوال من سنة ٤٣٧هـ/ أبريل ١٠٤٦م[4]. وذكر المؤرخون أن المدارس انتشرت بعد ذلك، لأن نظام الملك، وهو الوزير السلجوقى المشهور الذى توفى سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، أخذ ينشىء المدارس منذ توليه الوزارة فى سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، فبنى «ببغداد مدرسة ورباطًا.. وبنى مدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة ومدرسة بإصفهان ومدرسة بالبصرة ومدرسة بمرو ومدرسة بأمل طبرستان ومدرسة بالموصل»، وقيل إنه كان «له فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة»[5].

ويحدثنا ابن جبير أنه شاهد فى دمشق وحدها عشرين مدرسة[6]، وفى حلب ست مدارس[7]، وفى الموصل ست مدارس كذلك[8]، وفى بغداد ثلاثين مدرسة[9]، وكان

---

(١) إلا أن يكون المقريزى قد أخطأ، فى جمع عدد المدارس التى ذكرها فسجلها (أربعًا) وهى (خمس). وعلى كل حال فإن المقريزى قد خلط بين الأمير نصر الدين وأخى السلطان محمود، وجعلها شخصين، نسب إلى الأول منهما بناء مدرسة، وإلى الثانى بناء مدرسة أخرى، وخلط بين المدرسة التى بناها نصر الدين والمدرسة السعدية وجعلهما مدرستين، وهما مدرسة واحدة. انظر صفحة ١٣٧ من الجزء الثالث من (طبقات الشافعية الكبرى) لمؤلفه السبكى.

(٢) انظر صفحة ١١١ من الجزء الثالث من (طبقات الشافعية الكبرى) لمؤلفه السبكى.

(٣) انظر صفحة ٣٣ من الجزء المشار إليه فى الحاشية السابقة.

(٤) انظر صفحة ٢ من (سفر نامه) تأليف (ناصرو) خسرو، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٥م.

(٥) انظر صفحة ١٣٧ من الجزء الثانى من (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكى.

(٦) انظر صفحة ٢٣٢ من (رحلة) ابن جبير.

(٧) انظر ٢٠٥ من من (رحلة) ابن جبير.

(٨) انظر صفحة ١٨٩ من المرجع السابق.

(٩) انظر صفحة ١٨٣ من المرجع السابق

ذلك فـي أوائل سـنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م - ١١٨٥م. وقيل: إنه أنشـيء أثناء العصر الأيوبى خمسـون مدرسة فى دمشـق، واثنتان وعشرون مدرسـة فى حلب[1]. أما فى مصـر فقد رأينا فيما سـبق أنه أنشـيء بها أربـع مدارس فى العصـر الفاطمى اثنتان بالإسـكندرية واثنتـان بالقاهرة، وأن عدد المدارس المنشـأة فى العصـر الأيوبى بلغ، فيما نعرف من روايات المؤرخين، أربعًا وعشـرين مدرسة فى مصر الفسطاط والقاهرة، ومدرستين بالفيوم[2].

اتفق المؤرخون إذن على اعتبار نيسابور الوطن الذى نشأت المدارس فيه، أو على الأصح انتشرت منه، وذلك بعد «الأربعمائة» من سنى الهجرة (أوائل القرن الحادى عشر الميلادى). وذكـر المؤرخـون أن أقدم ما عرف من هذه المدارس عهدًا هى، فى قول، مدرسـة ابن فُورَك، قبيل سـنة ٤٠٦هـ / ١٠٢٥م، وفى قول آخر، المدرسـة البيهقية وتاريخها غير معروف. وقد رأينا فيما سبق أنه قد أشير إلى المدارس قبل ذلك، فى سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م، وأن المدرسة الصادرية فى دمشق أنشئت فى سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م، ومن المحتمل أن المدارس، بالمعنى الذى عرفت به عند المؤرخين وعلماء الآثار كانت أقدم عهدًا. وسـنرى أن هذا المعنى لم يكن واضحًا لهم كل الوضوح، وسنحاول أن نزيده إيضاحًا.



٥ وظائف المدرسة

يبدو من اسم المدرسة أن وظيفتها الرئيسية كانت التدريس، لأن المدرَس لغة، هو الموضع الذى يدرّس فيه[3]. ولكننا قد رأينا أن المسجد هو الذى كان موضع الدرس، وأن التدريس كان قائمًا بالمساجد، وظل قائمًا بها، قبل ذكر المدارس، وبعد إنشائها. فهل أنشئت المدارس لتكون مواضع للتدريس بالإضافة إلى المساجد؟ أو أنشئت لغير ذلك الغرض؟ أو أنشئت لغاية تجمع بين التدريس وأغراض أخرى؟

(١) انظر صفحتا ٢٠٥ و ٢٣٢ من المرجع السابق.

(٢) انظر صفحة ٥٠ وما يليها فيما سبق.

(٣) انظر صفحة ٣٦٢ من الجزء الثانى من (الخطط).

قيل: إن السبب فى إنشاء المدارس وتخصيصها بهذه التسمية، كان لمناهضة الشيعة ونشر السنة، وإعداد أئمة يختصون بالوعظ بها[1]. ولكن هذا الرأى لا يعنى أن المدارس كانت مقصورة على التدريس، وإلا ما كانت الحاجة تدعو إلى إنشائها، إذ كان المسجد وحده كفيلا بتحقيق هذا الغرض، وكانت المذاهب السنية الأربعة تدرّس بالمساجد، ومن ذلك مسجد ابن طولون، قيل: إنه لما عمره السلطان لاجين فى سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٨٩م، «رتب فيه دروسًا على المذاهب الأربعة، ودرسًا لتفسير القرآن، وآخر للحديث، وآخر للطب، وقرر له الخطيب والمؤذنين وسائر الخدمة، وأنشأ بجواره مكتبًا»[2]. وكذلك فعل الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فإنه عندما جدد مسجد الحاكم فى سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، «رتب فيه دروسًا أربعة إقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة.. وجعل لكل درس مدرسًا وعدة كثيرة من الطلبة»، بل إنه رتب فى فى نفس الوقت وفى نفس المسجد مدرسين لتدريس الحديث والنحو والقراءات، «وعمل فيه خزانة كتب جليلة»[3].

تؤكد الروايات التاريخية أن المسجد الجامع كان معدًّا إعدادًا كاملا للتدريس، وكان التدريس فيه لا يقتصر على مدرس واحد أو على مذهب واحد. وقد رأينا فيما سبق أن عدد حلقات التدريس بمسجد عمرو العتيق بلغ مائة وعشر حلقات فى نهاية القرن الرابع (العاشر الميلادى)، أى قبل ورود ذكر المدارس فى كتب المؤرخين[4]. واستمر الحال كذلك من تعدد الحلقات فى المسجد الواحد إلى عصرنا هذا. وكذلك كثيرًا ما أشار المؤرخون إلى وجود خزانات «جليلة» للكتب فى المساجد الجامعة قبل القرن الرابع وبعده. ومن هذا يتضح أن الغرض من إنشاء المدارس لم يكن لسد نقص فى التدريس أو لملء فراغ فى أدواته، وهى الكتب، وإنما أنشئت المدارس لتحقيق غرض آخر ما كان المسجد الجامع وحده، بنظامه التقليدى المعروف، يوفى به أو يتحمل وسائله.

كانت وظيفة المدرسة الأولى، كما سنرى، إعداد مكان ملحق بموضع التدريس، وهو المسجد الجامع، لسكنى طبقة مختارة من المدرسين والطلاب، أو لسكنى الشيوخ والفقهاء، أو على الأصح، كان الغرض من إنشاء المدرسة هو إعداد المسجد الجامع، الذى يتحلق فيه الفقهاء، بحيث يضم، فى الوقت نفسه، بيوتًا لسكناهم، ومنافع عامة تتطلبها هذه السكنى. وسنرى أن النصوص التاريخية والأثرية توضح هذه الحقيقة.

---

(١) انظر صفحة ٤١٥ من الجزء الخامس من (معجم الأدباء) لياقوت.

(٢) انظر صفحة ٣١ من الجزء الأول (من الخطط التوفيقية الجديدة) لمؤلفها (على مبارك).

(٣) انظر صفحة ٢٧٨ من الجزء الثانى من (الخطط).

(٤) انظر صفحة ١٤٥ فيما سبق.

وأقدم هذه النصوص التى وصلت إلينا، وأكثرها إيضاحا لوظيفة المدرسة، هى، فيما أعرف، ما جاء فى كتاب «الحوادث الجامعة» عن المدرسة المستنصرية فى بغداد، وهو الكتاب المنسوب إلى ابن الفوطى، المتوفى سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م، وكذلك ما رواه ابن الفوطى نفسه فى كتاب «تلخيص مجمع الأدباء فى معجم الألقاب»[1]. والمدرسة المستنصرية قائمة إلى اليوم منذ افتتاحها فى يوم ٥ رجب من سنة ٦٣١هـ / ٦ أبريل ١٢٣٤م. وقد جاء فى روايتى ذلك المؤرخ عن حفل افتتاح هذه المدرسة وعن شروط واقفها أن الخليفة المستنصر بالله جعلها أصلاً للمذاهب الأربعة، وألحق بها دارًا للحديث، وأنه كان بها مدرسون وطلاب يشتغلون كذلك بعلوم الطب والفرائض والحساب[2]، وأنه تخير لكل مذهب «من المذاهب الأربعة» اثنين وستين نفسا، ورتب لها مدرسين، لكل مذهب مدرس، وكان لكل مدرس نائب، وكان لهم معيدون، «لكل مذهب أربعة»، وكان لكل مدرس «سدة» يذكر دروسه من عليها، وكان النائب يجلس تحت السدة[3].

ويمضى صاحب «الحوادث الجامعة» فى روايته فيقول، وقسمت أرباع المدارس، «فسلم ربع القبلة الأيمن إلى الشافعية، والربع الثانى يسره القبلة للحنفية، والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة، والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية؛ وأسكنت بيوتها وغرفها، وأجرى لهم الجراية الوافرة»[4]. ويلاحظ أولا أن هذا الكاتب وصف المدرسة المستنصرية بأنها مدارس، كما وصف المقريزى المدرسة الصالحية بالمدارس. فكأن المدرسة المستنصرية وحدة واحدة من حيث البناء، جملة مجموعة من حيث الوظيفة. ولم يحدث من قبل، ولا من بعد، أن سمى مسجد واحد باسم الجمع، ولو تعددت فيه الدروس والمذاهب والحلقات، لأن وظيفته الأساسية، وهى الصلاة، واحدة، ولأن التدريس به واحد، مهما اختلفت المذاهب، أو تعددت الحلقات. وكذلك الحال بالنسبة للمدارس، كانت المدرسة تسمى فردية، سواء أكانت تخصص لمذهب واحد، مثل مدرسة أبى حنيفة ببغداد والمدرسة الشريفية بمصر

---

(١) يراجع البحث المستفيض الذى أجراه الأستاذ (ناجى) معروف عن هذه المدرسة ونشره فى سنة ١٩٥٩م بعنوان «تاريخ علماء المستنصرية» وأخرجه فى طبعة ثانية فى مجلدين، مطبعة العانى، بغداد ١٩٦٥م. والأستاذ ناجى معروف محق فى قوله «إنه يعتقد أن المدرسة لم تطلق إلا على المكان الذى فيه بيوت للطلبة ومعاليم، أى مرتبات وجرايات دارة عليهم ولمن يقوم بالتدريس فيها»، انظر الحاشية رقم ١٥، صفحة ١١٠ من الجزء الأول من «تاريخ علماء المستنصرية»

(٢) صفحات ٥٥ إلى ٥٨ من «الحوادث الجامعة» المنسوب لابن الفوطى (كمال الدين أبو الفضل الشيبانى) المتوفى سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م، نشره الأستاذ مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م.

(٣) انظر صفحة ٥٧ من المرجع السابق. والسدة، لغة، معناه «الباب» أو ما بين يدى الباب، أما المقصود بها فى هذه الرواية فهو الكرسى، تنظر صفحة ٢٦١ من الجزء الثانى من «تاريخ علماء المستنصرية» للأستاذ (ناجى) معروف.

(٤) انظر صفحة ٥٨ من «الحوادث الجامعة» المنسوب لابن الفوطى.

الفسطاط، أم لمذهبين، مثل المدرسة الفاضلية، وهى أقدم مدرسة أنشئت بالقاهرة لفقهاء مذهبين، والمدرسة المرجانية ببغداد والمدرسة الظاهرية بدمشق، أو كانت لثلاثة مذاهب، أو أنواع من الدروس، مثل المدرسة القطبية الثانية بمصر الفسطاط، التى أوقفت على فقهاء المذهبين الشافعى والحنفى وعلم القراءات[1]، أو لأربعة مذاهب مثل المدرسة المنصورية، التى أنشأها فى سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م السلطان الملك المنصور قلاوون، والتى كان يدرس بها الطب كذلك[2].

لم يكن التدريس إذن وتشعبه فى المدرسة المستنصرية هو الذى دعا «صاحب الحوادث الجامعة» إلى تسميتها بالمدارس، وكذلك لم يكن التدريس وتعدد مذاهبه، هو الذى جعل بنّاء المدرسة الصالحية بالقاهرة يطلق عليها صفة المدارس ويسجل هذه التسمية فوق بوابتها على اللوحة التأسيسية لتاريخ البناء[3]. ولكن رواية المؤلف البغدادى أكثر وضوحًا من سجل لوحة إنشاء المدرسة الصالحية، ومن رواية المقريزى عن هذه المدرسة. إذ أنه يحدد معنى تقسيم المدرسة المستنصرية إلى أربع مدارس أو إلى أربعة أرباع، بقوله: «وأسكنت بيوتها وغرفها» أى أنها قسمت أربعة أرباع لسكنى الفقهاء، لا لإلقاء الدروس فحسب. إذ كان لكل مدرس «سدة»، وكان نائب المدرس يجلس تحت السدة، ولم يحدد المؤرخ موضع هذه السدد الأربع من البناء، وهى كراسى يتحلق الطلاب من حولها، وأغلب الظن أنه لم يكن لكل سدة موضع ثابت فى البناء، وأن المدرس كان يختار هذا الموضع وفقًا للظروف، تارة فى بيت الصلاة، وتارة فى قاعة من قاعات الطابق الأرضى للبناء، وتارة فى إيوان مفتوح على البهو، تغمره الشمس شتاء، أو يستلطف مناخه ربيعًا[4].

ويؤكد هذا المعنى، أى ارتباط تقسيم المدرسة المستنصرية بسكنى طلابها، مقارنة نظام المدرسة المعمارى بما أورده صاحب «الحوادث الجامعة»، من أن الخليفة المستنصر بالله اشترط «أن يكون عدة الفقهاء مائتين وثمانية وأربعين متفقهًا، كل طائفة اثنان وستون، بالمشاهرة الوافرة والجراية الدارية واللحم الراتب والمطبخ الدائر، إلى غير ذلك، من الحلواء والفواكه والصابون والبرز والفرش والتعهد»[5]. ونظام بناء المدرسة يحقق شروط هذه الوقفية، شكل (٤٤).

وبالرغم من التعديلات التى أدخلت على نظام المدرسة فى العصور الحديثة، وخاصة فى طرفيها الشمالى والغربى، فإنه يمكن الاستدلال على حالها الأصيل بصورة واضحة

---

(١) انظر صفحة ٥٣ فيما سبق.

(٢) انظر صفحة ٣٧٩ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٣) انظر صفحتا ٦٧ و ٦٨ فيما سبق.

(٤) ظن المستشرقون أن وظيفة المدرسة مقصورة على التدريس، وأن نظم التدريس كانت تجرى فى القرن الخامس عند إنشاء المدارس مجراها اليوم فى قاعات التدريس فى الجامعات والمعاهد، وحسبوا أن تدريس المذاهب يتطلب تخصيص قاعة أو (إيوان) لكل مذهب.

(٥) انظر صفحة ٥٨ من «الحوادث الجامعة» المنسوب لابن الفوطى.

أكيدة مما تبقى من أبنيتها على نظامه القديم، وهى الأقسام التى تشمل ضلوعها الجنوبية، أى القبلية، والشرقية والشمالية، سواء فى الطابق الأرضى أو فى الطابق الذى يعلوه، شكل (٤٥)[1]. ويلاحظ فى هذا النظام أن المسجد يحتل منتصف الضلع الجنوبى، وإن كانت القبلة فيه منحرفة نحو الغرب بمقدار ثمانى عشرة درجة تقريبًا، كما يلاحظ أن القاعات الكبرى متجمعة فى الضلع الشرقى وعددها سبعة، بالإضافة إلى القاعتين القائمتين على جانبى المدخل، ويلاحظ كذلك أن المنافع العامة، وهى المطابخ والحمامات والمخازن، متجمعة فى الضلع الغربى. أما الأرباع، فتبدو واضحة بصفة خاصة فى الرسم التخطيطى للطابق الثانى، وكان كل ربع منها يتكون من عشر أو إحدى عشرة غرفة فى هذا الطابق، ومن عشر غرف أخرى، أو ما يقرب من ذلك، فى الطابق الأول، فيصير مجموع الغرف، وهى التى يسميها صاحب «الحوادث الجامعة» بالبيوت، ثمانين غرفة. ومساحتها تتراوح بين ٧ أمتار ومترين ونصف طولا، أما عرضها فقريب من مترين ونصف المتر، وكل منها يتسع لثلاثة أو أربعة فقهاء، أى إنها جميعا كانت تتسع لحوالى ٢٧٥ ساكنًا[2]. وكانت هذه الغرف مقسمة إلى أربع مجموعات، كل مجموعة منها واضحة فى تكوينها، تكاد تكون قائمة بذاتها، منفصلة عن المجموعات الثلاثة الأخرى. ثم إنه كان لكل مجموعة باب مستقل يؤدى بواسطة سلم مستقل كذلك إلى غرف المجموعة فى الطابق الثانى. هذا فى رأينا هو السبب فى تسمية المدرسة المستنصرية بالمدارس، لأن كل ربع فيها كان مستقلا عن الثلاثة أرباع الأخرى، ولأنه كان يسمى مدرسة لاستقلاله بمجموعة بيوته.

كانت المدرسة، أو على الأصح المدارس المستنصرية، مخصصة أصلا لسكنى فريق مختار من الطلاب والمدرسين وإقامتهم وتوفير المعيشة والراحة لهم، وسنرى أن الحال كان كذلك بالنسبة لجميع المدارس. وكان بكل بيت فى المستنصرية يسكنه فقيه «البساط والمنارة النحارس (المسرجية والإبريق النحاس»، وكان بالمدرسة حمام تتوافر حاجياته، وكان للطلاب والمدرسين والنظار، وسائر القائمين على شئون المدرسة، حق فى رواتب مقررة وجرايات معلومة[3].

---

(١) أسمينا اتجاهات حدود البناء بهذا الشكل تيسيرًا للمراجعة، أما فى الواقع فإن ما أسميناه بالضلع الجنوبى هو الضلع الغربى الجنوبى، والضلع الشرقى، هو جنوبى شرقى، والضلع الشمالى، شمالى شرقى، والضلع الغربى، غربى شمالى، كما يتضح من اتجاه الشمال على التخطيط فى شكل (٤٤).

(٢) كانت جملة عدد الطلاب ٢٤٠ أو ٢٤٨، وجملة عدد المدرسين والنواب والمعيدين والنظار حوالى ٣٠، فكأنه قد أعد لكل منهم مكان يبيت فيه فى غرف «الأرباع». تنظر صفحة ٥٦ والحاشية رقم (١) من صفحة ٢٦١ من الجزء الأول من كتاب «تاريخ علماء المستنصرية» (لناجى) معروف.

(٣) انظر صفحات ٣١ و ٧١ إلى ٧٣ و ٢٦١ و ٢٦٢ من المرجع السابق، وصفحات ٥٧ إلى ٥٩ من كتاب «الحوادث الجامعة» المنسوب لابن الفوطى.

أما الدراسة فقد ظن بعض الكتاب أنه كان مخصصًا لها أربعة أواوين، إيوانان مفتوحان على البهو، أحدهما في الضلع الشرقى والآخر يواجهه في الضلع الغربى، وإيوانان آخران في الضلع الشمالى، وهما على الأصح القاعتان القائمتان على جانبى المدخل، والتى ينفذ إلى كل منهما باب مفتوح على البهو. ولم يكن الأمر كذلك، ولم يشر أحد من المؤرخين إلى أن هذين الإيوانين وهاتين القاعتين، كانت مخصصة للدراسة. ولم يكن للتدريس فيما نعتقد، وكما سبق أن ذكرنا، موضع مخصص له. ويؤكد ذلك روايتان أوردهما صاحب «الحوادث الجامعة»، الرواية الأولى، هى أن الخليفة المستنصر بالله كان له شباك على إيوان الحنابلة «يسمع الدرس منهم دون غيرهم»[1]، وهذا الشباك مازال قائمًا في بناء المدرسة، ويصعد إليه بسلم في منتصف الممر الطويل المؤدى إلى القاعات الكبرى في الضلع الشرقى. ويطل الشباك على القاعة الثالثة شمالى هذا الضلع، وهى ليست، من جهة، إيوانًا من الأواوين الأربعة التى أشرنا إليها، وهى من جهة أخرى، تقع بعيدا عن ربع الحنابلة، القائم في القسم الشمالى الغربى من المدرسة. والرواية الثانية، هى أن الملك الناصر ناصر الدين داود الأيوبى زار المدرسة المستنصرية في المحرم من سنة ٦٣٣هـ/ أبريل ١٢٣٦م «فجلس على طرف إيوانها الشمالى»، أى القاعة المجاورة للمدخل، «ووقف مماليكه وأصحابه في ربعى المالكية والحنفية»[2]، أى في ساحة البهو التى يطل عليها هذان الربعان، أولهما، كما يتضح من الرسم التخطيطى شكل (٤٤)، شرقى تلك القاعة، وثانيهما، مواجه له، متصل به. ولم يحدد صاحب «الحوادث الجامعة» صفة الإيوان ولم يسمه، وإنما الذى حدده وسماه هما الربعان، أى البيوت.

اتخذت المدرسة وظيفتها الرئيسية، في رأينا، من كونها أعدت لسكنى الفقهاء، وكثيرًا ما تشير النصوص التاريخية إلى هذه الحقيقة، ومن ذلك ما رواه المقريزى من أن الشيخ جلال الدين البنائى الحنفى كان يدرس في مدرسة الجاى التى أنشئت بالقاهرة في سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م، ويضيف إلى ذلك أنها «كانت سكنه»[3]. ومن ذلك ما رواه صاحب «الخطط» كذلك من أن مدرسة مغلطاى الجمالى، التى بنيت في سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م، كانت من أجل مدارس القاهرة، و «كان يسكنها أكابر فقهاء الحنفية»[4]. وروى صاحب «الخطط» كذلك أن المدرسة الصاحبية البهائية، التى بنيت

(١) انظر صفحة ٩١ من «الحوادث الجامعة»، وصفحتا ١٥٤ و ٤٠٢ من الجزء الأول من «تاريخ علماء المستنصرية» (لناجى) معروف.

(٢) انظر صفحة ٥٤ من «الحوادث الجامعة».

(٣) انظر صفحة ٣٩٩ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٤) انظر صفحة ٣٩٢ من المرجع السابق.

فى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، كانت «من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر، ولهذا كان يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها، حتى كانوا يتشاحنون فى سكنى بيوتها، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة»[1]. وهكذا صارت ظاهرة التنافس تنصب على الظفر ببيت للسكنى بالمدرسة، بعد أن كان التنافس قديمًا يستهدف الفوز بمجلس فى حلقة شيخ جليل من كبار العلماء.

ومما يؤكد هذا الرأى الذى نستخرجه من النصوص التاريخية، وهو أن المدرسة أنشئت أصلا لتضم بيوتًا لسكنى الفقهاء، نصوص أثرية أخرى، أقدمها عهدًا، فيما نعرف، نص مسجل حول باب المدرسة الظاهرية فى حلب، وهى المعروفة بالمدرسة السلطانية، والتى فرغ من بنائها فى سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م[2]، وفيه يقر منشئوها أنه بناها لتكون «مقرًا للمشتركين بعلوم الشريعة من الطائفتين الشافعية والحنفية والمجتهدين فى الاشتغال...» وأنه رتب لها مدرسًا وإمامًا «للصلاة فى مسجدها» ومؤذنًا ومقرئًا للقرآن الكريم[3]. وفى هذا النص تتوافر الشروط الثلاثة لوظيفة المدرسة، وهى: أولا، إقامة مسجد جامع، وثانيًا، تعيين مدرس براتب معلوم، وثالثًا: تزويد البناء ببيوت للطلاب.

وتتأكد صفة هذه البيوت من النص الأثرى المسجل فى اللوحة التأسيسية للمدرسة الصالحية، والتى ذكرت فيه هذه المدرسة، كما أشرنا من قبل، بصفة الجمع، فى بناء مدخله الرئيسى واحد[4]، وإذا كان المقريزى قد وصف هذه المدارس مرة بصفة المثنى[5]، فقد أوضح تسميتها بالمدرستين فى موضع آخر من «الخطط»، إذ أنه ذكر أنه من داخل هذا الباب الرئيسى بابين متقابلين، أحدهما يوصل إلى «محل الحنابلة والشافعية، والآخر إلى محل المالكية والحنفية»[6]، وهما بناءان مستقلان. أى أن المدرسة تتخذ صفتها من محل سكنى الطلاب فى بناء واحد، مستقل ببابه ومدخله، سواء كان هذا المحل مخصصًا لفقهاء مذهب واحد، كما فى المدارس المستنصرية، أم لفقهاء مذهبين، كما فى المدارس الصالحية.

ولعل أكثر النصوص وضوحًا وتوكيدًا لرأينا هذا، تلك اللوحات المسجلة فى مدرسة السلطان حسن بالقاهرة، وهى التى بدأ بناؤها فى سنة ٧٥٧هـ / ١٤٥٦م، وكمل بعد ذلك بسبع سنوات،

---

(١) انظر صفحة ٣٧١ من الجزء الثانى من المخطط.

(٢) انظر الحاشية رقم (١) فى صفحة ١١٢ فيما سبق.

(٣) أنشأ هذه المدرسة شهاب الدين أبو سعيد طغرل الذى كان أتابكاً للملك العزيز بن الملك الظاهر غازى، وجعل لهذا الملك ضريحًا فيها. وقد نشر النص كاملا فى صفحتى ٢٠٠ و ٢٠١ من الجزء العاشر من «مرجع الكتابات العربية» لجامعة (كومب) وآخرين.

(٤) انظر فيما سبق صفحتا ٦١ و ٦٨.

(٥) انظر صفحة ٣٧٤، من الجزء الثانى من «الخطط».

(٦) انظر صفحة ٣٧٤ من الجزء الأول «الخطط».

فى سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م. ويعتبر بناء هذه المدرسة أكثر أبنية المدارس تكاملا ووضوحًا، وسنشير فيما بعد إلى أهمية تخطيطها، وسنرى أنه يعبر عن آخر مرحلة لمراحل تطور النظام المدرسى، والذى يهمنا فى سياق الحديث عن وظيفة المدرسة، هى أن هذا البناء قد ورد ذكره فى باب المساجد الجامعة[١] على أنه يضم أربع مدارس. وقد حددت مواضع هذه المدارس من الجامع فى أركان البناء. وللمسجد الجامع والمدارس باب رئيسى واحد، غير أن لكل من هذه المدارس كذلك بابًا مستقلا، ينفذ إليه من بهو «الجامع» ويقع فى طرف من أطراف مجنبتيه، بابان متقابلان على جانبى بيت الصلاة، والآخران متقابلان كذلك على جانبى المؤخر. وعلى كل باب من هذه الأبواب الأربعة لوحة تأسيسية سجل عليها اسم المدرسة وتاريخ إنشائها، فقد سجل على باب البناء القائم شرقى بيت الصلاة اسم «المدرسة الشافعية»، وعلى باب البناء المقابل، غربى هذا البيت، «المدرسة الحنفية»، وسجل على باب البناء القائم فى الطرف الشرقى الشمالى من البهو اسم «المدرسة المالكية»، وعلى الباب المقابل له، فى الطرف الغربى الشمالى، اسم «المدرسة الحنبلية»[٢].

وهكذا نرى أن بناءً واحدًا، هو مسجد السلطان حسن الجامع، له باب رئيسى واحد، وبيت صلاة واحد، وبهو واحد، يضم داخل أسواره، وعلى أطراف بهوه أربعة محلات، تستقل كل منها بباب مسجل عليه اسم المدرسة، ويؤدى كل باب منها إلى بيوت لسكنى الطلاب تتكون من عدة طوابق. وفى الطابق الأول من كل مدرسة، ممر يؤدى إلى بهو صغير آخر مكشوف، يتصدره فى اتجاه القبلة بيت للصلاة، وتطل عليه هذه البيوت من الجهات الثلاث الأخرى. وكذلك يحوى كل بناء من أبنية هذه المدارس الأربعة قاعات لخزانات الكتب والقراءة والمنافع العامة. وقد أكد المقريزى هذه الحقائق بقوله، إن من عجائب هذا البنيان، «المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع»[٣] وليس بهذه المدارس قاعات مخصصة للتدريس ولكن بكل منها كما ذكرنا بيت للصلاة وبيوت للطلاب.

* * *

الواضح إذن من هذه النصوص التاريخية والأثرية التى أوردناها أن المدرسة منشأة دينية لها شروط خاصة، وأن تعريفها مستمد من البيوت المخصصة فيها لسكنى الشيوخ والفقهاء، لا من قاعات التدريس والمدرسين، كما يبدو من مدلول اللفظ، وكما يظن علماء الآثار.

---

(١) انظر صفحة ٣١٦ وما يليها من الجزء الثانى من «الخطط»

(٢) انظر هرتس بك (مكس)، «جامع السلطان حسن»، تعريف على بهجت، المطبعة الكبرى الأهلية بالقاهرة، ١٩٠٢م

(٣) انظر صفحة ٣١٦ من الجزء الثانى من «الخطط». وكذلك كان للمدرسة المستنصرية باب رئيسى واحد وبيت صلاة واحد وبهو واحد، ولكنه كان بهذا البهو أربعة أبواب مستقلة يؤدى كل منها إلى بيوت الطابق الثانى لكل مدرسة، أو لكل ربع، من المدارس الأربع.

وقد بنى هؤلاء العلماء نظرياتهم «الصليبية» على هذا الظن الخاطئ، واعتبروا الأواوين مواضع للتدريس، وجعلوا منها العناصر الرئيسية فى تخطيط المدارس. وقد رأينا فيما سبق من الفصل السادس من هذا الكتاب، أن النظم التخطيطية لأبنية المدارس لا تؤيد هذه المزاعم، وكذلك تنفيها النصوص التاريخية. واتخذ هؤلاء العلماء من تعامد الأواوين فى تخطيط بعض المدارس حجة على صدق مظانهم، وسنرى فى الفصل التالى أن مراحل تكوين هذه الأواوين برهان بليغ على نقيض ذلك.



تخطيط المدارس والأواوين المتعامدة

١ - نظريات الأواوين المتعامدة.

٢ - مراحل تكوين نظام المدرسة والأواوين المتعامدة.

الفصل التاسع

تخطيط المدارس والأواوين المتعامدة



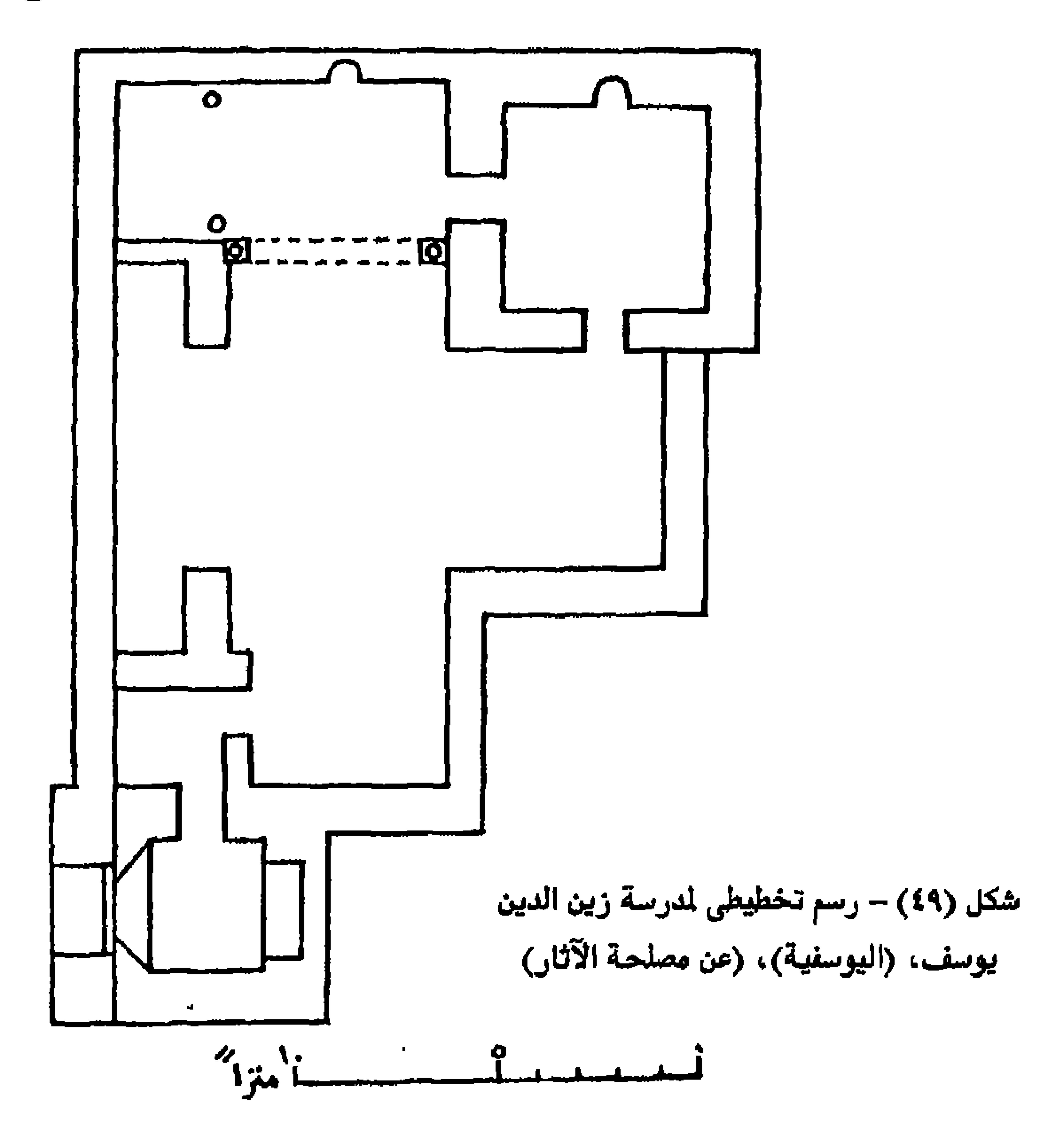
نظريات الأواوين المتعامدة

يقتضى البحث عن مراحل تكوين الأواوين المتعامدة العودة إلى مناقشة آراء المستشرقين عنها. فقد انصب اهتمامهم بنظم المدارس على هذا النظام الذى يتكون من أربعة أواوين، يتقابل اثنان منها فى خط عمودى على خط تقابل الإيوانين الآخرين، على شكل شبهوه بشكل «الصليب».

وقد أسفرت بحوث المستشرقين فى السبعين سنة الماضية، كما رأينا، عن افتراض ثلاث نظريات حاولوا فيها أن يحددوا مصدر النظام الذى اتخذته المدارس ذات الأواوين المتعامدة. أما النظرية الأولى، نظرية اشتقاق هذا النظام من الكنائس السورية البيزنطية، فإنه يبدو أنها لم تعد مقبولة، بالرغم من أن بعض الكنائس السورية البيزنطية، فإنه يبدو أنها لم تعد مقبولة، بالرغم من أن بعض علماء الآثار الذين اعترضوا عليها ظلوا يستخدمون لفظ «المصلب» أو «الصليبى» للتعبير عن هذا النظام. وأما النظرية الثانية، نظرية اشتقاق هذا النظام من القاعات المصرية، فقد «انهارت»، على حد قول أحد العلماء المعترضين عليها، ولكن صاحبها، (كريسويل)، مازال مستمسكًا بها وبقوة، ومازال يدعى أن العناصر الأثرية والتاريخية تبررها وتؤيدها تأييدًا كاملاً. وأما النظرية الثالثة، نظرية اشتقاق نظام المدارس من نظم المساكن والمبانى الفارسية أو السورية، فقد حطمها (كريسويل)، على حد قوله كذلك، فضلاً عن أن أصحابها أنفسهم يعترفون بأنها نظرية افتراضية اجتهادية. وهكذا يبدو أن المستشرقين قد هدموا نظرياتهم الثلاث بأنفسهم، وأن هذه النظريات أصبحت واهية ولا يعتد بها.

تضاربت آراء المستشرقين إذن واضطربت. والسبب الرئيسى فى هذا التضارب أنهم جميعًا لم يدركوا الوظيفة الحقيقية للمدارس، ولم يربطوا بين هذه الوظيفة ونظام البناء، وافترضوا أن البنّاء العربى المسلم ظل عديم الحيلة، جامد الفكر، أكثر من خمسة قرون، وأنه دأب على نقل

الأشـكال والأنظمة المعمارية من الآثار البيزنطية والساسـانية والفارسية والقبطية. ولهذا اتجه كل من هؤلاء العلماء الوجهة التى يرتضيها لنفسه وبحثه، فاتجه (فان برشم) نحو البيزنطية، واتجه (هرتزفلد) و (جودار) نحو الفارسية، واتجه (لوفريه) نحو السورية، واتجه (كريسويل) نحـو المصرية أو القبطية. ولم تجتذب المصادر العربية أنظار المستشـرقين. واضطربت نظريات هـؤلاء العلمـاء كذلك لأنهم أقاموها على الظن والافتراضات، فـإن الآثار التى أوردها كل منهم لتدعيم نظريته، إما كانت مندثرة تمامًا أو جزئيًا، وإما كان الشـك القوى يحوم حول تاريخها أو تخطيطها أو نظمها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنهم بنوا تلك النظريات تارة على أسـاس التخطيط، دون اعتبـار للعناصر المعمارية، وتارة على أسـاس العناصر المعمارية، دون اعتبـار للتخطيط، ولم يراعـوا فى كلتا الحالتين الاحتفاظ بمقياس واحـد فى المقارنة، فكانوا يكبرون ما صغر، ويضخمون ما هزل، أو يقصرون ما امتد ويخفضون ما ارتفع[1].

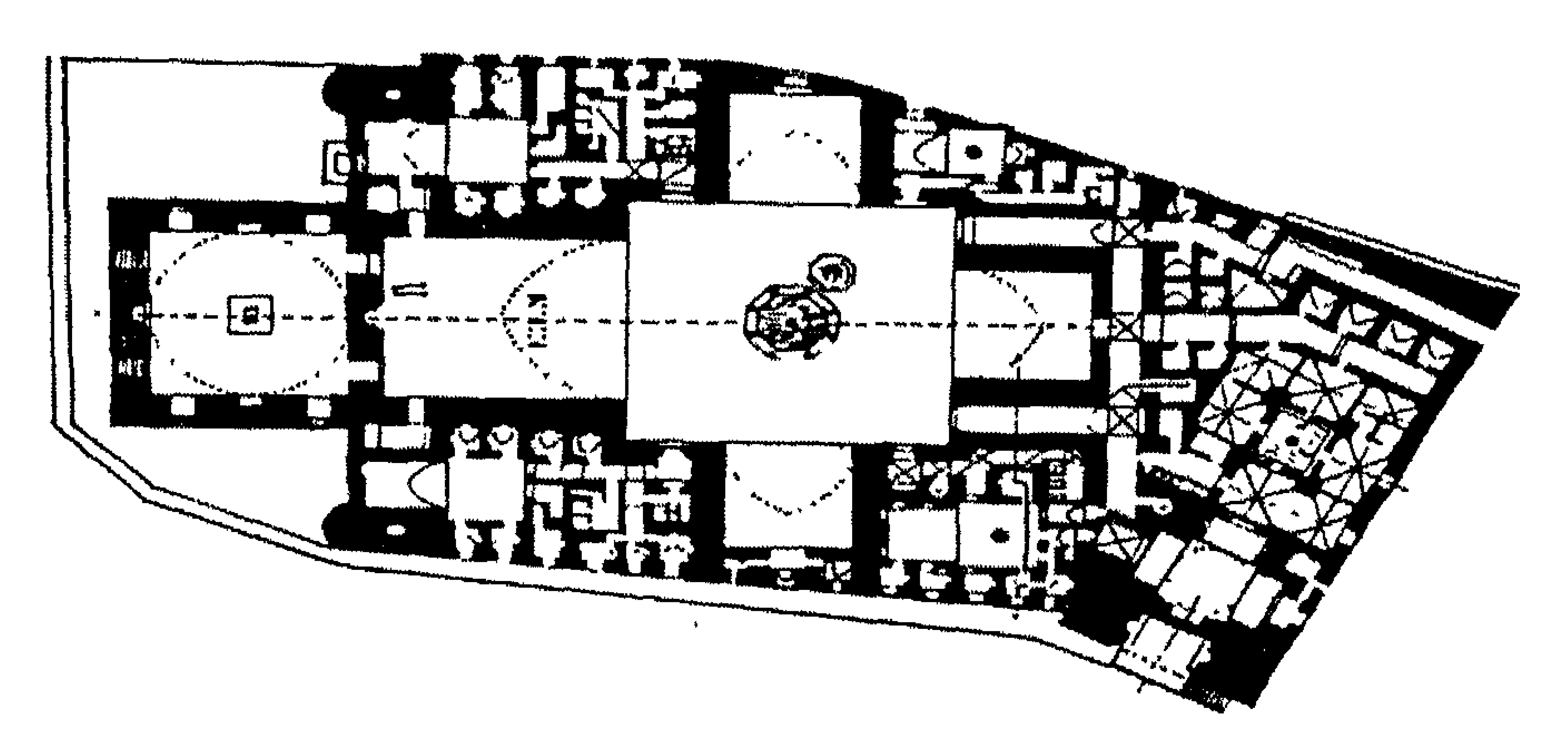


شكل (٤٩) – رسم تخطيطى لمدرسة زين الدين يوسف، (اليوسفية)، (عن مصلحة الآثار)

(١) انظر «مآخذ على بحوث بعض المستشرقين» من «مساجد القاهرة ومدارسها» – «المدخل».

هذه ملاحظات عامة عن أسباب تزعزع نظريات المستشرقين. ويجدر بنا الآن أن نناقش هذه النظريات تفصيلا، وأن نحاول توضيح الأسباب التى تقضى برفضها جميعًا.

وقد سبق أن أوردنا ردًا معماريًا على نظرية اشتقاق نظام المدرسة من الكنائس السورية البيزنطية[1]. ونضيف إلى ذلك أن أصحاب هذه النظريات افترضوا أن السبب فى تكوين نظام المدارس على الشكل (الصليبى) هو ملاءمته لوظيفة المدرسة، التى تقوم فى رأيهم على تدريس المذاهب الأربعة. والمعروف أن أول مدرسة أنشئت على هذه الصفة هى المدرسة المستنصرية فى بغداد، والمعروف أيضًا أنها ليست «صليبية» التخطيط، كما يتضح من مقارنة الشكلين (٤٤) (٤٧). والمعروف كذلك أنه كانت قد أنشئت فى العالم العربى والإسلامى مئات من المدارس منذ أكثر من قرنين ونصف من قبل إنشاء المستنصرية، ولاشك فى أن نظامها يعتبر حلقة من سلسلة ممتدة، تشمل عناصر تخطيطية ومعمارية، سبق تطبيقها فى غيرها من المدارس.



شكل (٥٠) – رسم تخطيطى لمسجد السلطان حسن ومدارسه، (عن مصلحة الآثار)

وليس أدل على خطأ الأساس الذى بنيت عليه هذه النظرية «الصليبية» من أن المدرسة الصالحية، وهى ثانى مدرسة خصصت للمذاهب الأربعة، لم تكن متعامدة كذلك. أما أقدم مدرسة قائمة على تخطيط متعامد، وهى المدرسة اليوسفية التى أنشئت فى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م، فبعيدة كل البعد عن مظهر التخطيط «الصليبى»، شكل (٤٩)[2]. بل إن مدرسة السلطان حسن،

(١) انظر صفحتا ١٢٧ و ١٢٨ فيما سبق.

(٢) أقيمت هذه المدرسة فى عهد الملك المنصور لاجين، وتضم ضريح زين الدين يوسف بن عدى. وقد جاء ذكرها فى «خطط» المقريزى. فى باب «الزوايا»، تحت اسم الزاوية العدوية، صفحة ٤٣٥ من الجزء الثانى من «الخطط». وانظر صفحات ١٤٧ إلى ١٥٢ من الجزء الأول من (فان برشم)، «موسوعة النقوش العربية»، وفيه النص التاريخى لإنشاء المدرسة.

وهى المثال الأعلى الذى يستند عليه أصحاب النظرية «الصليبية»، بعيدة كذلك كل البعد عن مظهر تخطيط الكنيسة السورية البيزنطية، شكل (٥٠)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن أمثلة المبانى المسيحية التى أوردها أصحاب هذه النظرية ضئيلة حجمًا كل الضآلة بجوار فسحة البهو فى كل من المستنصرية والسلطان حسن، وهذا وحده كاف لانهيار هذه النظرية، إذ لا تصح مقارنة بهو فسيح مكشوف تبلغ مساحته ١٧٠٠ متر مربع فى المستنصرية، و ١١٥٠ مترًا مربعًا فى السلطان حسن، وتتفتح عليه أبنية عالية، بصحن مقبب مغلق لا تتجاوز مساحته أربعين مترًا مربعًا، كتلك الصحون التى تشاهد فى الكنائس السورية البيزنطية.

وإذا افترضنا جدلا أن تخطيط مدرسة السلطان حسن يشبه إلى حد ما التخطيط «الصليبى»، وهى كما رأينا الأنموذج البارز الذى يستند عليه أصحاب هذه النظرية فإنه كان يجب على هؤلاء العلماء أن يقدروا أن مهندس مدرسة السلطان حسن كان فى سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م، يهتدى فى تصميمه بنظام معمارى مستقر فى مصر والشام والعراق منذ أكثر من قرنين من ذلك التاريخ، وأنه كان يستوحي تفكيره من فكرة نبتت فى البلاد الإسلامية، منذ أكثر من ثلاثة قرون من عهده، وأنه إذا قورن تخطيط مدارس السلطان حسن بتخطيط المدرسة النورية فى دمشق أو المدرسة البختية فى حلب أو المدرسة المستنصرية فى بغداد، لاتضح أن هذه المخططات متصلة النسب، مشتركة العناصر، وأن تخطيط مدارس السلطان حسن يمتاز عنها، فحسب، بأنه تعبير عبقرى متكامل لنظام كان مستقرًا منذ ثلاثة قرون على الأقل. ولهذا فإنا نستبعد النظرية الأولى، «الصليبية»، ونؤيد (جودار) و (كريسويل) فى أنه يتعين رفضها، ونضيف إلى هذه الأسباب أسبابًا أخرى لرفض النظرية الثانية.

يستند أصحاب النظرية «الفارسية» على افتراضين: الافتراض الأول، أن نظام الأواوين الأربعة المحيطة ببهو مكشوف كان معروفًا منذ القدم فى إيران، والافتراض الثانى، هو أن المدرسة اشتقت هذا النظام لأنه يصلح لتدريس المذاهب الأربعة. أما الافتراض الأول، فهو قائم على رسم خيالى وضع لتخطيط بناء فى خَرجِرد شكل (٤٨)، وقيل إنه يمثل تخطيط المدرسة النظامية التى أنشئت هنالك فى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م.

وقد رأينا أن أحد أصحاب هذه النظرية، وهو (هرتزفلد)، يشك نفسه فى كون هذا البناء مدرسة، ويرجح الظن بأنه كان مسجدًا. وقد قدم أصحاب هذه النظرية أمثلة أخرى لمبان صغيرة جدًا، إما اندثرت، وإما اختفت معالمها وراء أطلالها، وافترضوا أنها كانت الأصل فى اشتقاق نظام المدرسة ذات الأربعة أواوين. ومن ذلك ما ذكره أحدهم عن أحد الأمثلة التى

أوردها من أنه، لو كان قد اكتمل بناؤه «لكان لدينا رسم لتخطيط مسجد السلطان حسن بالقاهرة الذى بنى بعد ذلك بألف وخمسمائة سنة»[1]. ويبدو لى أن مثل هذه الافتراضات قد تجاوزت المنهج العلمى، وأنها تسقط تلقائيًا، ولا تستدعى الرد أو التمحيص.

وأما الافتراض الثانى الذى استند عليه بعض أصحاب النظرية «الفارسية» فقد استبعده بقوة البعض الآخر منهم، وهو أن تدريس المذاهب الأربعة فى المدرسة هو الذى جعلها تشتق النظام المتعامد، ذا الأربعة أواوين، من أنظمة المساكن الفارسية. وفى هذا يقرر (هرتزفلد)، أنه لا صلة بين التدريس فى المدرسة وبين اشتقاق نظامها، أى أن المدرسة اتخذت تخطيط هذه المساكن أنموذجًا لها بصرف النظر عن عدد المذاهب التى كانت تدرس بها[2]. غير أن الفريقين يعتبران التدريس وظيفة المدرسة الرئيسية، وفى هذا يخطئون جميعًا، فإنهم لم يراعوا عدم صلاحية «الإيوانات» المفتوحة للتدريس، لتعرضها صيفًا للشمس المحرقة، وشتاء للبرودة والأمطار. وكذلك أهملوا أهمية الصلاة وشروطها، من جهة[3]، ومساكن الطلاب ومنافعها، من جهة أخرى، وهما العنصران الرئيسيان اللذان تدخلا فى تشكيل نظام المدرسة، وذلك بالإضافة إلى تطور نظم البناء. وستزيد هذا الموضوع بحثًا فى الرد على (كريسويل)، صاحب النظرية الثالثة.

يفترض صاحب النظرية «المصرية» أن نظام المدارس اشتق من نظام القاعة لملاءمة التدريس فى «الإيوان»، وأن هذا النظام تطور فى مصر كذلك، تبعًا لعدد المذاهب التى كانت تدرس بالمدرسة. فبدأت المدرسة بإيوان واحد، ثم اتخذت فى المدرسة الكاملية إيوانين متقابلين. وتمت

---

(١) انظر صفحة ٤٣٣ من الفصل الذى كتبه (رويتر) عن «العمارة البارتية» فى الجزء الأول من المجموعة التى نشرت بإشراف (بوب) عن «موسوعة الفن الفارسى».

REUTHER, Oscar, *Parthian Architecture*, in POPE, A Survey of Persian Art, vol. I, pp. 411-444.

ولهذا السبب نفسه يقبل (جرابار) بتحفظ نظرية (كريسويل)، لأن معرفتنا بالنظم السابقة لإنشاء المدارس «مازالت موضع شك»؛ انظر صفحة ٤٢٧ من النبذة التى كتبها (جرابار) للتعريف عن كتاب (كريسويل) «العمارة الإسلامية فى مصر» وذلك فى مجلة «الفن الشرقى» سنة ١٩٦١م.

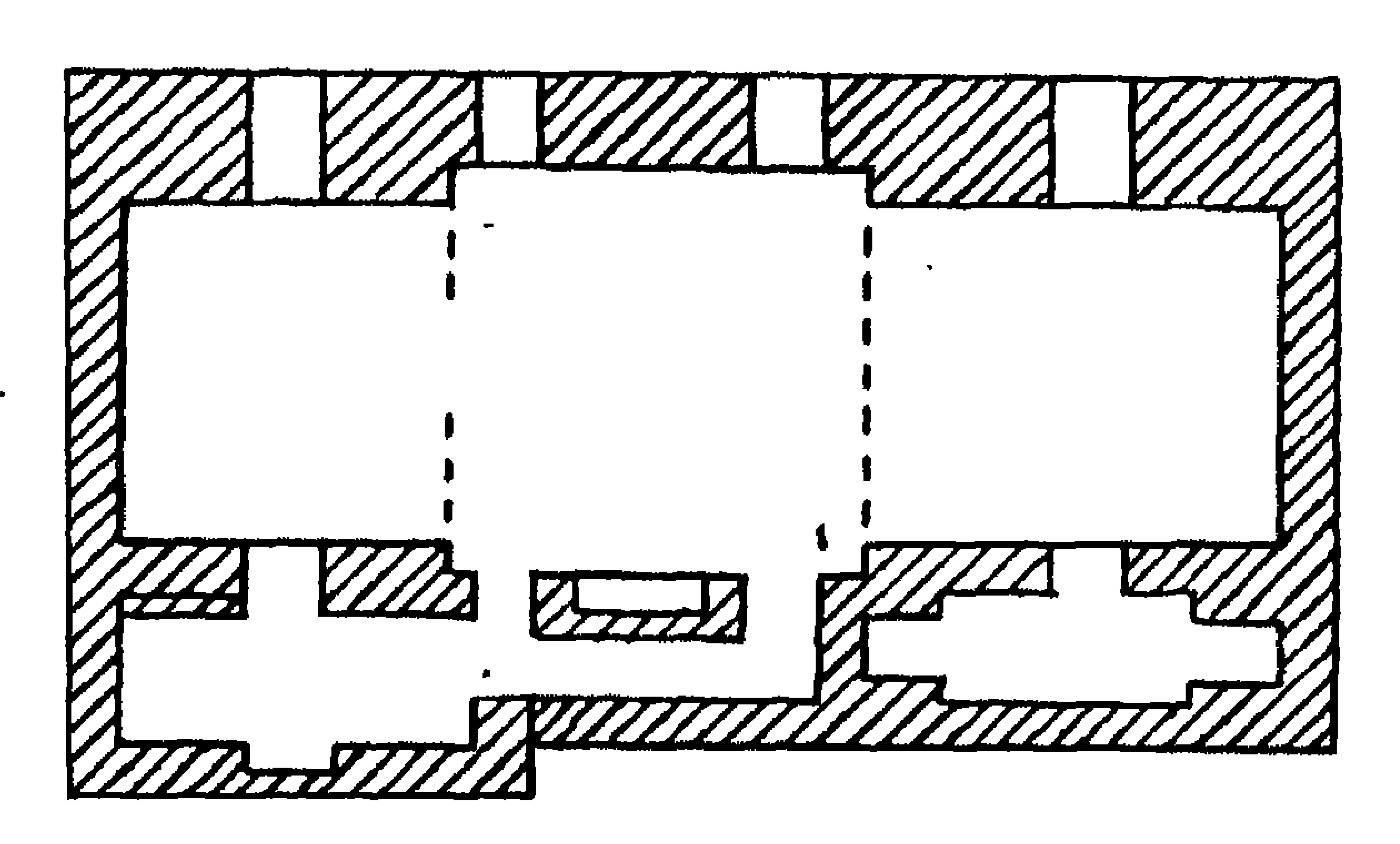
(٢) انظر صفحة ١٥ من القسم الثانى من مقال (هرتزفلد) «دراسات فى العمارة» فى الجزء العاشر من مجلة «الفن الإسلامى»، (Ars Islamica).

(٣) وفى ذلك يقول مثلاً (لين بول) فى صفحة ١٨٩ من «تاريخ القاهرة»: «إن المدارس لم تكن معينة للصلاة الجامعة ولكنها بنيت خصيصًا لغرض التدريس الدينى وإن هذا الغرض هو الذى أثر فى تشكيل نظامها تأثيرًا جوهريًا»:

The Madrasahs "were not intended for congregational worship, but were expressly built for the purpose of theological training and this purpose radically influenced their form". LANE-POOLE, Stanley, *History of Cairo*, London, 1902, p. 189.

الحلقة الثالثة، فى رأى (كريسويل) فى المدرسة الصالحية، إذ ضوعف الإيوانان، وتجاورت المجموعتان، وأخيرًا، اندمجتا، فى المدرسة الظاهرية، مثلا، وتعامدت الأواوين الأربعة، وأصبح مظهرا «صليبيًّا».

ونبدأ بمناقشة الشطر الأول من هذا الافتراض، وهو الخاص بالقاعة المصرية التى يدعى (كريسويل) أنه اكتشف صلة أمومتها بالمدرسة. والقاعة جزء من دار سكنية يعتقد (كريسويل) أن نظامها الذى كان سائدًا بالقاهرة فى القرن السادس (الثانى عشر الميلادى) يتمثل فى قاعة الدردير[1]، شكل (٥١). وهى تتكون من صحن مربع تقريبًا، طول كل ضلع من أضلاعه ستة أمتار، تطل عليه قاعة طولها ستة أمتار ونصف المتر، وعرضها خمسة أمتار ونصف المتر، وتواجهها قاعة ثانية تطل على الصحن كذلك، طولها أقل مترًا من طول القاعة الأولى، وعرضها أقل نصف متر، وكانت كل من القاعتين مسقوفة بقبوة مدببة ترتفع قمتها ١٢ مترًا عن سطح الأرض. وتطل على الصحن من الجانب القبلى شرفة صغيرة هى التى تسمى مقعدًا. أما الصحن، وهو الذى يسمى «دُرقاعة»، فكانت تتوسطه نافورة، ويغطيه سقف خشبى، مفتوحة على جوانبه نوافذه.



شكل (٥١) – رسم تخطيطى لقاعة الدردير بالقاهرة (عن مصلحة الآثار)

وأول اعتراض على هذا الافتراض أن الشك يحوم حول تاريخ قاعة الدردير، ويعترف (كريسويل) نفسه بأنه من الجائز إرجاع إنشائها إلى القرن السادس الهجرى، وفى رأيى، أنه من

(١) انظر صفحات ٢٦١ إلى ٢٦٣ من الجزء الأول من «العمارة الإسلامية فى مصر»، والشكل رقم ١٥٩. وانظر كذلك صفحة ١٢٩ من الجزء الثانى.

الجائز كذلك، بل من الأرجح؛ تقريب هذا التاريخ قرنًا على الأقل. ومع ذلك، فإننا إذا أجزنا ما أجازه (كريسويل)، تظل هذه القاعة. لاحقة تاريخًا لعهد إنشاء المدارس، وتنتفى صلة النسب التى يفترض(كريسويل) اكتشافها، أو تنعكس فيصبح المشتق، وهو المدرسة، مصدرًا، والمصدر، وهو القاعة، مشتقًا.

والاعتراض الثانى على ادعاء (كريسويل) هو الذى أوضحه (هوتكون)، وهو أن الدرقاعة صحن مسقوف كان القصد منه تخفيف الضوء الساطع من أشعة الشمس، وتلطيف الجو، بفتح منافذ عالية للهواء، وهذا وجه كبير للخلاف بين هذا الصحن وبهو المدرسة، الفسيح المكشوف المغمور بالضوء، وسبب كاف لنفى الصلة بينهما[1].

هذا فضلا عن أن نظام القاعة نفسه يعتبر نظامًا مصغرًا مبسطًا من نظام المساجد الجامعة، وأغلب الظن أن الدرقاعة اشتقاق من بهو المسجد، وكان تسقيفها ضروريًا لصغر حجمها من جهة، ولتوفير الراحة لسكانها من جهة أخرى. أما فى المسجد والمدرسة، فكان اتساع البهو، وانكشافه، ضرورة اقتضاها خلو بيت الصلاة والمجنبات والأواوين من النوافذ.

وقد استند (كريسويل) فى دعواه على أن دروس الأوائل كانت تلقى فى مساكن الشيوخ، وأن أكثر من دار حولت إلى مدرسة، وأورد ١٣ مثلا لهذه الدور، منها ٦ فى مصر، و ٦ فى دمشق، وواحدة فى حلب، وقد اندثرت جميعًا، وأضاف إليها مدرستين بالقاهرة لاتزالان قائمتين، هما المدرسة الغنامية التى بنيت دارًا فى سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م، وحولت إلى مدرسة قبيل سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م، ومدرسة خشقدم الأحمدى التى تم بناؤها فى سنة ٧٦٨هـ والتى كانت دارًا لأحد الأمراء[2].

أما عن أن الدروس كانت فى العصور الإسلامية الأولى تلقى فى مساكن الشيوخ، فلا ينهض وحده دليلا على أن المساكن أتخذت أنموذجا لبناء المدارس، وكان المنطق يقتضى من (كريسويل) أن يقر بأن المسجد الجامع، الذى كان دائمًا مكانًا للتدريس، هو الذى اتخذ أنموذجًا للمدارس، لأن اتخاذ مساكن الشيوخ للتدريس كان استثناءً، أما أن ثلاث

(١) انظر صفحتا ٢٦٦ و ٢٦٧ من كتاب «مساجد القاهرة» لمؤلفيه (هوتكون) و (فييت).

(٢) انظر صفحات ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣١ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر».

أما المدارس التى ذكر المقريزى أنها كانت دورًا وحولت، فهى القمحية والشريفية والسيوفية والمسرورية والقيسرانية ومنارل العز، انظر صفحات ٣٦٢ إلى ٣٦٥ و ٣٧٣ و ٣٧٨ و ٣٩٤ من الجزء الثانى من «الخطط».

عشرة دارًا حولت إلى مدارس، فلا ينهض كذلك دليلا على أن المدارس اشتقت أنظمتها من المساكن. والواقع أن عدد الدور التى حولت إلى مدارس يربو فى دمشق وحدها على عشرين، لا ست كما ذكر (كريسويل) [1]، ومع ذلك فإن هذا العدد ضئيل بالنسبة لجملة المدارس التى أنشئت فى دمشق وحدها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه المدارس، التى كانت دورًا ثم حولت، كانت صغيرة الحجم، ومن النوع الذى يصح وصفه بالثانوى، أى أنها لم تكن جميعًا مستوفاة للشروط والصفات المشتركة [2]، ولا يجرى حكمها على المدارس الكبرى التى تعنينا أنظمتها. هذا فضلا عن أن استخدام بناء استثناءً لغير الغرض الذى أنشئ له، لا يكفى للدلالة على أن هذا البناء اتخذ أنموذجا للأبنية التى كانت منشأة لتحقيق الغرض الثانى.

والغريب أن (كريسويل) الذى درس المدارس دراسة وفية شاملة فى الشام ومصر، لم يشر إلى المساجد التى حولت إلى مدارس، وهى كثيرة، وفيها على سبيل المثال، المدرسة القوصية فى دمشق، وكانت «حلقة من حلقات الجامع الأموى، قيل إن الذى أوقفها هو الشيخ شهاب الدين القوصى، المتوفى سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م، وكان يدرّس بها» [3]، ومنها دار الحديث العروية التى كانت تنسب إلى شرف الدين بن عروة، المتوفى سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م، وكانت كذلك فى جانب من رواق من أروقة بهو المسجد الجامع الأموى بدمشق [4]. كما أنه لم يشر إلى ما سبق أن أشرنا إليه من أنه كان بمسجد عمرو زوايا وحلقات عديدة للتدريس، وأن عدد هذه الحلقات بلغ فى نهاية القرن الرابع مائة وعشر حلقات، وأن حلقات التدريس هذه استمرت بعد إنشاء المدارس العديدة بمصر والقاهرة، وكان عددها فى منتصف القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) «بضعًا وأربعين لإقراء حلقة العلم لا تكاد تبرح منه». وكانت هذه الحلقات تعقد فى وقت واحد، وكان عدد طلاب الحلقة الواحدة كثيرًا، حتى إن إحداها كانت «تدور على سبعة عشر عمودًا» [5].

---

(١) تراجع مثلاً صفحات ١٩ و ٧٢ و ٧٣ و ٨١ و ٩٩ و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٦ و ٢٠٥ و ٣٠١ من كتاب النعيمى «الدارس فى أخبار المدارس» وفيها ذكر دور أوقفها أصحابها مدارس، ولم يشر إليها (كريسويل).

(٢) انظر فيما سبق صفحة ١١٧ وما يليها.

(٣) انظر صفحة ٤٣٨ من كتاب النعيمى، «الدارس فى أخبار المدارس».

(٤) انظر صفحة ٨٢ من المرجع المشار إليه فى الحاشية السابقة.

(٥) انظر ما قبله صفحات ١٤٣ وما يليها.

يتضح مما تقدم أن نظرية اشتقاق نظام المدارس من نظام القاعة نظرية ضعيفة[1]، لأن نظم المدارس المعروفة يسبق عهدًا نظم القاعات المعروفة، ولأن هذين النظامين يختلفان فى عنصر جوهرى فيهما، وهو البهو المكشوف فى المدرسة، والصحن المسقوف فى القاعة، ولأنْ دروس الأوائل كانت تعقد فى المساجد، وكان عقدها فى مساكن الشيوخ استثناءً، ولأن المدارس التى حولت من دور سكنية كانت مدارس ثانوية وكانت استثناءً كذلك، لأنها لم تستكمل وظائف المدرسة

ولعل (كريسويل) قد لمس أوجه الضعف فى هذه النظرية فحاول أن يقومها بأسانيد أخرى، وقدم الشطر الثانى من افتراضاته، وهو الذى نبدأ الآن فى مناقشته. ادعى (كريسويل) أن اتخاذ المدرسة لنظام الأواوين مرتبط بتدريس المذاهب بها، وأن كل إيوان مخصص لتدريس مذهب واحد، وأن المدرسة التى يقتصر التدريس فيها على مذهب واحد يقتصر نظامها على إيوان واحد، والمدرسة الموقوفة على تدريس مذهبين ينتظم حول بهوها إيوانان[2]، وأما المدرسة الموقوفة على المذاهب الأربعة فهى وحدها التى تشمل أربعة أواوين. وادعى (كريسويل) أن هذا النظام ينطبق بصفة خاصة على مدارس الشام، وفيها «كانت المدرسة ذات المذهب الواحد تحوى إيوانًا واحدًا، والمدرسة ذات المذهبين، إيوانين»[3]. والواقع يناقض هذا الافتراض، إذ أن المدرسة النورية، مثلا، وقد كانت مخصصة للمذهب الحنفى، تحوى إيوانين على الأقل، بالإضافة إلى بيت الصلاة، وكذلك المدرسة العادلية والمدرسة البختية، والمدرسة الشافعية، بمعرة النعمان، وكل منها كان مخصصًا لمذهب واحد. وعلى عكس ما افتراضه (كريسويل)، اتضح أن المدرسة السلطانية، التى كانت مخصصة للمذهبين الشافعى والحنفى، لم تكن بها إيوانات إطلاقا، ولم يكن يطل على بهوها غير بيت الصلاة من جهة، وغرف صغيرة من الجهات الثلاث الأخرى[4].

جانب التوفيق كذلك (كريسويل) فى ظنه أن نظام المدرسة مرتبط بالأواوين، وأن الأواوين هى محلات التدريس فيها، وأن عددها فى المدرسة الواحدة مرتبط بعدد المذاهب التى تدرس

---

(١) وصف (كريسوبل) نظرية (جودار) بأنها «ركيكة وغير مقنعة إلى أقصى حد»

fragile and inconclusive to the last degree".

انظر صفحة ١٣٢ – ١٣٣ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر». ولعل هذا الوصف ينطبق كذلك على نظرية (كريسويل) نفسه، التى أكد (لوفريه) أنها نظرية «منهارة»؛ انظر صفحة ٦٤ من المقال المشار إليه فى حاشية سابقة، صفحة ١١٢ فيما سبق.

(٢) انظر صفحة ١٢١ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٣) انظر صفحة ١١٠ – ١١١ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٤) انظر صفحة (١١٣) فيما سبق، الحاشية رقم (١)، وتراجع الأشكال (٣٧) إلى (٤٠) و (٤٢).

بها، وقد انبرى (هرتزفلد) للرد عليه، وفطن إلى أن التدريس بالمدارس لا يرتبط بنظام الأواوين وأن عدد المذاهب لا يؤثر على نظام المدرسة [1]، إن إن التدريس بالمدارس فى الإسلام كان يجرى على غير ما يجرى عليه الحال الآن، وكان «الشيخ» لا يحتاج إلى قاعة مخصصة للمحاضرات، مثلما يحتاج إليه الأستاذ فى الجامعات الحديثة. ولـم يرض (كريسويل) عن اعتراض (هرتزفلد)، فقدم له سبعة أدلة تؤيد، فى ظنه، أن الأواوين كان مخصصة للتدريس، وأنـه كـان لكـل مذهب إيـوان منفـرد. «وفـى هـذه الأدلـة السبعة». كما يقـول (كريسويل)، «ما يكفى لتحطيم اعتراض (هرتزفلد)» [2].

وقد استمد (كريسويل) هذه الأدلة من روايات تاريخية: الرواية الأولى عن المقريزى، ذكر فيها أن إيوان الحنفية بالمدارس الصالحية يقع بالقرب من المدرسة البديرية، وأن إيوان المالكية مجاور لضريح الملك الصالح. وقد أثبتنا فيما سبق صحة ما رواه المقريزى، الذى أشار فى رواياته إلى إيوان الشافعية وإيوان الفقهاء المالكية، ولكنه لم يشر إلى التدريس فى هذين الإيوانين [3]. والرواية الثانية عن المقريزى كذلك، أنه روى أن شيخ الحنابلة كان يبغض السلطان الظاهر بيبرس لأن السلطان «ما جعل للحنابلة نصيبًا» فى المدرسة الظاهرية التى بناها [4]. ولم يشر المقريزى فى هذه الرواية كذلك، لا إلى إيوان، ولا إلى التدريس فى إيوان بالمدرسة. والرواية الثالثة عن ابن بطوطة الذى كتب أن بالمدرسة المستنصرية مذاهب أربعة «لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط...» [5]. رواية ابن بطوطة تناقض الواقع، فليس بالمدرسة المستنصرية أربعة إيوانات، وليس بكل منها مسجد. والرواية الرابعة عن المقريزى الذى ذكر فى «السلوك»، أن المدرسة الظاهرية أوقفت على المذهبين الشافعى والحنفى ولعلمى الحديث والقراءات، وأنه «جلس أهل كل

---

(١) انظر صفحة ١٤ من القسم الثانى من المقال المشار إليه فى الحاشية (٢) فيما سبق، ونص ما جاء فى هذه الفقرة من المقال

"Never is there an architectural distinction between a madrasah foe one or for two rites".

(٢) انظر صفحة ١٢١ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٣) انظر صفحتا ٣٧٤ و ٣٧٥ من الجزء الثانى من «الخطط»، وانظر صفحتا ٦١ و ٦٢ والحاشية (١) من صفحة ٦٢، فيما سبق.

(٤) انظر صفحة ٥٠٣ من الجزء الأول من «السلوك لمعرفة دول الملوك».

(٥) انظر صفحة ١٣٥ من الجزء الأول من «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لمؤلفه ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة) والمتوفى سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م، مطبعة وادى النيل بمصر سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م.

مذهب فى إيوانهم»[1]، واضاف إلى ذلك فى «الخطط» أن أهل الدروس جلسوا «كل طائفة فى إيوان منها، الشافعية بالإيوان القبلى... والحنفية بالإيوان البحرى.. وأهل الحديث بالإيوان الشرقى.. والقراء بالقراءات السبع بالإيوان الغربى»[2]. والرواية الخامسة، عن المقريزى كذلك، الذى ذكر فى «السلوك» أن السلطان ناصر الدين محمد «رتب» بالمدرسة الناصرية أربعة قضاة مدرسين كل واحد منهم لمذهب من المذاهب الأربعة [3]، وأضاف المقريزى إلى ذلك فى «الخطط» أن مدرس المالكية كان يدرس بالإيوان الكبير القبلى، وكان مدرس الحنفية يدرس بالإيوان الشرقى، ومدرس الحنابلة بالإيوان الغربى، ومدرس الشافعية بالإيوان البحرى[4]. وفى هذه الرواية نص صريح على تدريس كل مذهب فى إيوان منفرد. وكذلك نص ابن دقماق فى الرواية السادسة التى استند عليها (كريسويل)، وهى أن فقهاء الشافعية أجلسوا فى الإيوان الغربى من المدرسة الطيبرسية، وهى التى عمرها الملك المعز أيبك حوالى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م بجزيرة الروضة بالقاهرة، وأجلس فقهاء المالكية فى الإيوان الشرقى منها[5]. وأخيرًا نقل (كريسويل) عن العلموى، أن الإيوان القبلى فى المدرسة الظاهرية البيبرسية بدمشق كان مرسومًا لفقهاء الحنفية، وأن الإيوان الشرقى كان لفقهاء الشافعية[6].

ويبدو لأول وهلة أن هذه النصوص الأربعة الأخيرة أدلة قوية على صحة نظرية (كريسويل). غير أن الأمر فى رأينا، ليس كذلك، وقد سبق أن شرحنا تفصيلاً وظائف المدرسة، وفيها ما يكفى لاستبعاد نظرية (كريسويل)، ونضيف إلى الأسباب التى شرحناها، أسبابا أخرى.

---

(١) انظر صفحة ٥٠٤ من الجزء الأول من «السلوك»، لا ٥٠٣ كما أورد (كريسويل).

(٢) انظر صفحة ٣٧٩ من الجزء الثانى من «الخطط»، وقد كمل بناء هذه المدرسة فى سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م.

(٣) انظر صفحة ٩٥٢ من الجزء الأول من «السلوك» لا ٩٥١ كما أورد (كريسويل).

(٤) انظر صفحة ٣٨٢ من الجزء الثانى من «الخطط». ويلاحظ أن الإيوان البحرى على خلاف ما ذكر المقريزى أكبر حجمًا من الإيوان القبلى، غير أنه وصفه بالكبير لأنه يتصدر المدرسة وفيه المحراب الكبير. هذا وقد كمل بناء المدرسة سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م، وكان قد أنشأها كتبغا فى سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م.

(٥) انظر صفحة ٩٧ من الجزء الرابع من «الاعتبار لواسطة عقد الأمصار». ويلاحظ أن هذه المدرسة كانت دارًا، وأن ابن دقماق لم يشر إلى بيت الصلاة فيها أو إلى إيوانها القبلى.

(٦) «مختصر الدارس لأخبار المدارس» للنعيمى، ألفه فى القرن السادس عشر الشيخ عبد الباسط العلموى، ولم أستطع مراجعة النص العربى الذى كانت مديرية الآثار السورية تعتزم نشره. والمدرسة الظاهرية بدمشق معاصرة لسميتها بالقاهرة.

أولا: أن الإشارة فى أربعة نصوص إلى تدريس مذهب معين فى إيوان منفرد لا يصح أن تتخذ حجة على إطلاق هذا المبدأ، وتطبيقه فى جميع المدارس. ولا يصح أن يتخذ النص على ثلاث مدارس بالقاهرة، أنموذجًا لما كان يتبع فى أكثر من ثمانين مدرسة غيرها، وصفها المقريزى وابن دقماق وصفًا لم يشيرا فيه إلى محل التدريس فى أى منها، بل لم يشيرا فيه إلى إيوان واحد من أواوينها. وكذلك بالنسبة لمدارس الشام، فقد حدد محل التدريس فى مدرسة واحدة من بين أكثر من مائة وثلاثين مدرسة، جاء ذكرها فى كتابى النعيمى والعلموى.

ثانيًا المدارس الأربع التى أشارت إليها هذه النصوص أنشئت فى عصر المماليك، أى بعد إنشاء المدارس بأكثر من قرنين من الزمان، وبعد استقرار نظم التدريس بها.

ثالثًا: الإيوان لغة هو البيت المؤزج، أى المرتفع بناؤه، غير مسدود الوجه. وقد جاء ذكره بالنسبة للمدارس فى روايات مؤرخين ورحالة من القرن الثامن و التاسع والعاشر الهجرى (الرابع عشر إلى السادس عشر الميلادى)، مثل ابن بطوطة وابن الفوطى وابن دقماق والمقريزى والنعيمى والعلموى، ولم يرد فى كتب المؤرخين والرحالة من القرنين السادس والسابع الهجرى (الثانى عشر والثالث عشر الميلادى)، مثل ابن جبير والإدريسى وياقوت وعبد اللطيف البغدادى وابن الأثير وابن خلكان وابن واصل، مع أن هؤلاء كانوا يشاهدون المدارس تنشأ، ومنهم من زار عدة منها ووصفها، مثل ابن جبير. وهذا يدل على أن لفظ الإيوان كمحل للدرس لم يكن معروفًا قبل القرن الثامن الهجرى وإنما أشير إليه استثناء فيما بعد ذلك[1].

رابعا: لم يكن الإيوان مخصصًا لتدريس مذهب معين، ولم يكن لتعدد المذاهب صلة بتعدد الأواوين فى المدرسة الواحدة. وقد سبق أن لاحظنا أن معظم المدارس الشامية كانت مخصصة لمذهب واحد، وكانت بكل منها أكثر من إيوان بالإضافة إلى بيت الصلاة. ثم إن المدرسة الصاحبية البهائية التى بنيت فى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م والتى «كانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر»[2] كانت فيما يقال تحوى أربعة أواوين، ولم يكن يدرس بها غير المذهب

---

(١) ويغلب على ظنى كذلك أن لفظ «الإيوان» لم يكن مفهومًا على مدلوله الحقيقى عند مؤرخى القرنين الثامن والتاسع الهجرى. ومما يؤيد هذا الظن رواية صاحب «الحوادث الجامعة» عن الشباك الذى يطل على «إيوان» الحنفية فى المدرسة المستنصرية، والحقيقة أنه يطل على قاعة، (انظر فيما سبق)، وكذلك رواية ابن بطوطة عن الأواوين الأربعة فى هذه المدرسة، وهى ليست كذلك، (انظر فيما سبق).

(٢) انظر صفحة ٣٧١ من الجزء الثانى من «الخطط». وهذه المدرسة تبين مدى التناقض فى نظرية (كريسويل)، فهو من جهة يدعى أن نظام المدرسة يرتبط بعدد المذاهب الموقوفة عليها، وأن نظام التعامد فى المدارس نشأ وتكون فى مصر تبعًا للمذاهب الأربعة، وهو من جهة أخرى يعترف فى صفحة ١٢٨ من الجزء الثانى من كتابه، أن أول مدرسة يتعامد نظام أواوينها، وهى هذه المدرسة الصاحبية، لم تكن مخصصة لغير مذهب واحد.

الملكى. وعلى عكس ذلك المدرسة المنصورية، وهى التى بنيت فى سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، فقد كانت موقوفة على فقهاء المذاهب الأربعة، ولم تكن تحوى غير إيوان واحد، بل إنه كان بها أيضًا درس للطب[1]. وكذلك الضريح الذى أنشأه المنصور قلاوون، منشئ المدرسة المنصورية، فقد رتب هذا السلطان به، «درسًا للحديث النبوى ودرسًا لتفسير القرآن الكريم وميعادًا»، وليس بهذا الضريح إيوان ولا أواوين[2]. والحال كذلك بالنسبة للمدرسة الأقبغاوية، وهى قائمة إلى اليوم منذ إنشائها فى سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، وكانت موقوفة على المذهبين الشافعى والحنفى[3]، وليس بها غير بيت صلاة واحد مربع[4].

خامسًا: إذا كان الإيوان القبلى، وهو بيت الصلاة يصلح للتدريس فى جميع الأوقات وفى جميع فصول السنة، فإن الأواوين الثلاثة الأخرى، فى المدرسة ذات النظام المتعامد، تصلح للتدريس فحسب فى ساعات محدودة من النهار، وفى أشهر معدودات من السنة. أما فى غير ذلك فإنها لا تصلح فقط للتدريس، ولا يصح أن تكون مخصصة له، لتعرضها لأشعة الشمس وحرارتها الشديدة، صيفًا، وللبرودة شتاءً. وفى هذا الموضوع أبدى (هرتزفلد) ملاحظة جديرة بالذكر قال فيها: «إنه يعتقد أن الارتباط بين النظام التخطيطى للمدرسة وبين الظروف الناخية أكثر قوة من الصلة بين هذا النظام وعدد المذاهب السنية» التى تدرس فى المدرسة[5]. وقد فسر (هرتزفلد) هذه الحقيقة بالنسبة لمدارس الشام التى تتعرض بعض الأواوين فيها، وجميعها مفتوح على البهو، لصقيع الشتاء، ولكنه لم يفسر هذه الظاهرة بالنسبة لأواوين المدارس فى العراق ومصر، التى تتعرض لقيظ الصيف، ولم يعرها (كريسويل) على أية حال أى انتباه.

وقد فطن الأستاذ ناجى معروف إلى هذه الحقيقة، وأشار إلى أن التدريس فى أواوين المدرسة المستنصرية «لا يمكن أن يكون إلا فى غير فصل الشتاء»، ولهذا فإنه يرجح «أن التدريس كان

---

(١) انظر صفحة ٣٨٠ من الجزء الثانى من «الخطط» والمدهش أن (كريسويل) تجاهل تعدد المذاهب فى هذه المدرسة وادعى أن المقريزى لم يشر إليها، انظر صفحة ١٢٧ من الجزء الثانى من «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٢) انظر صفحة ٣٨٠ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٣) انظر صفحة ٣٨٣ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٤) أتعب (كريسويل) نفسه دون داع فى البحث عن مدارس الشام، وأعد فى صفحة ١٢٣ من الجزء الثانى من كتابه المشار إليه، قائمة طويلة بأسماء المدارس الشامية، وحاول أن يتخذ منها أدلة على أن نظام الإيوانات الأربعة لم يكن معروفًا فى سوريا لأنه لم تكن بها مدرسة واحدة تدرس المذاهب الأربعة. وأخرج فى دمشق ٨٢ مدرسة منها ٣٤ للمذهب الحنفى و ٣١ للمذهب الشافعى و ١٠ للمذهب الحنبلى وواحدة فقط للمذهب المالكى، وعثر فى حلب على ٢٣ مدرسة للمذهب الشافعى و ٢٣ مدرسة حنفية ومدرسة واحدة للمذهبين المالكى والحنبلى.

(٥) انظر صفحة ١٥ من القسم الثانى من المقال المشار إليه فى الحاشية (٢) من صفحة ١٠٣ فيما سبق.

يجرى شتاء فى القاعات الكبرى التى لاتزال قائمة فى الضلع الشرقى من المدرسة»[1]. وأضيف إلى ملاحظة الأستاذ ناجى معروف أن التدريس لا يصلح كذلك صيفًا فى غير إيوان واحد من الإيوانين المكشـوفين، وهو الإيوان الشرقى، المعروف بإيوان الحنفية، أما الإيوان الغربى، المعروف بإيوان الشافعية، فإنه يتعرض طول النهار لأشعة الشمس الحارقة فى هذا الموسم.

والحال بالنسـبة لمدارس مصر كذلك، فإن أشـعة الشـمس تغمر الأواوين الغربية فى الصباح، وتغمر الأواوين الشـرقية والشـمالية طيلة بعد الظهر، وعلى مدار أيام السنة، فإذا علمنا أنه كان مـن المتبع أن تعقد حلقات الدروس بعد صلاة العصر، أدركنا اسـتحالة اسـتخدام هذه الأواوين المكشـوفة للتدريس. وقد تصلح هذه الأواوين للجلوس للقراءة أو التدريس فترة قصيرة من فترات النهار، فى فصل من فصول السـنة، ولا تصلح قط لأداء نفس الغرض فى فصل آخر. وإذا كانت تصلح لأداء الصلاة فى أى موسم من المواسم، وفى أى فترة من فترات النهار، فإنها لا يمكن أن تتخذ مواضع مستقرة للتدريس، أو توصف بأنها مخصصة له.

لعل فى هذه الأسـباب ما يكفى للتحقق من انتفاء الصلة بين تعدد المذاهب وتدريسـها، وبين اتخاذ بعض المدارس لأنظمة الأواوين المتعامدة، ولعل فيها ما يكفى لتحطيم نظرية (كريسويل).

أما كيف اتخذت بعض المدارس ذلك النظام المتعامد فسـنحاول إيضاحه، فى القسم التالى من هذا الفصل.



مراحل تكوين نظام المدرسة والأواوين المتعامدة

أوضحنـا فى «المدخل» مراحل تخطيط المسـجد الجامع[2]، وحددنا العناصر الرئيسـية لهذا التخطيـط. وهى أولا، أن جدار القبلة هو قاعـدة التخطيط، وهو منه بمثابة المحور، وثانيًا، أن بيت الصلاة، وهو أهم بناء بالمسـجد الجامع، يمتد فى موازاة هذا الجدار طولا أكثر من امتداده فى اتجاهه عرضًا؛ وثالثا، أنه يتوسط المسجد الجامع بهو مكشوف فسيح يطل عليه بيت الصلاة ويستمد منه الضوء والهواء، ورابعًا ان هذا البهو محاط بمجنبات ومؤخر.

---

(١) انظر صفحتا ١١٣ و ١١٤ من الجزء الأول من «تاريخ علماء المستنصرية».

(٢) انظر «مساجد القاهرة ومدارسها»، «المدخل»، الفصل العاشر.

وهذه العناصر الرئيسية لتخطيط المسجد الجامع هى نفسها العناصر الرئيسية لتخطيط المدارس، وإن كانت قد تطورت تطورًا اقتضاه تغير نظم البناء والتسـقيف من جهة، وتشـعب الوظائف من جهة أخرى، إلا أنها احتفظت بصفاتها الأولى.

وقد أشرنا فى الصفحات السابقة إلى أهمية جدار القبلة فى تخطيط هذه المدارس، وإلى أنه القاعدة التى يرتكز عليها هذا التخطيط. ولا يقتصر أهمية هذا الجدار على امتداد بيت الصلاة واستطالة البهو أو تربيعه، تمامًا مثل ما يحدث فى تخطيط المساجد الجامعة، بل إن جميع أقسام المدرسة الأخرى وبيوتها تستند عليه. وقد روعى فى تخطيط المدارس جميعا، وبدون استثناء واحد، أن يكون فى كل بيت من بيوتها، وفى كل قاعة من قاعداتها، جدار يوازى جدار القبلة، ويعين اتجاهها. وهذه حقيقة لم يشر إليها حتى اليوم أحد من المشتغلين بالآثار الإسلامية، بالرغم من وضوحها تمامًا على جميع الرسوم التخطيطية المنشورة للمدارس. والغاية التى قصد إليها البنّاء فى ذلك، هى أن يتيسر للمقيمين فى المدرسة، وسكان بيوتها، أن يحددوا اتجاه القبلة فى أى موضع منها عند أدائهم للصلوات اليومية، فى غير بيت الصلاة. وهكذا يتخذ العنصر الأول من عناصر تخطيط المسجد الجامع الرئيسية، وهو جدار القبلة، الأهمية الأولى فى تخطيط المدارس.

وأشرنا كذلك فى الصفحات السابقة إلى أهمية بيوت الصلاة فى هذه المدارس، وإلى أن بيت الصلاة يتخذ موضع الصدارة فى بناء المدرسة، وإلى أنه أكبر بيوتها وقاعاتها مساحة. وهو كذلك لا يتسع فحسب للمقيمين داخل جدران المدرسة، بل يستطيع أن يستوعب، هو والبهو والأواوين، أضعاف عددهم. وهكذا تتحقق الصفة الجامعة لبيت الصلاة فى المدرسة، تمامًا مثلما تتحققق فى بيوت صلاة المساجد الجامعة. غير أن بيوت الصلاة فى بعض المدرس لم تعد تمتد فى موازاة جدار القبلة أكثر من امتدادها عمودية على هذا الجدار، وهذا يرجع كما سبق أن ذكرنا، إلى تطور طرق تسقيف هذه البيوت، واختفاء الأعمدة والدعامات الرافعة للسقف الخشبية، وهى التى كانت تقسم بيت الصلاة إلى أساكيب وبلاطات. وقد تطلب بناء القباب والقبوات أن ترتكز السقف على دعامات أو جدران ضخمة، فسغرت مساحات بيوت الصلاة من جهة، وقل امتدادها من جهة أخرى فى موازاة جدار القبلة[1]. وبالإضافة إلى هذه الظاهرة. كانت معظم المدارس مزودة بأضرحة، وكان الضريح فيها يجاور بيت الصلاة ويقتطع جزءًا من امتداده.

---

(١) انظر فيما سبق.

وساعد على هذا التطور عامل اجتماعى دينى. إذ إن المساجد الجامعة تكاثر عددها فى المدينة الواحـدة، فلـم تعد ثمة حاجة إلى اتسـاع بيوت الصلاة، مثلما كان متبعًا فى المسـاجد الجامعة الأولى. وبالتالى لم تعد لامتداد الصفوف نفس الحكمة التى كانت لها فى تلك المسـاجد. ونلاحظ هذه الظاهرة، ظاهرة تصغير بيوت الصلاة فى المساجد الجامعة نفسها منذ العصر الفاطمى، وأكبر دلالة على ذلك مسـجد الجيوشى، الذى أقيم فى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، ومسجد الأقمر، الذى كمل بناؤه فى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م[١].

أما العنصر الرئيسـى الثالث من عناصر المسـجد الجامع، وهو البهو المكشـوف الفسيح، فقد روعـى أن تزود بمثله كل مدرسـة مـن المدارس، لنفس الحكمة التى روعـى فيها أن يكون لكل مسجد جامع بهو فسيح[٢]. وقد أشرنا فى فصل سابق إلى فسحة أبهاء المدارس بالنسبة لمساحاتها الكلية، واتضحت لنا أهمية اتسـاع هذه الأبهاء، التى ظلت تحتفظ بالوظيفة التى كانت تؤديها فى المساجد الجامعة، وهى تزويد بيوت الصلاة بالضوء والهواء[٣].

وإذا كان تخطيط المدرسـة قد احتفظ بثلاثة من العناصر الرئيسـية لتخطيط المسـجد الجامع، فإننـا نلاحـظ أن العنصر الرابع، وهو عنصر المجنبات والمؤخر، قد تطور فى تخطيط المدرسـة. وقد كان لهذا العنصر أهمية فى إحاطة البهو المكشوف الفسيح بممرات جانبية مسقوفة مؤدية إلى بيت الصلاة، كما كانت لها أهمية فى تزويد المسجد الجامع بمظلات إضافية، لوقاية أكبر عدد من المجتمعين فيه لأداء صلاة الجمعة. وقد ضعفت، أو زالت، هذه الأهمية بالنسـبة للمدارس. لأن عـدد المجتمعـين فى كل منها لصلاة الجمعة قد صغـر، وأصبح محدودًا بعدد المقيمين فيها وفـى الحى القريب منها، ولأن المسـاجد الجامعة تعددت وتكاثـرت فى المدينة الواحدة. ولهذا انكمشت هذه المجنبات والمؤخر فى المدارس، واستبدلت بها بيوت لسكانها، وقاعات وأواوين. وسـاعد على هذا التطور تطور نظم البناء، واسـتبدال القبوات المفتوحة على البهو بالبوائك التى كانت تحيط به.

اتضح لنا من الرسـوم التخطيطية للمدارس أن نظامها كان تطورًا لنظام المسـجد الجامع، وأنها تحتفظ بالعناصر الرئيسـية لهذا النظام. ولاشـك فى أن نظام المسـجد الجامع نفسـه قـد تطـور كذلك تطورا مماثلا، وقد لاحظنا هذا التطور فى بعض مسـاجد القاهرة فى العصر

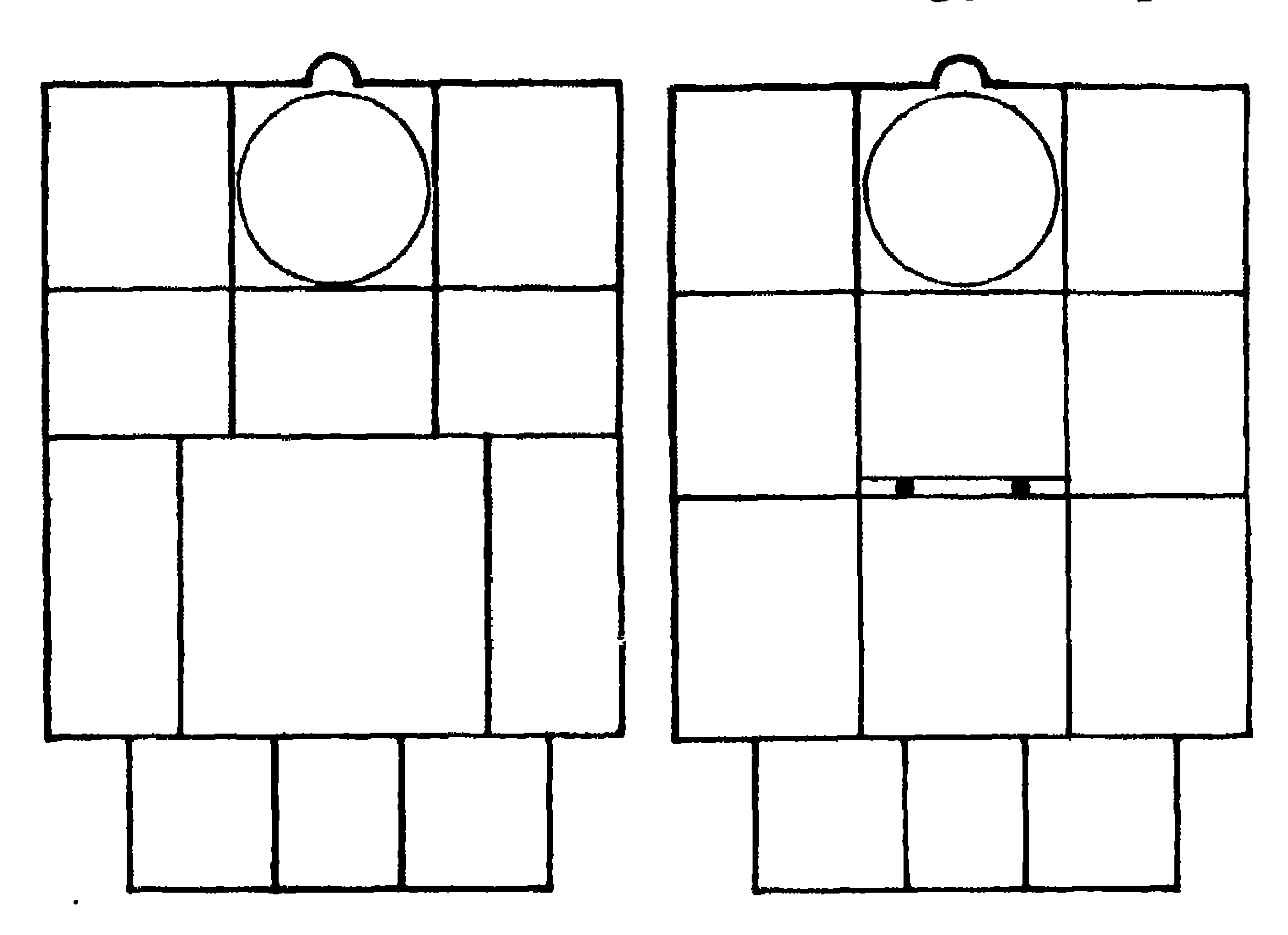
---

(١) انظر الجزء الأول، «العصر الفاطمى»، من هذا الكتاب.

(٢) انظر «المدخل»، وفيها إيضاح لأهمية البهو.

(٣) انظر فيما سبق.

الفاطمى، حتى إن الرسم التخطيطى البيانى لمسجد الجيوشى يبدو كأنه رسم تخطيطى بيانى لمدرسة سورية شكل (٥٢). غير أنه يتعذر علينا متابعة هذا التطور تفصيلا لاندثار آثار المساجد الجامعة فى العصر الأيوبى.



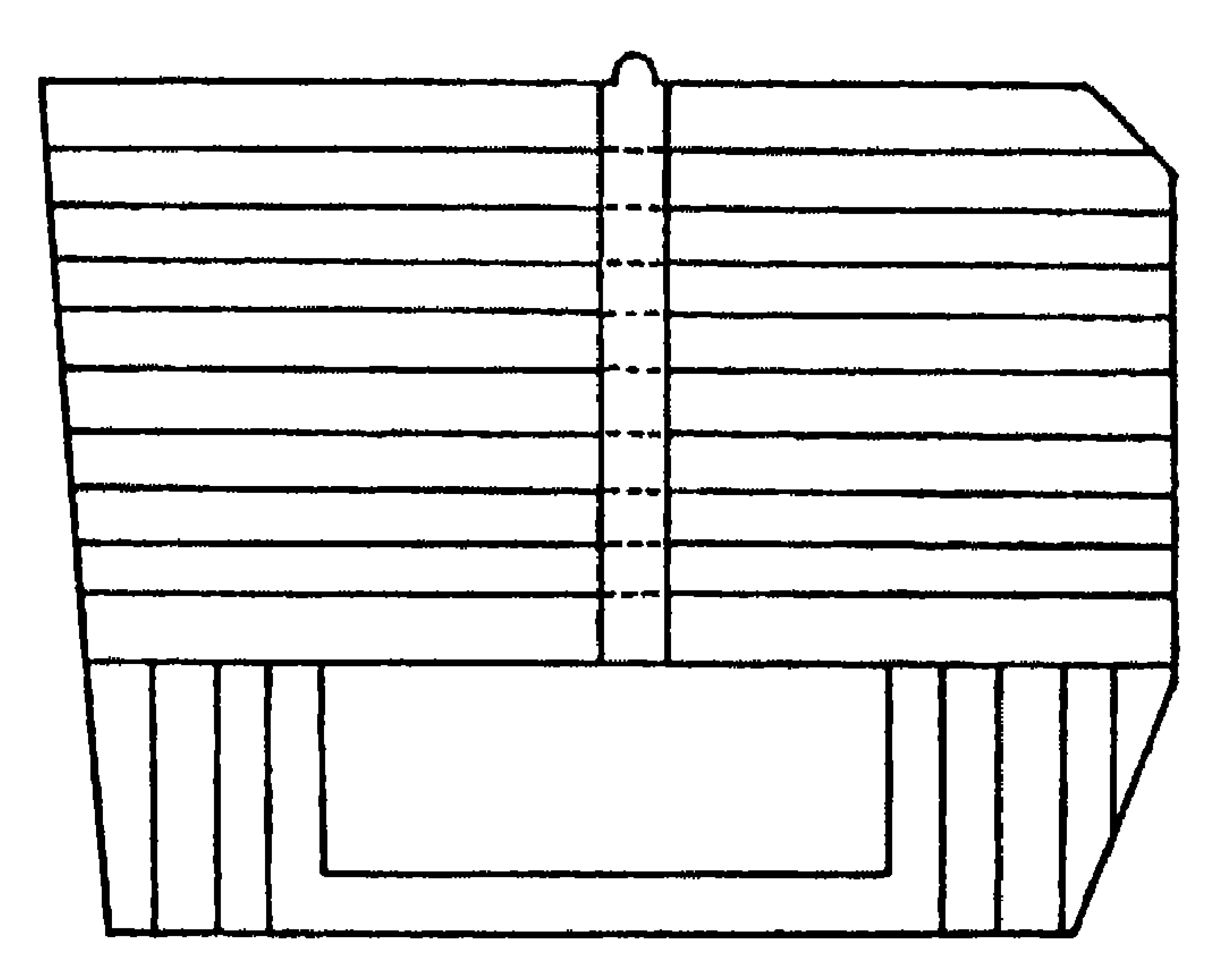
شكل (٥٢) – رسم تخطيطى بيانى – أ – لمسجد الجيوشى، و – ب – لمدرسة سورية

ولكن اقتناعنا بطبيعة هذا التطور يزداد يقينًا عند مقارنته بالتطور الذى حدث فى أنظمة المساجد الجامعة والمدارس فى بلاد المغرب. ونلاحظ أن مجنبات البهو فى بعض المساجد الجامعة المغربية قد اتسعت وزاد عدد أروقتها، كما يشاهد مثلا فى مسجد الجزائر الذى أنشئ فى سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م، وفى مسجد تلمسان الجامع الذى كمل بناؤه فى سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م، وفى مسجد القرويين بفاس، شكل (٥٣)، الذى زيدت مجنباته فى سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، وفى مسجد الكتيبة بمراكش، شكل (٥٤)، الذى يرجع تاريخه إلى سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م[1]. هذا من جهة، ونلاحظ من جهة أخرى أن المسجد الجامع فى تلك البلاد لم يتغير نظامه فيما عدا

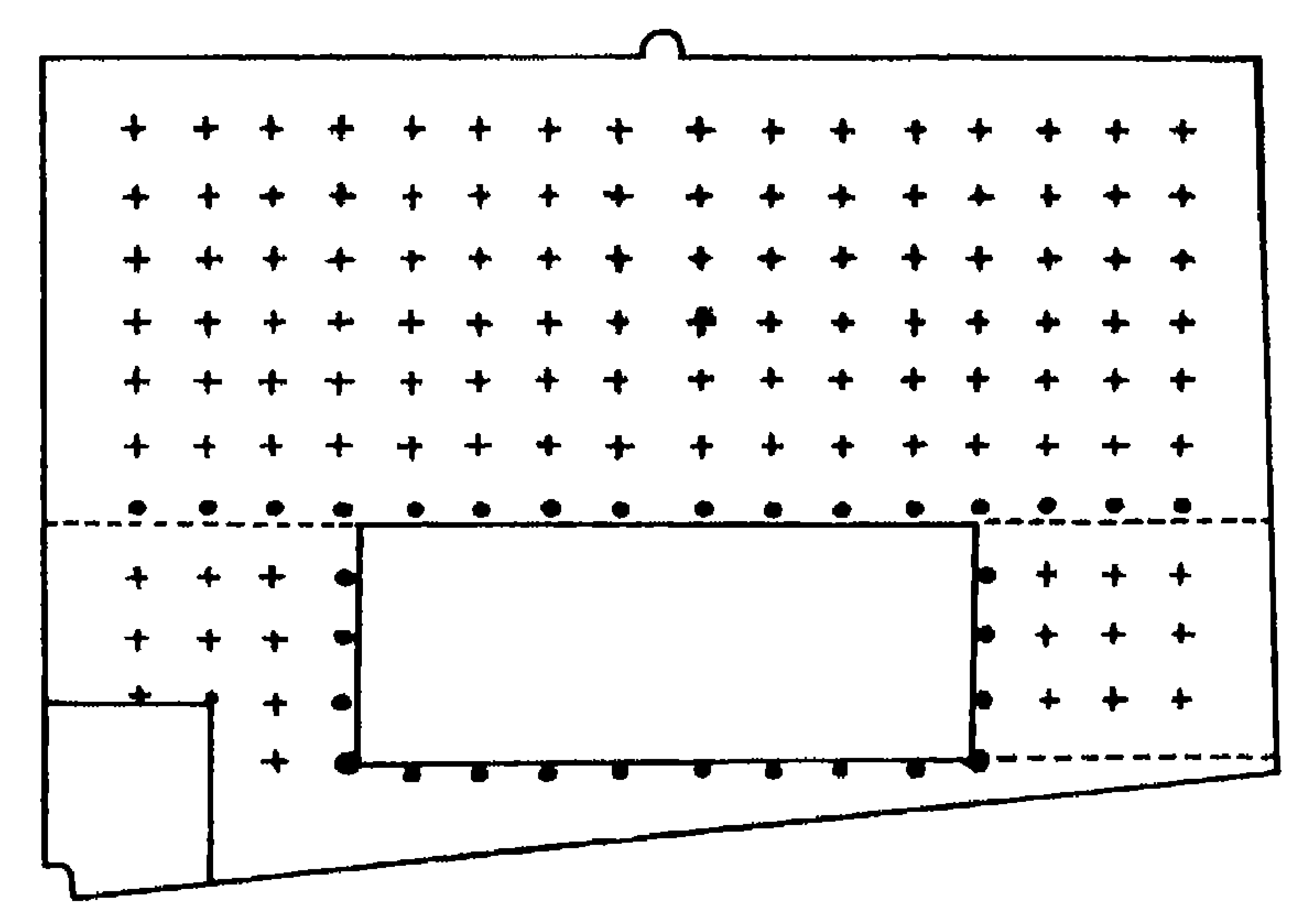
(١) انظر الرسوم التخطيطية لهذه المساجد فى صفحات ١٩١ و ١٩٢ و ١٩٩ و ٢٠٥ من كتاب (مارسيه) «العمارة الإسلامية فى الغرب»:

MARÇAIS, George; *L'Architecture Musulmane d'Occident*, Paris. 1954.

اتســاع المجنبات، وظل محتفظًا بطابعه وعناصره الأولى، والسبب الرئيسـى فـى ذلك أن نظـام البنـاء لـم يتغيـر كـذلك، ولـم تدخـل عليه أنظمة السقف المبنيـة والقبـوات، فظلـت السـقف خشـبيـة مسطحـة، وظلـت بيوت الصلاة والمجنبات والمؤخر تطـل

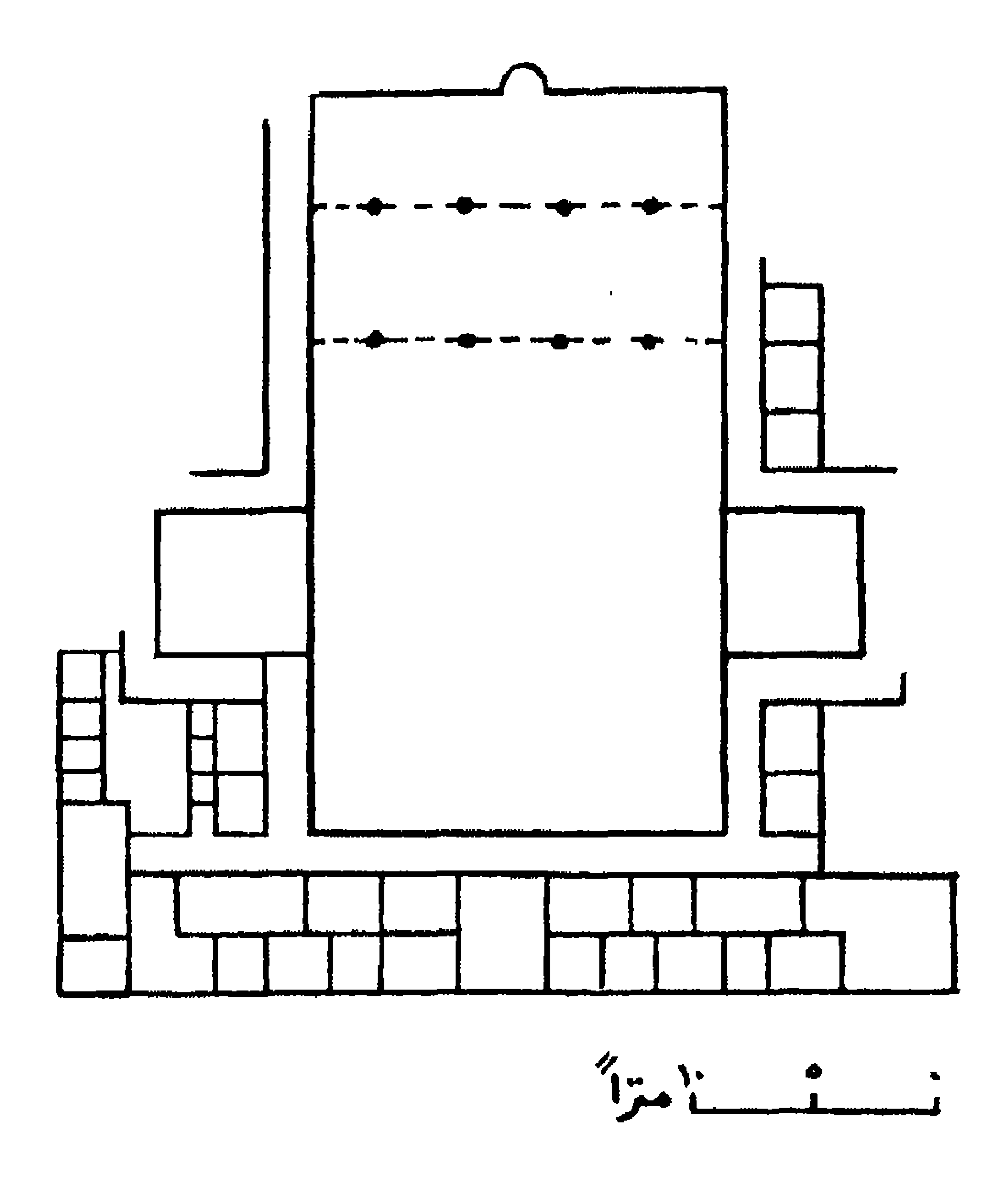


شكل (٥٣) – رسم تخطيطى بيانى لمسجد القرويين الجامع بفاس (عن مارسيه)



شكل (٥٤) – رسم تخطيطى بيانى لمسجد الكتيبة الجامع بمراكش (عن مارسيه)

على البهو، ببوائك من عقود مرفوعة على أعمدة أو دعامات. ونلاحظ أخيرًا أن المدارس فى تلك البلاد احتفظت كذلك بأنظمة المساجد الجامعة وبعناصرها الرئيسية. وأكبر دلالة على ذلك مدرسة الصهريج، أو المدرسة الكبرى، فى فاس، وهى مدرسة أقيمت حوالى سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، فإن بيت الصلاة فيها يمتد فى موازاة جدار القبلة مثل امتداده فى المساجد الجامعة، ويطل على بهو مستطيل فسيح، كأنه أقيم فى مسجد جامع، ويحيط رواق بالبهو من جهاته الثلاث، كما تحيط به بيوت للطلاب، أقيمت خلف هذا الرواق، محتلة موضع أروقة المجنبات والمؤخر الأخرى[1]. وكذلك الحال للمدرسة العنانية فى فاس شكل (٥٥)،



شكل (٥٥) – رسم تخطيطى بيانى للمدرسة العنانية بفاس (عن مارسيه)

(١) انظر الرسم التخطيطى فى صفحة ٢٨٢ من المرجع المشار إليه فى الحاشية السابقة.

وهى التى أنشئت حوالى سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م[1]، فإن بيت الصلاة فيها يمتد على صورة مطابقة لبيوت الصلاة فى المساجد الجامعة، ويطل على بهو فسيح تحيط به مجنبات من رواق واحد، أقيمت خلفه بيوت الطلاب من طابقين. والتطور الظاهر فى هذا البناء أنه أقيمت قاعة مربعة فى منتصف كل من المجنبتين الشرقية والغربية للبهو، وأقيمت قبة عليها، ولعل هذه الظاهرة كانت اشتقاقاً من التطور الذى حدث من قبل فى مدارس المشرق الإسلامى[2]، وهى على كل حال ظاهرة تنفرد بها المدرسة العنانية وخلت منها جميع المدارس المغربية. أى أن تطور المسجد الجامع إلى مدرسة، فى بلاد المغرب، اقتصر على اقتطاع أروقة من مجنبات البهو لتزويد البناء بغرف للطلاب، وفيما عدا ذلك فقد احتفظت المدارس فى تلك البلاد بجميع العناصر الرئيسية للمساجد الجامعة[3].

وكذلك سبق أن أشرنا فى الفصل الخامس من هذا الكتاب إلى اتساع المجنبات فى مسجد نايين بفارس، من حوالى سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م، وإلى المسجد الجامع فى إصفهان، الذى أدخلت على بيت صلاته ومجنباته ومؤخره أواوين، فبدا على نظام المدارس الذى اتبع فيما بعد، فى أوائل القرن الثانى عشر (الثامن عشر الميلادى)، فى مدرسة ماديرى شاه فى اصفهان كذلك. وهذا التطور لا يدع مجالات للشك فى اتخاذ نظام المسجد أساسًا مختفظًا عناصره، لوضع نظام المدرسة.

توضح الرسوم التخطيطية للمدارس القائمة فى البلدان العربية، مشرقًا ومغربًا، أن هذه المدارس فى الحقيقة مساجد جامعة أدخلت عليها تعديلات طفيفة لملاءمة الوظيفة الإضافية التى تؤديها تلك المدارس، ولمسايرة التطور فى نظم البناء. وتؤيد روايات المؤرخين عن صفة المدارس «الجامعة» هذه الحقائق. ومن ذلك ما رواه ابن خلكان من أن كمال الدين بن منعة كان يدرّس بعد وفاة والده يونس بن محمد فى سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م «فى موضعه بالمسجد»، ويضيف ابن خلكان أنه رأى هذا المسجد نفسه بالموصل وأنه «على وضع المدرسة وتعرف بالمدرسة الكمالية»[4]. وذكر المقريزى أن بمدرسة الجاى منبرًا «يخطب عليه يوم الجمعة»[5]، وأن بمدرسة منجك اليوسفى منبرًا، وخطيبًا «يصلى بالناس فيه صلاة الجمعة»[6]، وأنه كان

---

(١) انظر الرسم التخطيطى لهذه المدرسة فى صفحة ٢٩٢ من المرجع المشار إليه فى حاشية صفحة ١٨٦ فيما سبق

(٢) وهذا ما يفترضه الأستاذ (مارسيه) فى صفحة ٢٩٣ من المرجع المشار إليه فى حاشية سابقة.

(٣) انظر صفحات ٢٨٤ إلى ٢٩٤ من كتاب (مارسيه) وفيها عرض شامل لهذه المدارس.

(٤) انظر صفحة ٦٩٦ من الجزء الرابع من «وفيات الأعيان»، طبع المطبعة الأميرية.

(٥) انظر صفحة ٣٩٩ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٦) انظر صفحة ٣٢٠ من الجزء الثانى من «الخطط».

بالمدرسة الناصرية «إمام يؤم الناس فى الصلوات الخمس»[1]، وأن صلاة الجمعة كانت تقام بالمدرسة الأشرفية[2]، وأن مدرسة السلطان حسن مسجد جامع، من عجائبه «المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامعة»[3]. وكانت الجمعة تصلى إلى عهد المقريزى «بالمدرسة الصاحبية»[4]. ووضع المقريزى المدرسة الأشرفية فى باب المساجد[5]، وكذلك المدرسة الأصلمية التى كانت معروفة بجامع أصلم[6]، وذكر المدرسة الملكية مرة فى باب الجوامع[7] ومرة أخرى فى باب المدارس[8]. وتوجد على باب مدرسة الجاى لوحة تأسيسية عليها أن الجاى أتابك العساكر، أمر فى سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م «بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المبارك»[9]. ويبدى المقريزى أسفه من أن المدرسة البهائية ظلت «مدة أعوام معطلة عن ذكر الله وإقام الصلاة»[10]. وروى صاحب «الخطط» أنه كان بالمدرسة الزمامية منبر «يخطب عليه فى كل جمعة، وبينها وبين المدرسة الصاحبية دون مدى الصوت، فيسمع كل من يصلى بالموضعين تكبير الآخر»[11]. ويستنكر المقريزى ذلك ويضيف «أن هذا وأنظاره بالقاهرة من شنيع ما حدث فى غير موضع»[12]. وكانت صلاة الجمعة تقام فى «المدارس» الصالحية إلى عهد المقريزى[13].

ولا تكاد تخلو شروط وقفية من وقفيات المدارس فى أى من البلدان العربية من ذكر إمام أو خطيب يعين من بين المدرسين أو بالإضافة إليهم، وكذلك من ذكر المؤذن، إذ أنه كان غالبًا

---

(١) انظر صفحة ٣٨٢ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٢) انظر صفحة ٣٣١ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٣) انظر صفحة ٣١٦ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٤) انظر صفحة ٣٧١ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٥) انظر صفحة ٣٣٠ من الجرء الثانى من «الخطط».

(٦) انظر صفحة ٣٠٩ من الجزء الثانى من «الخطط»

(٧) انظر صفحة ٣١٠ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٨) انظر صفحة ٣٩٢ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٩) انظر صفحه ٢٨٩ من (فان برشم) «موسوعة النقوش العربية»، الجزء الأول.

(١٠) انظر صفحة ٣٧١ من الجزء الثانى من «الخطط»

(١١) انظر شرحه، صفحة ٣٩٤؛ وهذا يؤيد ما ذكرناه من تعدد المساجد الجامعة وكثرتها فى المدينة الواحدة وأثر ذلك فى تصغير بيوت الصلاة فى المدارس والمساجد وتصغير أبهائها.

(١٢) انظر صفحة ٣٩٤ من الجزء الثانى من «الخطط».

(١٣) انظر صفحة ٣٧٤ من الجزء الثانى من «الخطط»، وانظر صفحتا ٦٠ و ٧٥ فيما سبق.

مـا يراعى تزويد كل مدرســة بمئذنة، بالرغم مــن تعدد المآذن حينذاك فــى الحى الواحد وفى المدينــة الواحدة. وقد رأينا أنه كان للمدارس الصالحية مئذنة ماتزال قائمة، وأنه كان يجاورها، ولايــزال يجاورها عــدة من المآذن. ومعنى ذلك أنه بالرغم من أن الحاجة فى تلك العصور لم تعد تســتدعى إقامة مئذنة خاصة لكل مدرســة، كما كان الحال فى الشام والعراق، إلا أن البناة فى القاهرة كانوا يشــعرون أن المئذنة توكيد لصفــة الجماعة بالمدارس. ومن ذلك ما رواه المقريزى من أن الســت الجليلة خوند تتر الحجازية أنشــأت مدرسة فى سنة ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م، واشترطت، فيما اشترطت، أن يكون بها إمام يخطب فى يوم الجمعة من فوق منبرها، «وأن تقام فيها منارة عاليــة مــن الحجارة ليؤذن عليها»[1]. ومن ذلك ما رواه المقريزى كذلك من أنه لما أراد الســلطان الملك الناصر فرج بن برقوق هدم مدرســة جمال الدين الأســتادار فى سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م، كرّه «ذلك للسلطان الرئيس فتح الله كاتب السر، واستشنع أن يهدم بيت بنى على اسم الله يعلن فيه بالآذان خمس مرات فى اليوم والليلة، وتقام به الصلوات الخمس فى جماعة عديدة»[2].

تستمد المدرسة إذن كيانها ونظامها من المسجد الجامع الذى تطورت عمارته وتخطيطه تطورًا منطقيًّا، اقتضته من جهة، كما رأينا فى الفصل الخامس من هذا الكتاب، تطور نظم البناء وطريقة تســقيف بيت الصلاة والمجنبات، واقتضته من جهة أخرى، إضافات بنائية اســتلزمتها إضافة وظيفة جديدة لهذا المســجد الجامع. وهكذا يمكن تعريف المدرســة فى الإسلام بأنها هى المسجد الجامــع، الذى أقيمت فى حرمه بيوت لســكنى فريق مختار من الفقهــاء، أو الطلاب، ورتب لتدريســهم فيه مدرســون بأجر «معلوم»، ووفرت للجميع فيه ســبل البحث والدراسة والمعيشة، وأجريت عليهم الجرايات «الوافرة الدارية»[3].

---

(١) انظر صفحة ٣٨٢ من الجزء الثانى من «الخطط».

(٢) انظر صفحة ٤٠٢ من الجزء الثانى من «الخطط»

(٣) لا ينطبــق هــذا التعريف على المدارس الصغرى التى أسميناها «ثانوية» (انظر فيما ســبق) ومثل هذه المدارس «الثانوية» مثل المســاجد. فالمســاجد الجامعة تخضع نظمها وتخطيطها لقواعد تقليدية ثابتة، (انظر «المدخل» صفحة وما يليها)، أما المساجد غير الجامعة فلا ترتبط نظمها بتخطيط معين، انظر «المدخل»، فإن أى قاعة من القاعات تصلح أن تكون مســجدًا غير جامع بشــرط توافر نظافتها وطهارتها. وكذلك الحال بالنســبة للمدارس، فإنه يمكن اتخاذ أى دار من الدور مدرســة «ثانوية»، إذا كانت بها غرف تصلح لســكنى الطلاب، وقاعة تصلح للصلاة والتدريس، أو كانت ملاصقة أو قريبة من مســجد جامع. ولهذا فإن التعريف الذى وضعته أعلاه للمدرســة مقصور على المدارس الكبرى.

بيان مفصل بأسماء الكتب والبحوث المشار إليها فى صفحات الجزء الثانى

١ – ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى، المعروف بابن بطوطة) والمتوفى سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م؛ «تحفة النظام فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، مطبعة وادى النيل بمصر، سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م.

٢ – ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى)، المتوفى سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م؛ «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، صدر منه ١٢ جزءًا، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٩م – ١٩٥٦م.

٣ – ابن جبير، المتوفى سنة ٥٥٩هـ / ١٢٠٢م؛ «رحلة ابن جبير»، نشر الدكتور حسين نصار، مكتبة مصر ١٩٥٥م.

٤ – ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر)، المتوفى سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م؛ «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، ٤ أجزاء، طبع المطبعة الأميرية، القاهرة سنة ١٢٧٥هـ / ١٨٥٩م، و (٦ أجزاء طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م بتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد).

٥ – ابن دقماق (إبرهيم بن محمد أيدمر العلائى)، المتوفى حوالى سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م، «كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار»؛ الجزءان الرابع والخامس، طبع المطبعة الأميرية، القاهرة سنة ١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م.

٦ – ابن الشحنة (محمد)، المولود حوالى سنة ٨٠٠هـ / ١٤٩٧م، «الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب»، نشره يوسف إلياس سركيس، بيروت، ١٩٠٩م.

٧ – ابن الفوطى (كمال الدين أبو الفضل الشيبانى)، المتوفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٢٣م؛ «الحوادث الجامعة»، نشره الأستاذ مصطفى جواد، بغداد سنة ١٥٣١هـ / ١٩٣٢م – والكتاب منسوب للمؤلف.

٨ – ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف)، المتوفى سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م، «أخبار مصر»، نشر (هنرى ماسيه) القسم المعروف من الكتاب فى «مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية»، القاهرة ١٩١٩م.

٩ – ابن واصل (جمال الدين أبو عبد الله)، المتوفى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م، «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب»، نشره المرحوم جمال الدين الشيال، وظهرت منه ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٣م – ١٩٦٠م.

١٠– أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى)، المتوفى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م؛ «كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية»، تحقيق الدكتور محمد على أحمد ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٢م.

– أبو المحاسن؛ انظر ابن تغرى بردى.

١١ – أمين (أحمد)؛ «ضحى الإسلام»، ٣ أجزاء، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٦١م.

١٢ – أمين (دكتور حسين)؛ «المدرسة المستنصرية»، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٦٠م.

١٣– البغدادى (موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن أبى سعد)، المتوفى سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م؛ «الإفـادة والاعتبـار فى الأمور المشـاهدة والحـوادث المعاينة بأرض مصـر»، طبع القاهرة سنة ١٨٧٠م.

١٤– بهجت (على) و (جبرييل)؛ «حفائر الفسطاط»:

BAHGAT (Aly) et GABRIEL (Albert); *Fouilles d'Al-Foustat*, Publications de Musée d'Art Arabe du Caire, Le Caire, 1921.

١٥– (بوب)؛ «موسوعة الفن الفارسى»:

POPE (Arthur Upham); *A Suruey of Persian Art*, 6 vols, Oxford, 1938 – 39.

١٦ – ... ؛ «العمارة الفارسية»:

.. .; *Persian Architecture*, London, 1965

وانظر (دين) و (رويتر) و (شرودر).

١٧ – (بوتى)؛ «الأخشاب المنحوتة»:

PAUTY (Edmond); *es Bois Sculptés jusqu'á l'Epoque Ayyoubide*, (Catalogue Général du Musée Arabe du Caire), Le Caire, 1931.

– (جبرييل)؛ «حفائر الفسطاط»، انظر بهجت (على).

١٨– (جرابار): «تعريف كتاب العمارة الإسلامية فى مصر»:

GRABAR (Oleg); *K.C. Creswell, Muslim Architecture of Egypt*. Review in Ars Orientalis, Vol. IV, 1961, pp. 426 – 427

١٩- (جودار): «مصدر المدرسة»، مقال فى مجلة الفن الإسلامى:

GODARD (André); *L'Origine de la Medrasah, de la Mosquée et du Caravansérail á quatre lwens,* in Ars Islamıca, Vol XV-XV, 1951, pp. 1- 9

٢٠- حمزة (عبد اللطيف)؛ «الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والملوكى الأول»، القاهرة، ١٩٤٧م.

٢١- حميد (دكتور عبد العزيز)؛ «عمارة الأربعين فى تكريت»، مقال بمجلة سومر، الجزء الأول والثانى، المجلد الحادى والعشرون، بغداد سنة ١٩٦٥م، صفحات ١٢٣ إلى ١٥٥.

٢٢- خسرو (ناصرو)؛ «سفرنامه»، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٥م.

٢٣- (دين)؛ فصل فى «موسوعة الفن الفارسى»، انظر (بوب):

DIEZ (Ernst); *The Principles and Types,* in vol III of POPE; A Survey of ersian PArt, pp 916 - 929.

٢٤- (ويتر)؛ «العمارة البارتية»، فصل فى الجزء الأول من «موسوعة الفن الفارسى»، انظر (بوب):

REUTHR (Oscar); Parthian Architecture, in Vol I of POPE; A Survey of Persian Art, pp 411 - 444.

٢٥- ...؛ «العمارة الساسانية»، فصل فى الجزء الأول من «موسوعة الفن الفارسى»:

...; *Sasanian Architecture,* in Vol I. of POPE, *A Survey of Persian Art,* pp. 428 - 431.

٢٦- ساطع (أكرم): «المدرسة الظاهرية فى حلب»، مقال فى مجلة «الحوليات الأثرية السورية»، المجلد الخامس، جزء أول (سنة ١٩٦٥م)، صفحات ٤٧ إلى ٥٤.

٢٧- السبكى (أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين)، المتوفى سنة ٧٧١هـ / ١٣٧١م، «طبقات الشافعية الكبرى»، ٦ أجزاء، طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة، سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م.

٢٨- (سلادان)؛ «كتاب الفن الإسلامى»:

SALADIN (Henri); Manuel d'Art Musulman, L'Architcture Paris, 1907

٢٩- (سوفاجيه)، «الآثار الأيوبية فى دمشق»:

SAUVAGET, es Monuments Ayyoubıdes de Damas, Paris, 1938.

٣٠- ... ، «الفن الساسانى»، مقال فى مجلة «الدراسات الإسلامية»:

...; Remarques sur l'Art Sassanide, Revure des Etudes Islamiques, Paris. 1938

وانظر (كومب).

٣١- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)، المتوفى سنة ٩١١هـ / ١٦٠٥م؛ «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة»، جزءان، طبع المطبعة الأميرية، بولاق سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م؛ و ٤ أجزاء طبع المطبعة الشرقية بالقاهرة، سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م.

٣٢- (شرودر)، «آثار العصور الأولى»، فصل فى «موسوعة الفن الفارسى»، انظر (بوب):

SCHROEDER (Eric); Standing monuments of the First Period, in Vol III of POPE; A Survey of Persian Art.

٣٣- الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك)، المتوفى سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م «كتاب الوافى بالوفيات»، ٤ أجزاء، طبع مطبعة وزارة المعارف فى إستانبول، ١٩٣١م إلى ١٩٥٤م.

- الطرابلسى، انظر الهمذانى.

٣٤- العرينى (الدكتور السيد الباز)؛ «مصر فى عصر الأيوبيين»، القاهرة ١٩٦٠م.

٣٥- العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل)، المتوفى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م؛ «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»، الجزء الأول، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م.

٣٦- عنان (محمد عبد الله)؛ «تاريخ الجامع الأزهر»، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٨م.

٣٧- الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد بن محمد)، المتوفى سنة ٥٠٥هـ / ١١١٢م؛ «إحياء علوم الدين»، ٤ أجزاء، المطبعة الميمنية بالقاهرة، سنة ١٣١٢هـ / ١٨٩٥م.

٣٨- (فان برشم)؛ «موسوعة النقوش العربية»، القسم الأول، مصر:

VAN BERCHEM (Max); Corpus Inscriptionum Arabicorum, I'ére Partie, Egypte, Mémoires publiés par les Membres de le la Mission Archéologique Française au Caire, Tome XIX, Paries. 1894.

٣٩ - ... ؛ «العمارة»، فى الجزء الأول من «دائرة المعارف الإسلامية»:

... ; Architecture, in Encyclopoedia of Islam, Vol. I, Leyden, 1913.

٤٠- (فايل)؛ «الأخشاب المنقوشة بالكتابات»:

WEILL (Jean David); *es Bois á Epigraphes jusqu'á 'Epoque Mamlouke,* Catalogue Général du Musee Arabe du Caire, Le Caire, 1931.

٤١- فكـرى (أحمد)؛ «مساجد القاهرة ومدارسها»، «المدخل»، دار المعارف بالإسكندرية ١٩٦٢م.

٤٢- ..؛ «مساجد القاهرة ومدارسها»، الجزء الأول - العصر الفاطمى، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٦م.

٤٣- «فهـرس الآثار الإسـلامية بمدينة القاهرة»، مصلحة المسـاحة، سـنة ١٩٥١م؛ وانظر «مساجد مصر».

٤٤- (فييت)؛ «مشكاوات وقنان»:

WIET (Gaston).; *Lampes et Bouteilles en Verre Emaillé,* Catalogue Général du Musée Arabe du Caire, Le Caire, 1929.

٤٥- ...؛ « التحف المعدنية»:

...; Objets en Cuivre, Catalogue Général du Musée Arabe du Caire, Le Caire, 1932.

٤٦- ...؛ «نقوش الشافعى»:

...; Les Inscriptions du Mausolée de Chafei, Bulletin de Institut d'Egypte Tome XV. Le Caire, 1933.

٤٧- (فييت) و (هوتكور)؛ «مساجد القاهرة»:

WIET (Gaston) et HATECOEUR (Louis); *Les Mosquées du Caire,* 2 vols. Paris, Leroux, 1932.

وانظر (كومب).

٤٨- القلقشندى (الشيخ أبو العباس أحمد)، المتوفى سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»، ١٤ جزءًا، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٣م - ١٩١٩م.

٤٩- (كازانوفا)؛ «تاريخ قلعة القاهرة ووصفها»:

CASANOVA (P.); *Histoire et Description de la Citadelle du Caire,* Mémoires publiés par les Membres de la Mission Archéologigue Française au Caire, Tome VI pp. 509 - 781, Pairs, 1894.

٥٠- (كريسويل)؛ «مصدر تخطيط المدارس القاهرية الصليبى».

CRESWELL (K C); *The Origins of the Cruciform Plan of Cairene Madrasahs,* Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Tome XXI, pp. 1- 54, Le Caire, 1922.

٥١- ...، «العمارة الإسلامية فى مصر».

... : *Muslim Architecture of Egypt*, 2 vols Clarendon Press, Oxford, 1952 - 1959.

٥٢- (كومب) و (سوفاجيه) و (فييت) و (إليسيف)؛ «مرجع الكتابات العربية»:

COMBE, SAUVAGET, WIET & ELISSEF; *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe*, 16 vols. Le Caire, 1931 – 1964.

٥٣- (لوفيه)، «المدرسة السلطانية بحلب»:

LAUFFRAY (J); *Une madrasah Ayyoubide de la Syrie du Nord La Sultaniya d'Alep, Etude Architecturale*, Annales Achéologigue de Surie, Tome III, 1953.

٥٤- (لين بول)؛ «تاريخ القاهرة»:

LANE-POOLE (Stanley); *History of Cairo, London*, 1902.

٥٥- (مارسيه)؛ «آثار تلمسان العربية»:

MARÇAIS (George); *Les Monuments Arabes de Tlemcen*, Pairs, 1903.

٥٦- ... ؛ «العمارة الإسلامية فى الغرب»:

... ; *L. Architecture Musulmane* d'Occident, Pairs, 1954.

٥٧- مبارك (على)؛ «الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة»، ٢٠ جزءًا، المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٣٠٥هـ - ١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م - ١٨٨٩م.

٥٨ - «محاضر لجنة حفظ الآثار العربية»؛ ظهر منها ٤١ جزءًا من سنة ١٨٨٢م إلى ١٩٦٣م، بعضها باللغة العربية، ومعظمها باللغة الفرنسية، كما ظهر منها فهرس عام باللغة الفرنسية للأعداد الـ ٢٧ الأولى من سنة ١٨٨٢م إلى سنة ١٩١٠م.

٥٩- «مساجد مصر»؛ جزءان، وزارة الأوقاف، القاهرة ١٩٥٢م.

٦٠- معروف (ناجى)، «تاريخ علماء المستنصرية»، الطبعة الثانية، جزءان، مطبعة العانى، بغداد ١٩٦٥م.

٦١- ... ؛ «نشأة المدارس المستقلة فى الإسلام»، مطبعة الأزهر، بغداد ١٩٦٦م.

٦٢- ... ؛ «المدارس الشرابية»، بغداد ١٩٦٦م.

٦٣- المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر، المعروف بالبشارى، والمشهور بالمقدسى)، المتوفى حوالى سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م؛ «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم»، (الجزءان الثالث والرابع من المكتبة الجغرافية العربية)، طبع ليدن، سنة ١٨٧٧م؛ الطبعة الثانية، ليدن سنة ١٩٠٦م.

٦٤- المقريــزى (الشــيخ تقــى الدين أحمد بن على بــن عبد القادر)، المتوفى ســنة ٨٥٤هـ / ١٤٤٢م؛ «المواعظ والاعتبــار فى ذكر الخطط والآثار فى مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار»، المشــهور بـ «الخطط»، جزءان، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة، ســنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م.

٦٥- ...؛ «السلوك لمعرفة دول الملوك»، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة، وظهر منه جزءان فى ٦ أقسام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٣م - ١٩٥٨م.

٦٦- النعيمى (عبد القادر بن محمد)، المتوفى سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢١م؛ «الدارس فى تاريخ المدارس»، عنى بنشره وتحقيقه جعفر الحسينى، الجزء الأول، دمشق ١٩٤٨م.

٦٧- (هرتزفلد)؛ «دراسات فى العمارة»:

HERZFELD; *Studies in Architecture*, in Ars Islamical I, Vol IX 1942, pp. 153-; II, Vol X, 1943, pp. 13 - 70, III, Vol. XI-XII. 1946, pp. 1 - 71.

٦٨- (هرتس، مكس)؛ «أضرحة العباسيين»:

HERZ (Max); *es Sépulturcs Abbasides prés de la Mosquée d'El-Sayeda Nafisa*, Bulletin du Comité de Conservation des Monuments Arabes, Le Caire, 1911.

٦٩- ... ؛ «مساجد السلطان الصالح نجم الدين أيوب وضريحه»:

...; *Mosquées et Tombeau du Sultan Daleh Negm El-Dyn Ayyoub*, Bulletin du Comité de Conservation des Monuments Arabes Le Caire, 1902 Reprinted in Bulletin de l'Institut d'Egypte, 4° série, No 5, pp. 25 - 31, Le Caire, 1904.

٧٠- ...؛ «فهرس مقتنيات دار الآثار العربية»، تعريب على بهجت، المطبعة الأميرية، ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م.

٧١- ...، «جامع السلطان حسن»، تعريب على بهجت، المطبعة الكبرى الأهلية بالقاهرة ١٩٠٢م.

٧٢- الهمذانى (بديع الزمان)؛ «كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان» نشر الطرابلسى (إبراهيم أفندى الأحدب)، المطبعة الكاثوليكية فى بيروت، سنة ١٩٢١م.

- (هوتكور)، انظر (فييت).

٧٣- ياقوت (شهاب الدين الحموى الرومى)، المتوفى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، «كتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»، نشره (مرجوليوث)، ليدن، ١٩٠٧م - ١٩١١م.

بيان الأشكال

صفحة

صفحة

صفحة

بيان اللوحات

لوحة رقم (١) منحوتات خشبية من سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م – زخارف من تابوت المشهد الحسينى.

لوحة رقم (٢) قطع من أوان خزفية من العصر الأيوبى بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

لوحة رقم (٣) منظر عام لقلعة الجبل.

لوحة رقم (٤) برجا الرملة والحداد فى قلعة الجبل من العصر الأيوبى.

لوحة رقم (٥)

أ – أبراج السور الشرقى من قلعة صلاح الدين.

ب – برجا المقطم وكركيالان فى القلعة.

لوحة رقم (٦) برج الإمام يتوسط السور الجنوبى الغربى من قلعة الجبل.

لوحة رقم (٧) باب المدرج فى قلعة صلاح الدين.

لوحة رقم (٨) برج الحداد فى قلعة الجبل.

لوحة رقم (٩)

أ – قبة مشهد الإمام الشافعى – منظر خارجى.

ب – مقرنصات قبة الإمام الشافعى.

لوحة رقم (١٠) قسم من الطابق الأوسط لمشهد الإمام الشافعى.

لوحة رقم (١١)

أ – مدخل مشهد الثعالبة (ضريح فخر الدين أبو منصور بن ثعلب).

ب – تفصيل من زخارف الباب فى مشهد الثعالبة.

لوحة رقم (١٢) مشهد الخلفاء العباسيين – منظر خارجى.

لوحة رقم (١٣) مقرنصات قبة مشهد الخلفاء العباسيين.

لوحة رقم (١٤)

أ – طاقة زخرفية داخل مشهد الخلفاء العباسيين.

ب – محراب مشهد الخلفاء العباسيين.

لوحة رقم (١٥)

أ – مئذنة المشهد الحسينى.

ب – محراب ضريح شجرة الدر.

لوحة رقم (١٦) مقرنصات قبة شجرة الدر.

لوحة رقم (١٧)

أ – ضريح الصالح نجم الدين أيوب – المحراب.

ب – ضريح الصالح نجم الدين أيوب – عمود إلى جانب المحراب.

لوحة رقم (١٨) ضريح الصالح نجم الدين أيوب – منظر خارجى للقبة والمدخل.

لوحة رقم (١٩) مقرنصات قبة الصالح نجم الدين أيوب.

لوحة رقم (٢٠) مئذنة زاوية الهنود.

لوحة رقم (٢١) إطار نافذة من المدرسة الكاملية.

لوحة رقم (٢٢) قبوة متبقية من المدرسة الكاملية.

لوحة رقم (٢٣) آثار بيت الصلاة فى المدارس الصالحية.

لوحة رقم (٢٤) قبوة المدرسة المالكية فى المدارس الصالحية.

لوحة رقم (٢٥) مدخل المدارس الصالحية وعليه لوحة إنشائها فى سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م.

لوحة رقم (٢٦) بوابة المدارس الصالحية.

لوحة رقم (٢٧) بوابة المدارس الصالحية وجانب من واجهتها.

لوحة رقم (٢٨) واجهة المدارس الصالحية – القسم الشرقى.

لوحة رقم (٢٩) جانب من واجهة المدارس الصالحية وبوابتها.

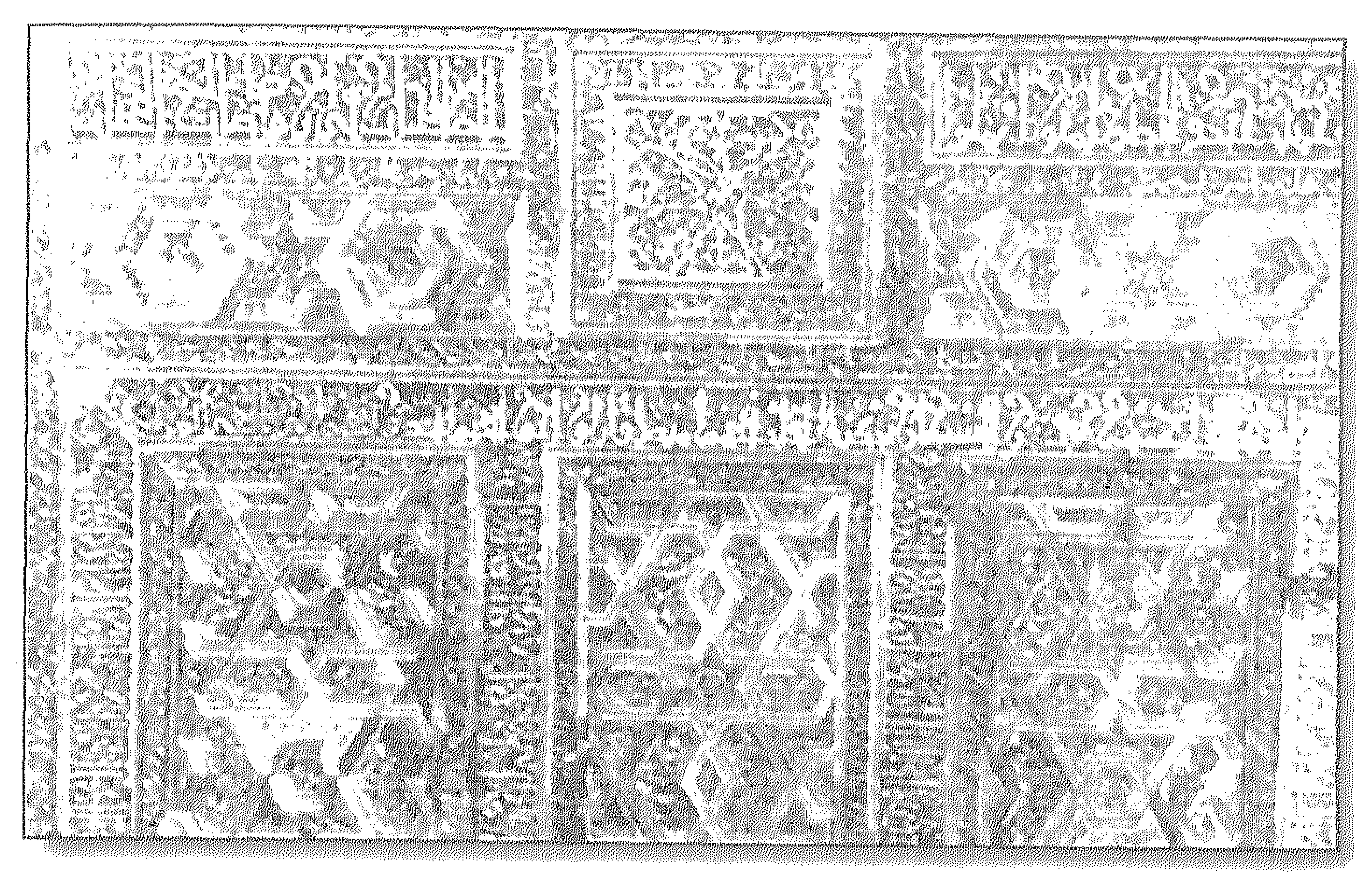
لوحة رقم (٣٠) مئذنة المدارس الصالحية.

لوحة رقم (٣١) زخارف رؤوس النوافذ وعتباتها فى المدارس الصالحية.

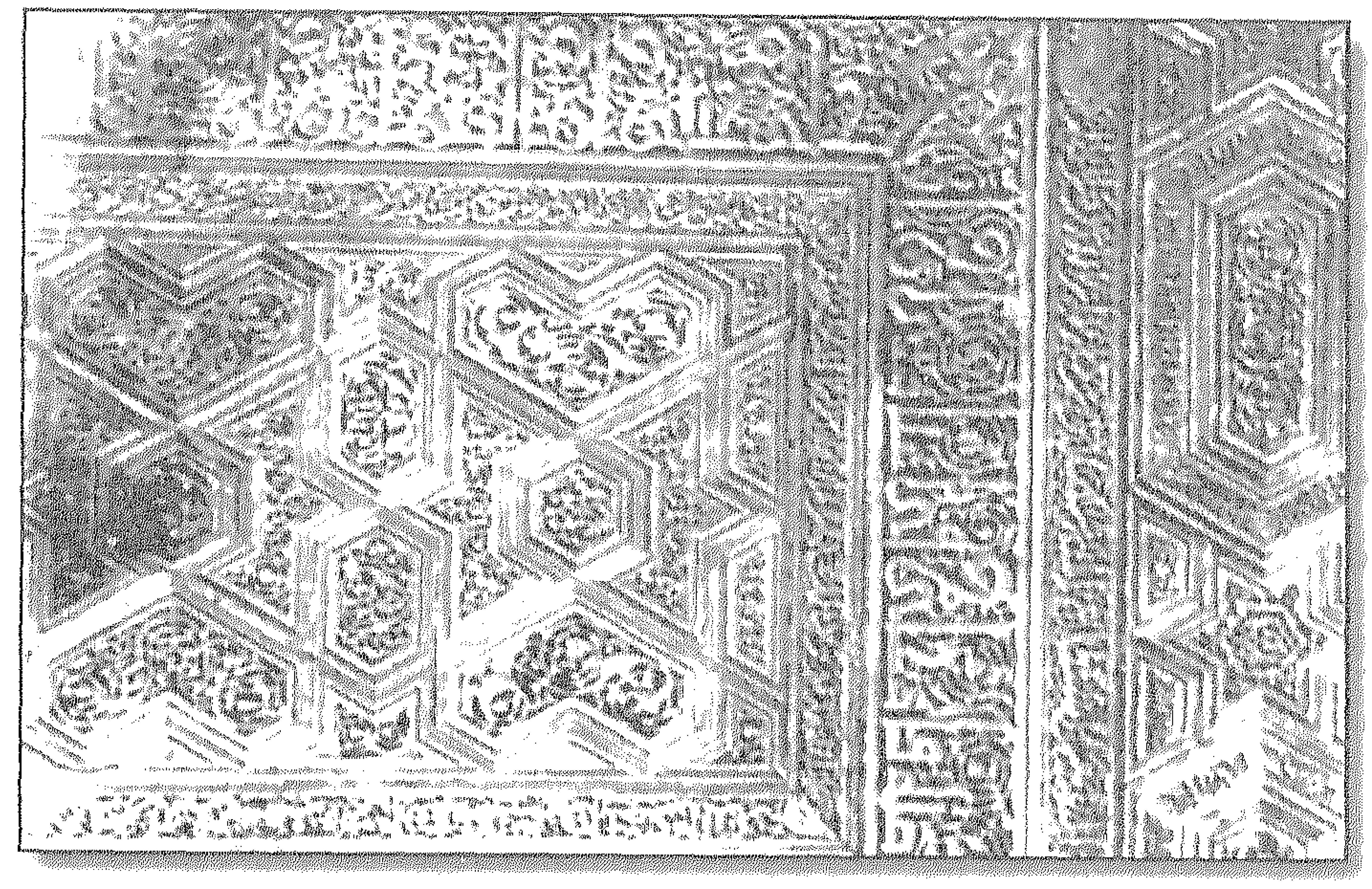
لوحة رقم (٣٢) زخارف العقود المنبطحة وعتبات النوافذ فى المدارس الصالحية


اللوحات

لوحة رقم (١)

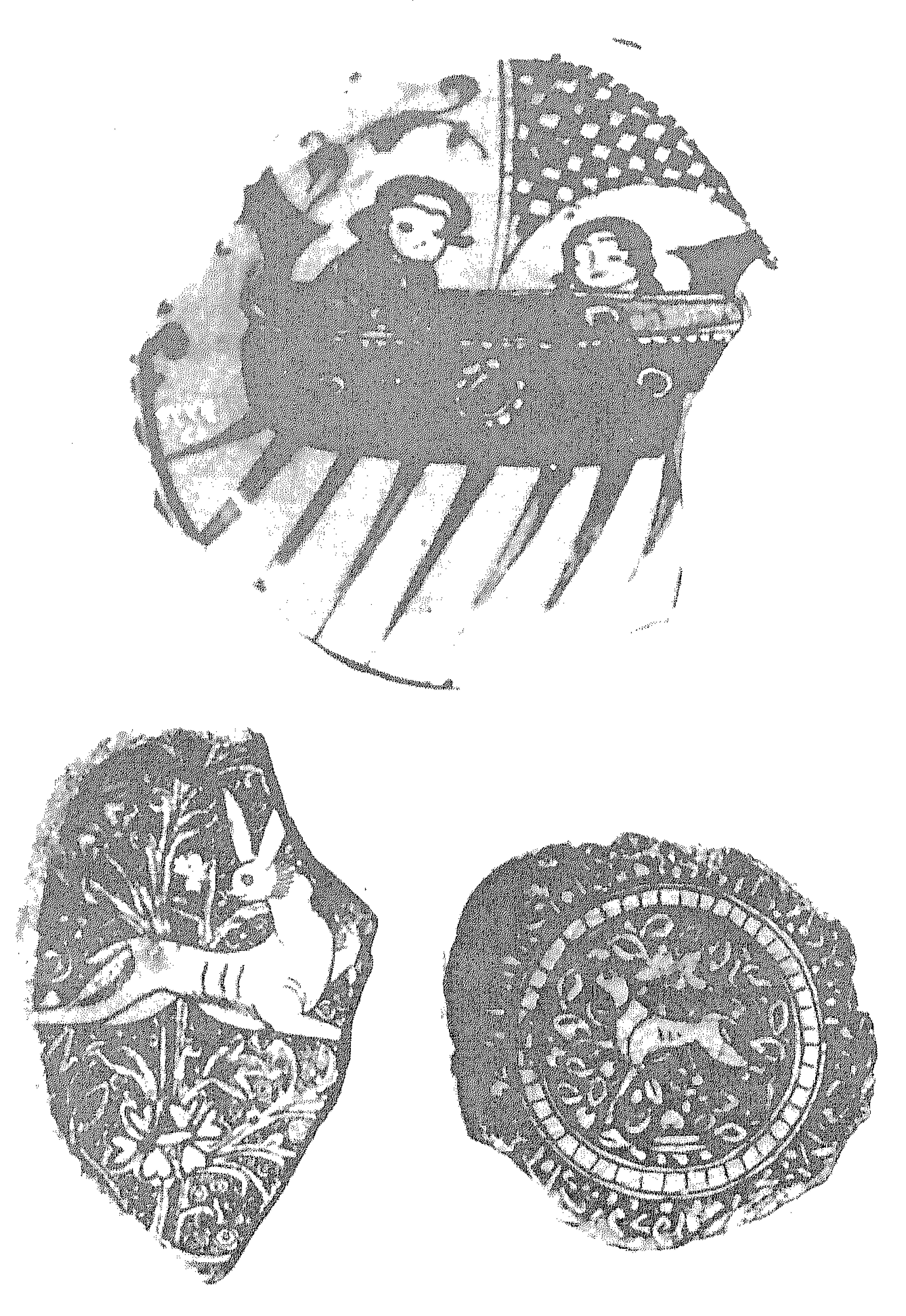


منحوتات خشبية من سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م

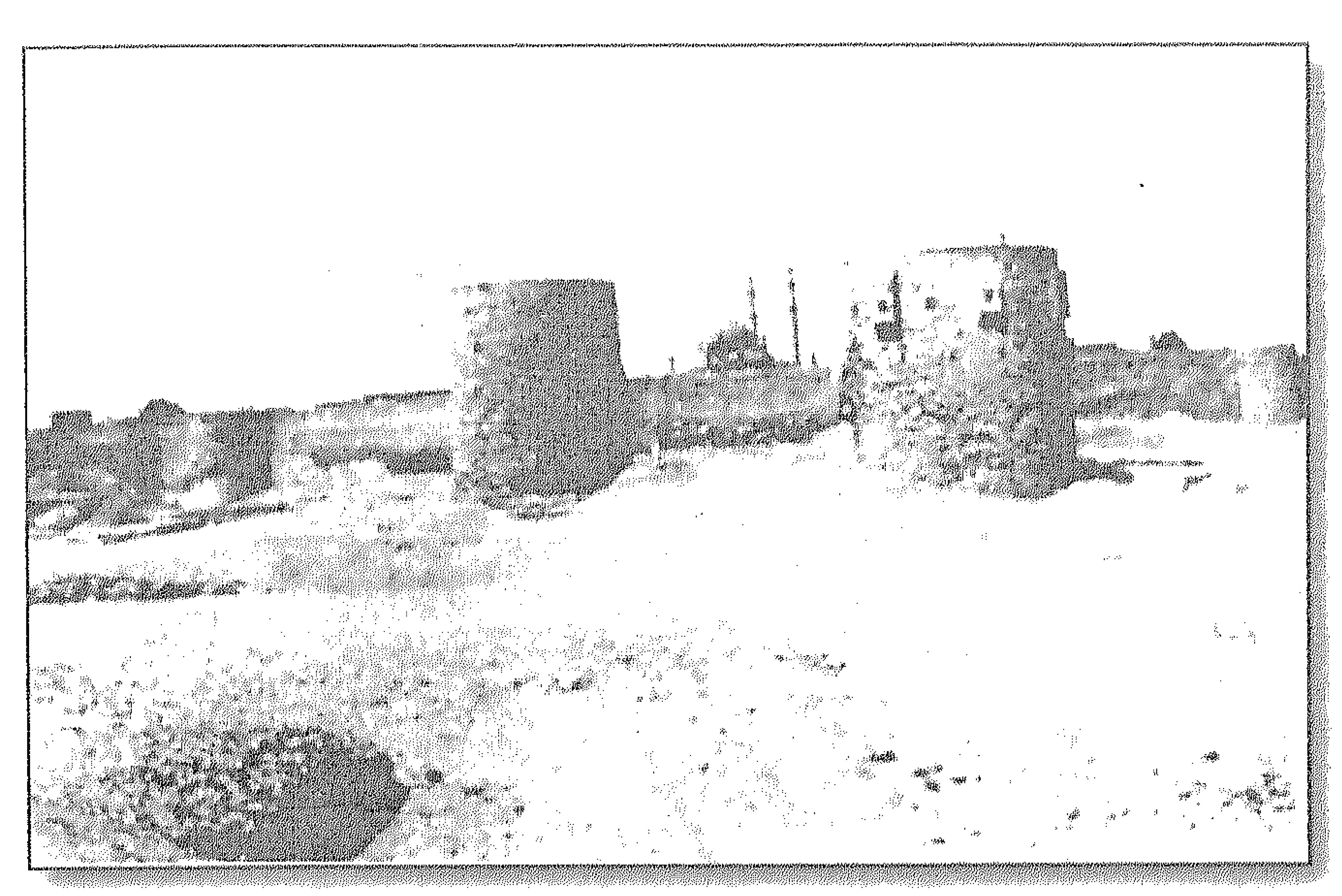


زخارف من تابوت المشهد الحسيني

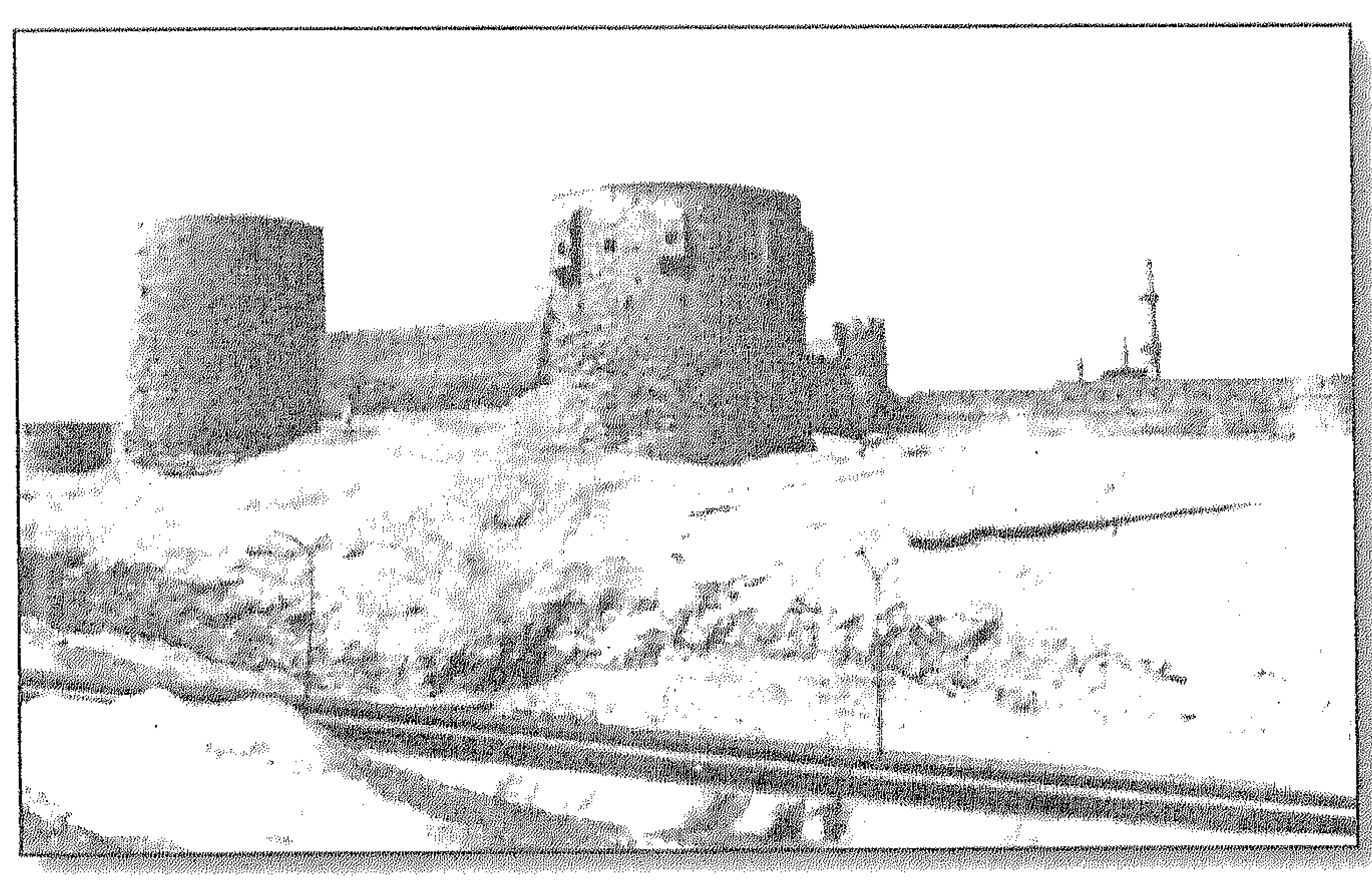
لوحة رقم (٢)



قطع من أوان خزفية من العصر الأيوبى بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

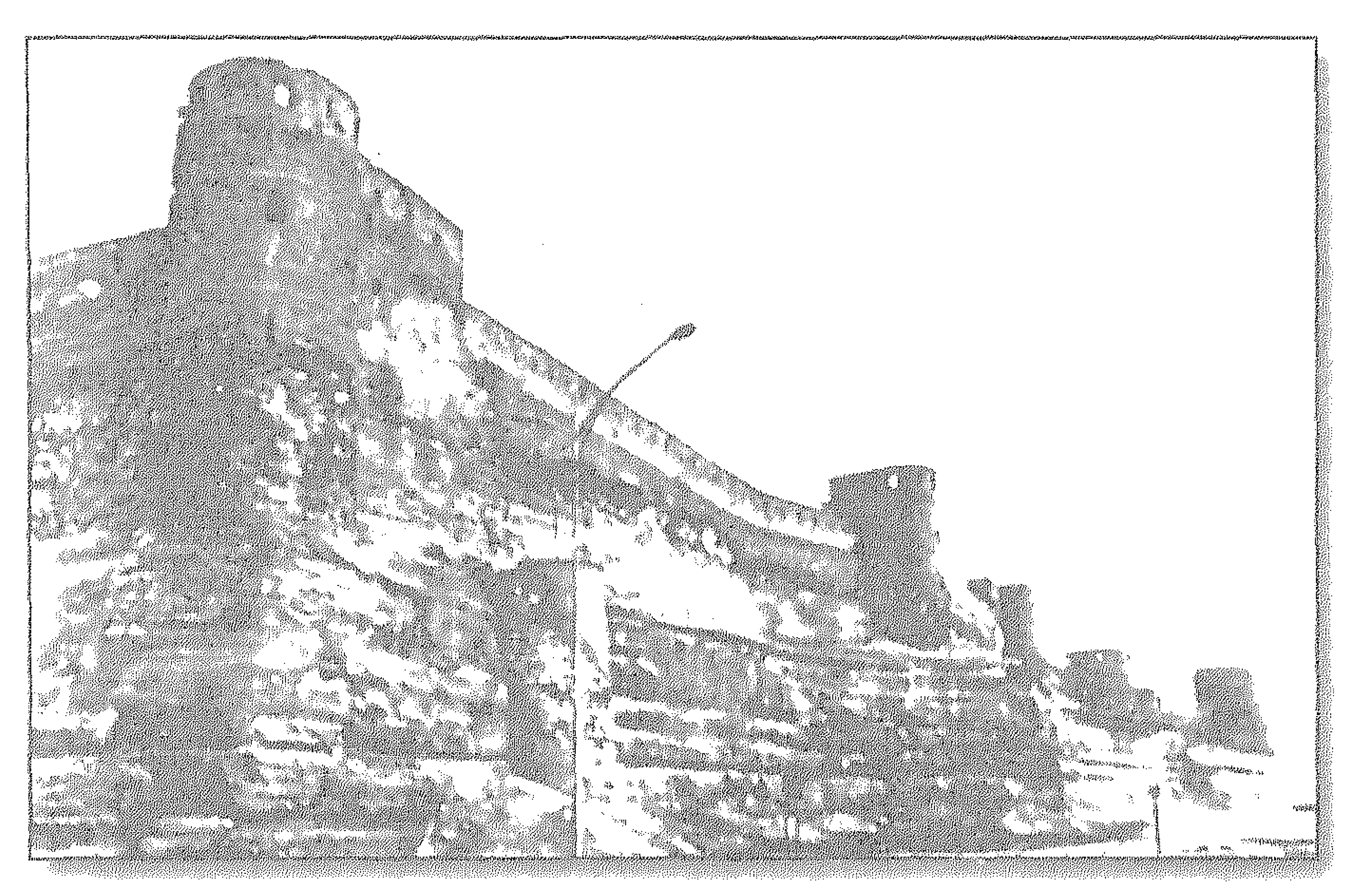


لوحة رقم (٣) منظر عام لقلعة الجبل

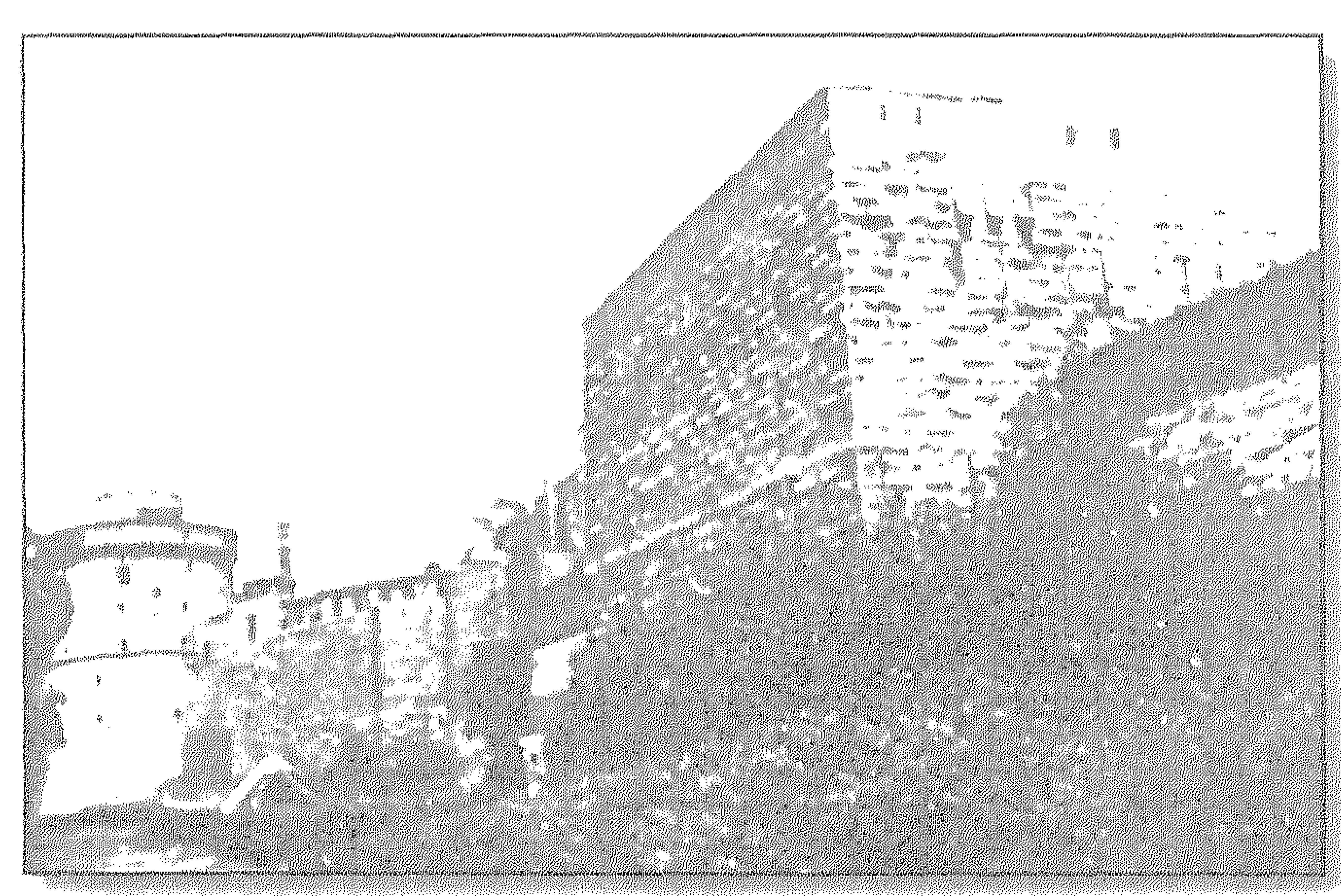


لوحة رقم (٤) برجا الرملة والحداد في قلعة الجبل من العصر الأيوبى

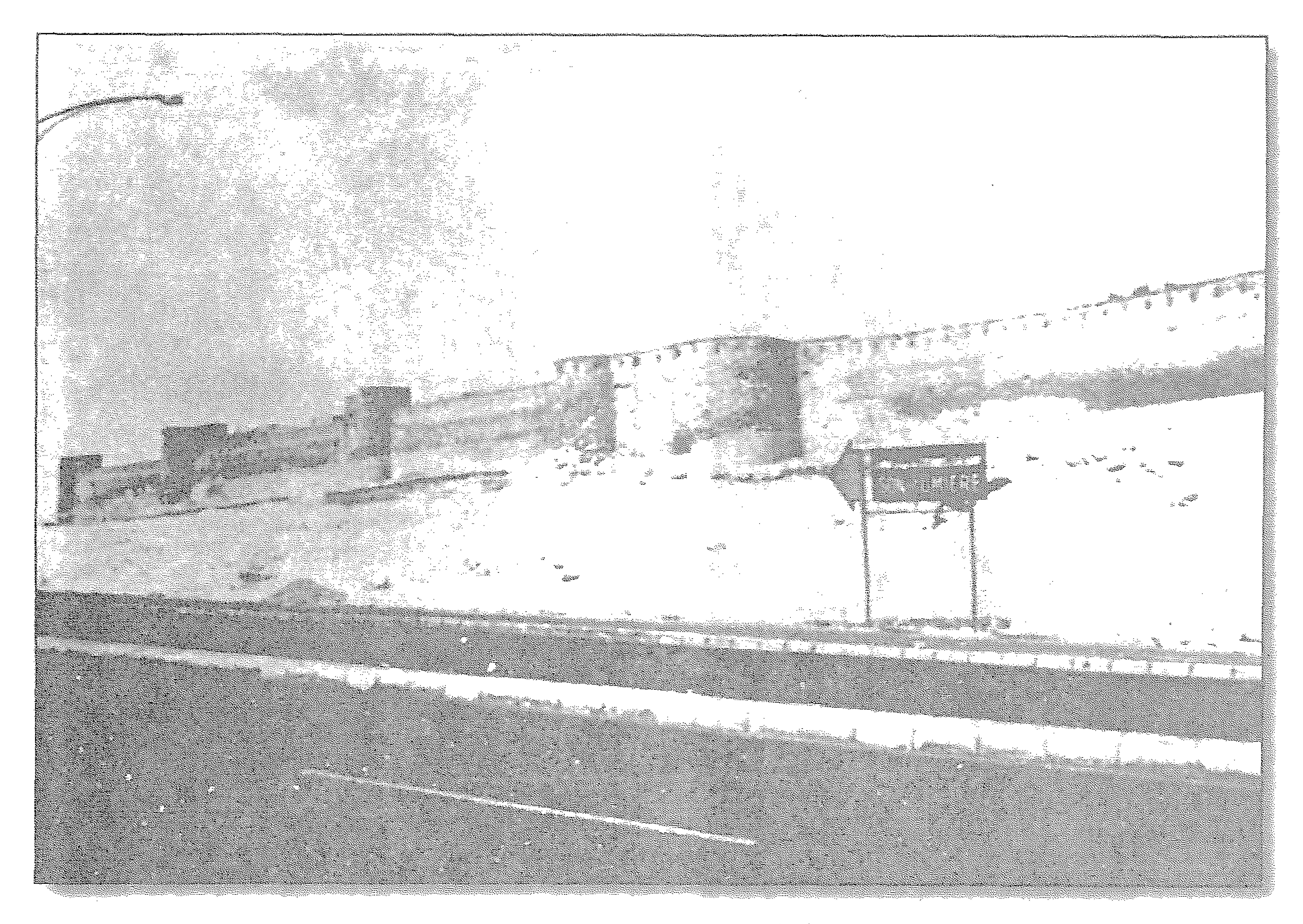
لوحة رقم (٥)



أ - أبراج السور الشرقى من قلعة صلاح الدين

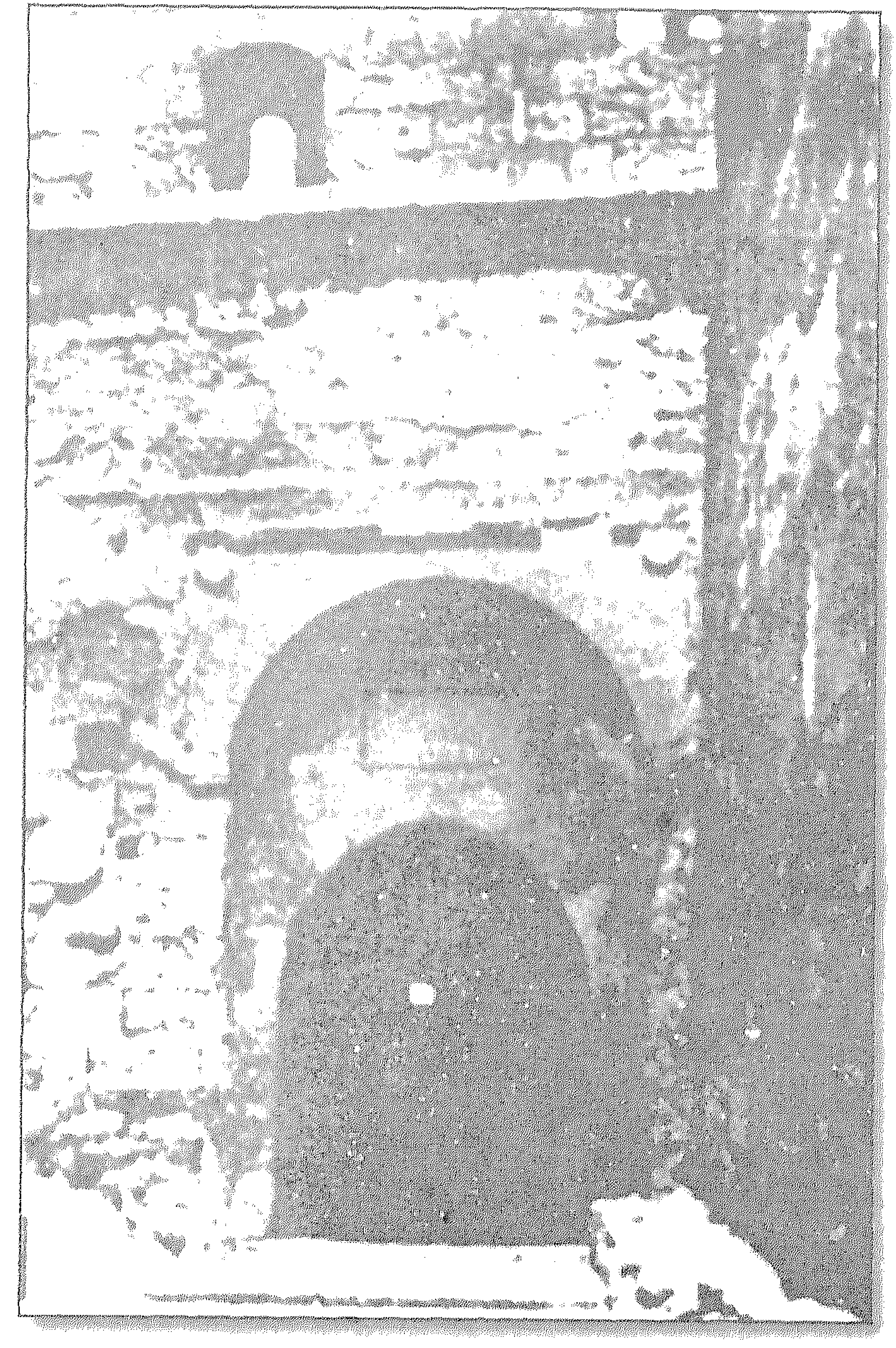


ب - برجا المقطم وكركيالان فى القلعة



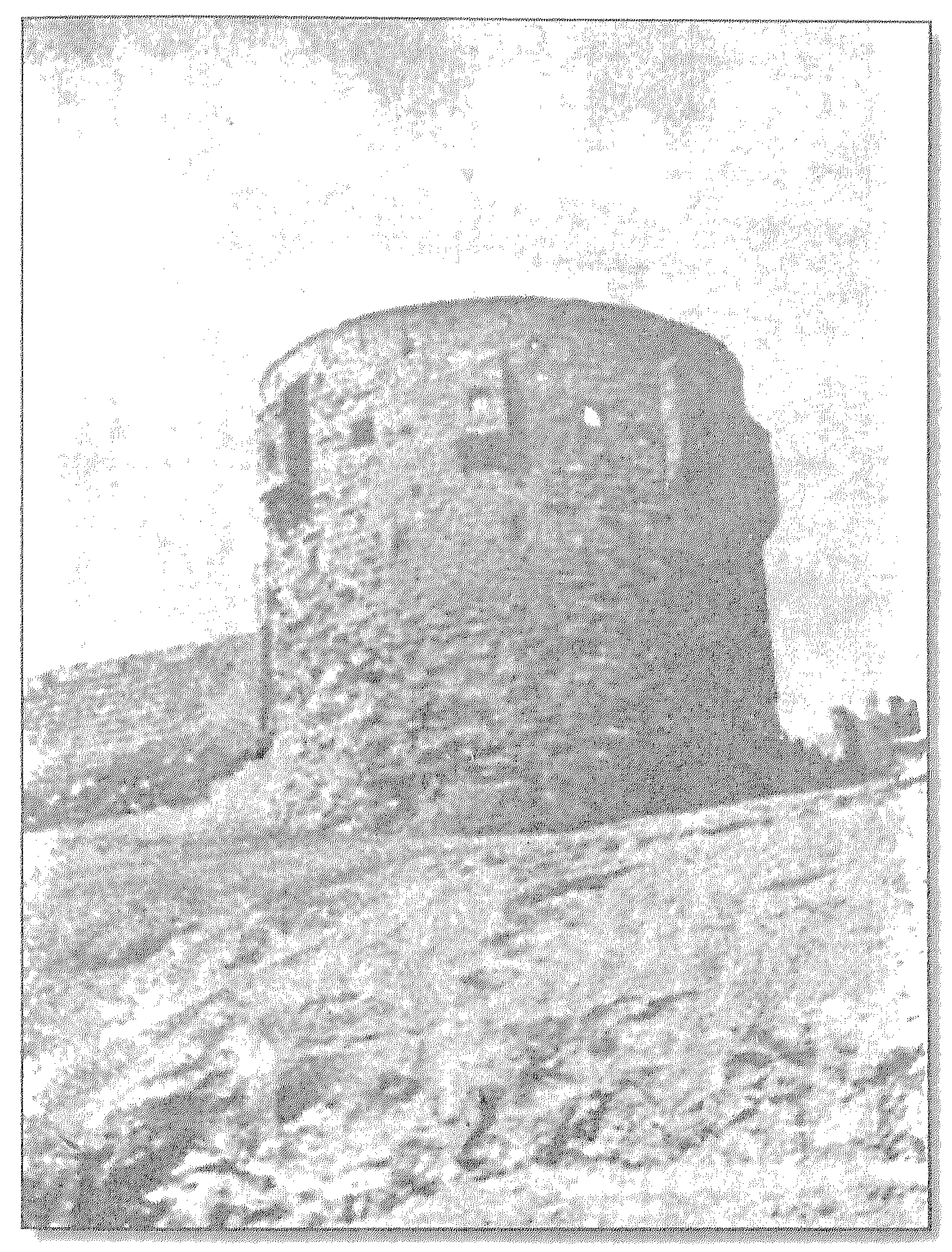
لوحة رقم (٦) برج الإمام يتوسط السور الجنوبى الغربى من قلعة الجبل

لوحة رقم (٧)



باب المدرج فى قلعة صلاح الدين

لوحة رقم (٨)

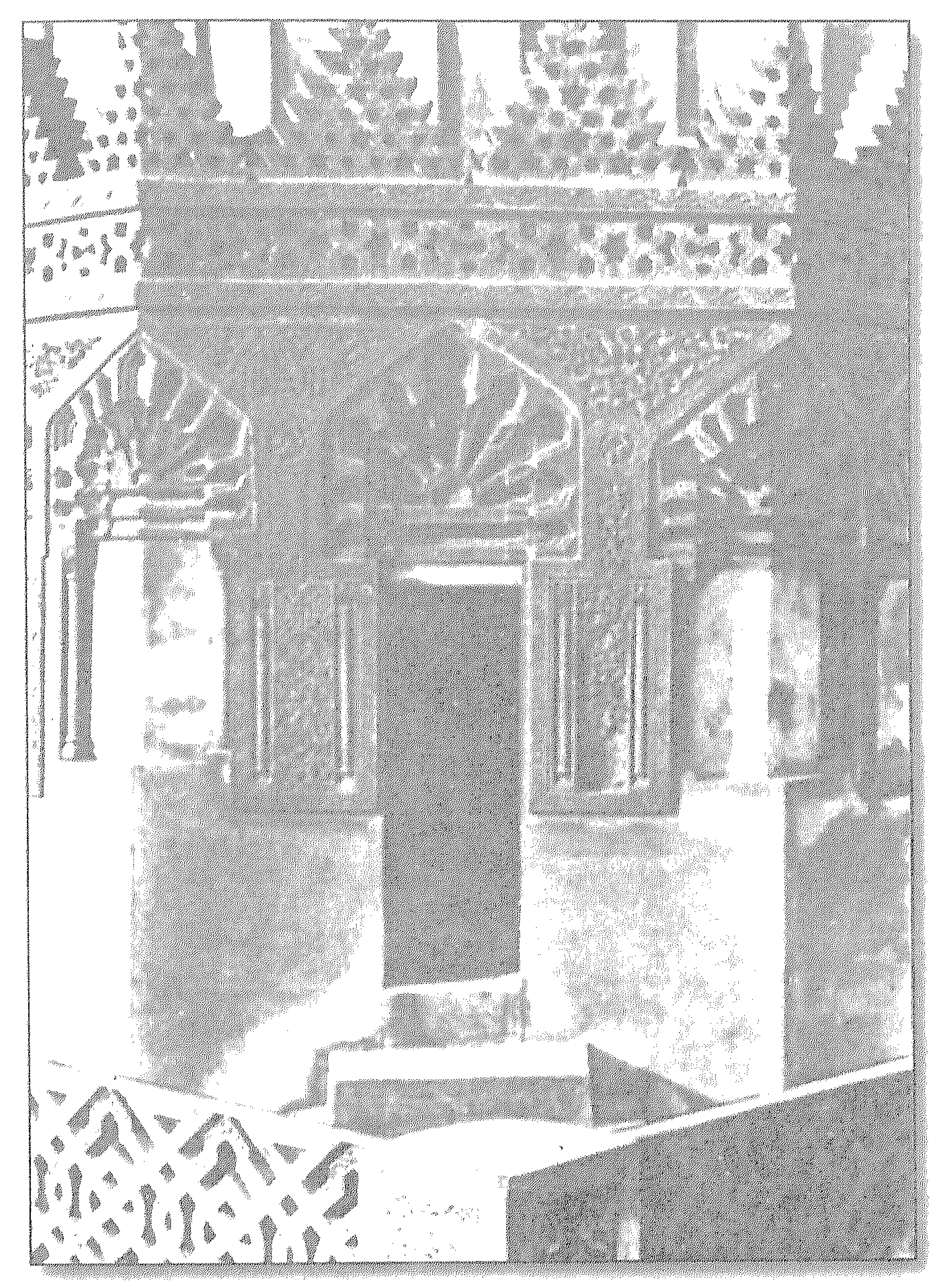


برج الحداد فى قلعة الجبل

لوحة رقم (٩)

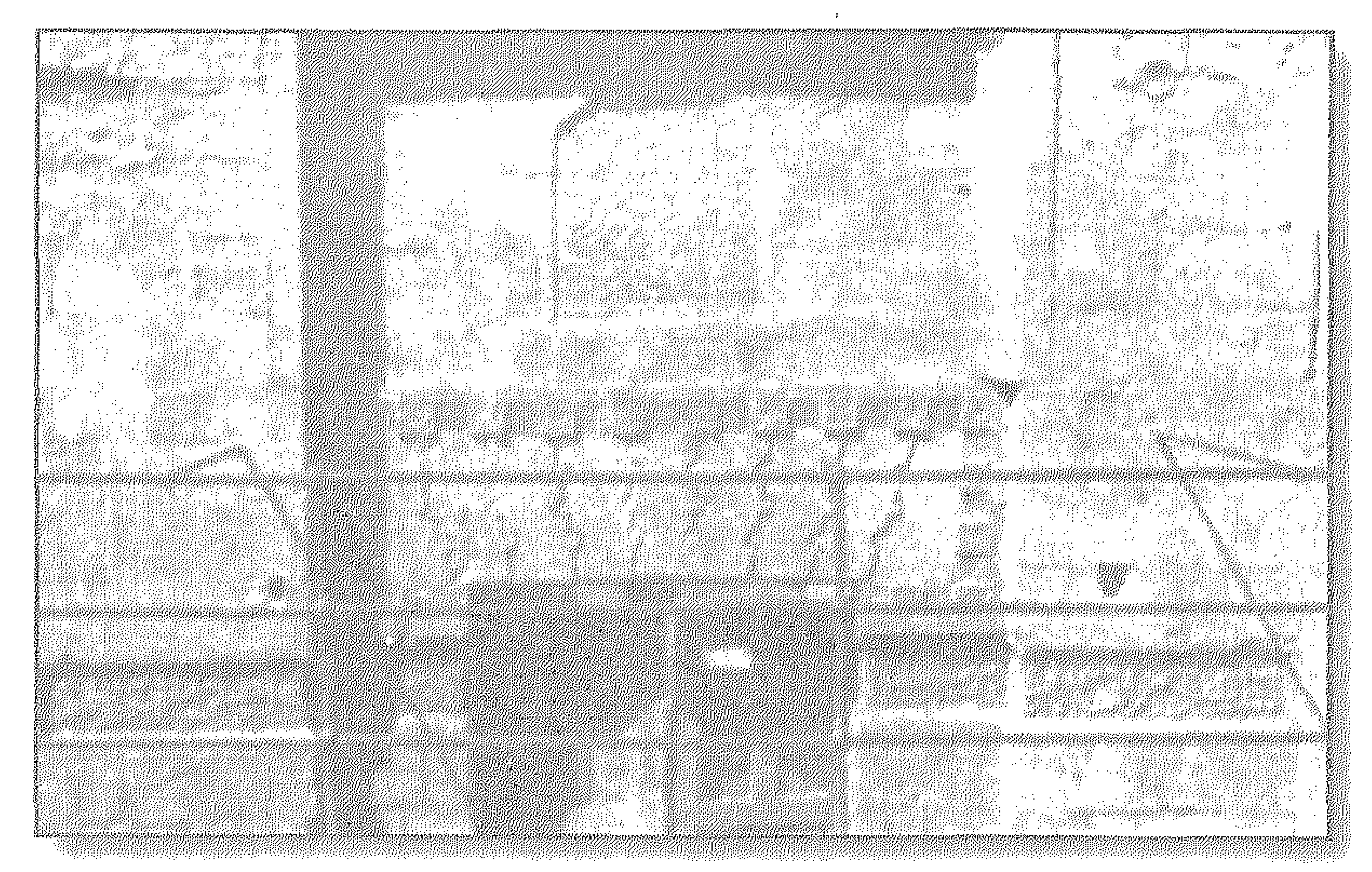
أ – قبة مشهد الإمام الشافعى – منظر خارجى

ب – مقرنصات قبة الإمام الشافعى

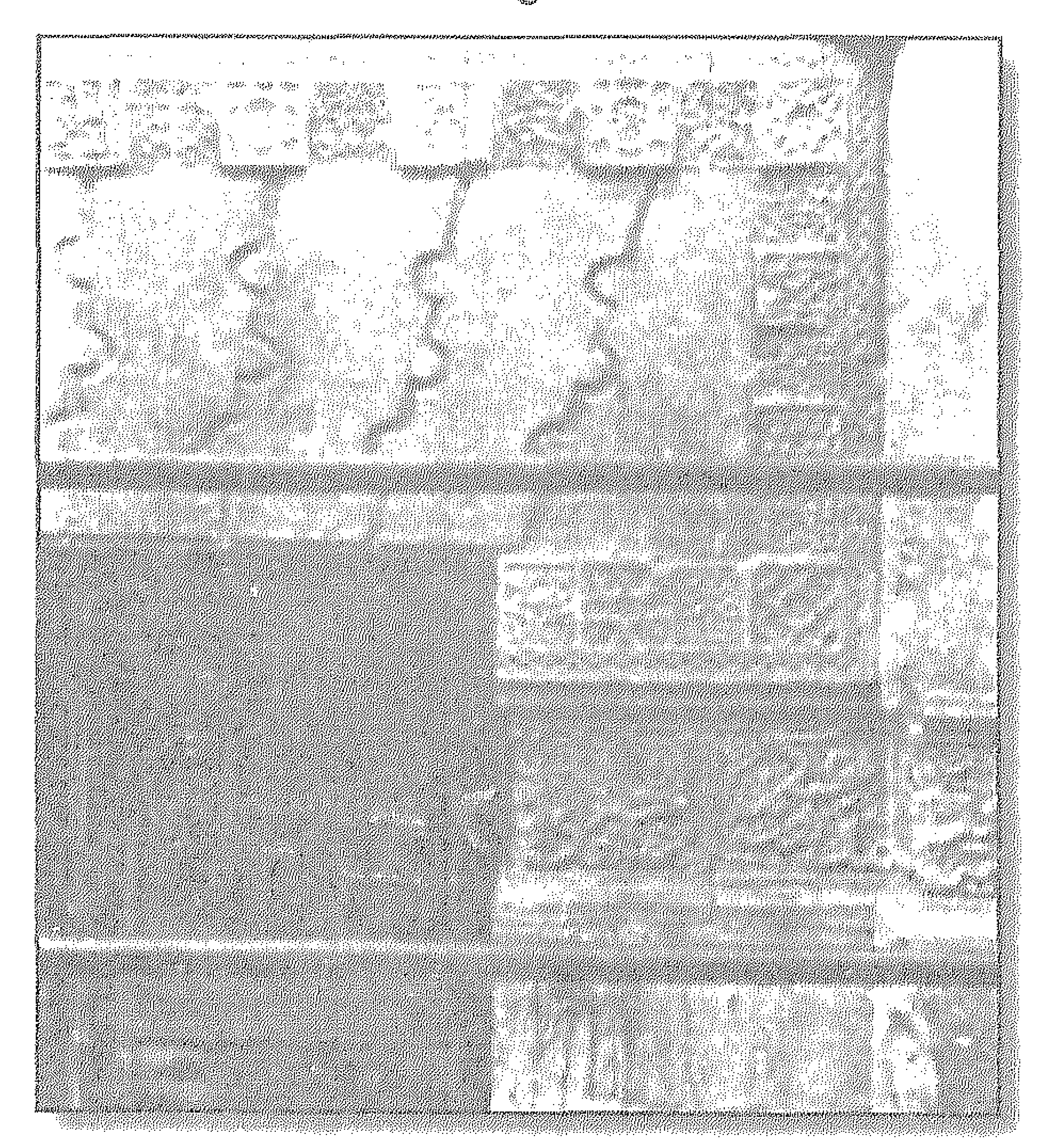


لوحة رقم (١٠) قسم من الطابق الأوسط لمشهد الإمام الشافعي

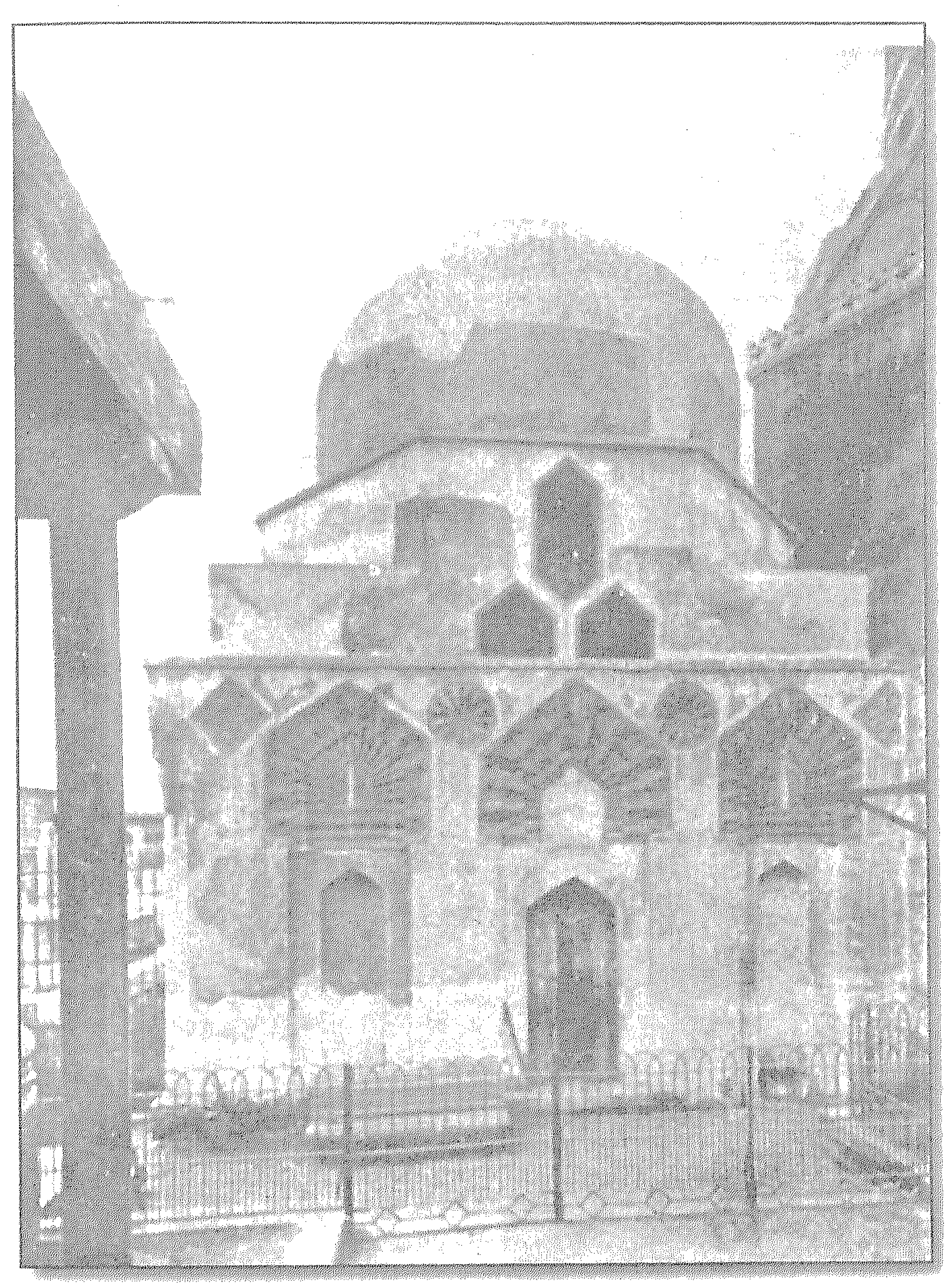
لوحة رقم (١١)



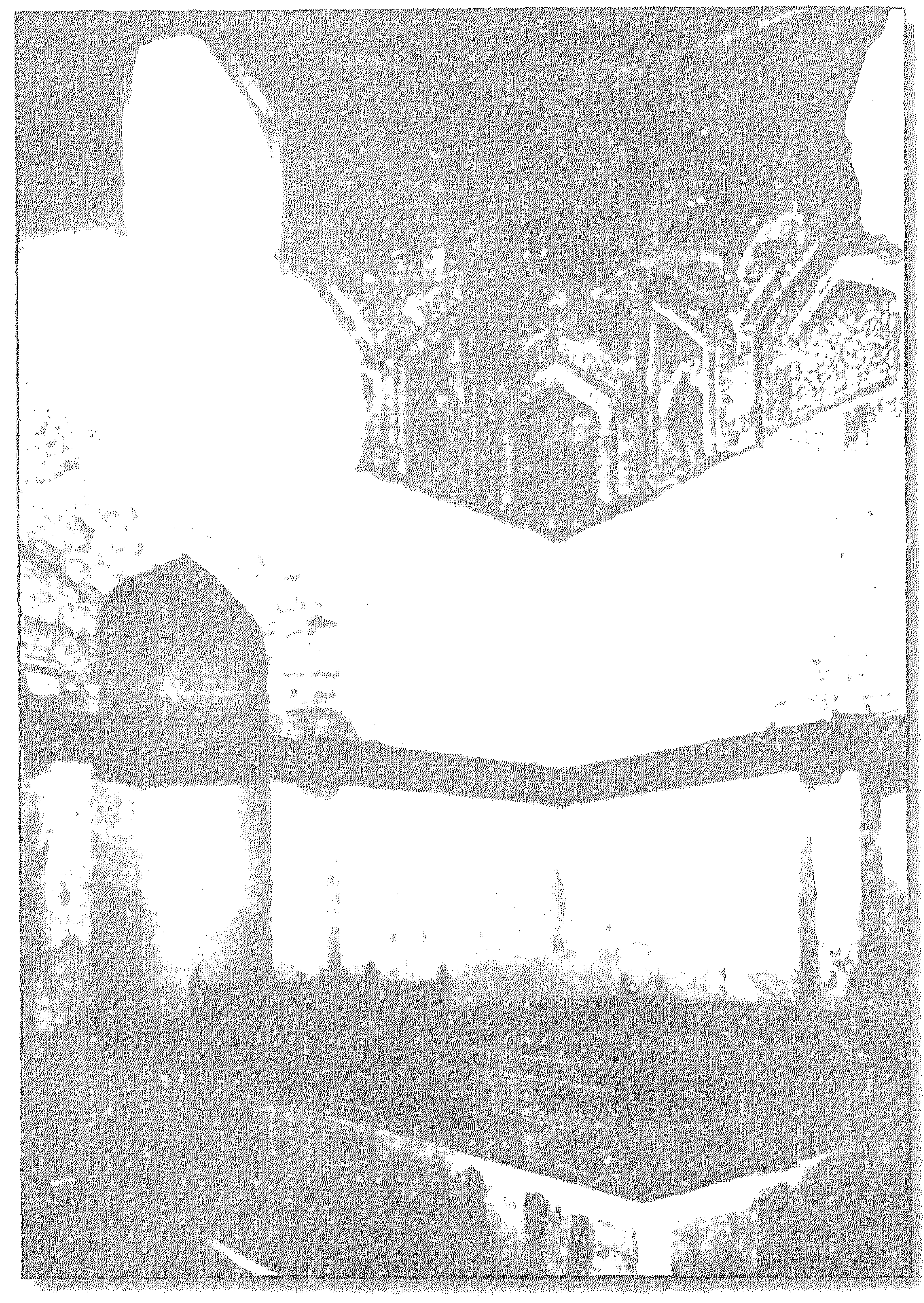
أ – مدخل مشهد الثعالبة (ضريح فخر الدين أبو منصور بن ثعلب)



ب – تفصيل من زخارف الباب فى مشهد الثعالبة

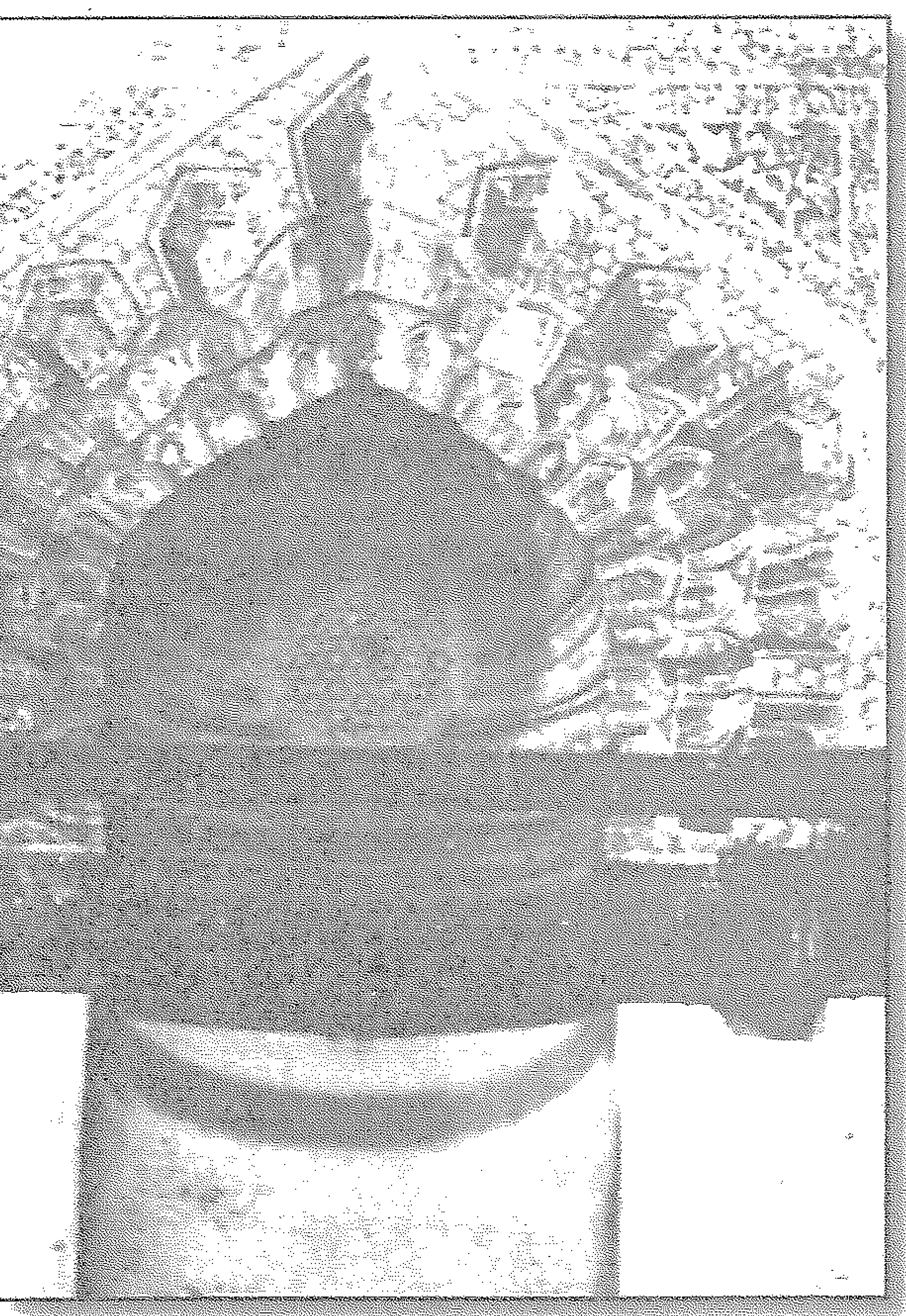


لوحة رقم (١٢)   مشهد الخلفاء العباسيين - منظر خارجى



لوحة رقم (١٣) مقرنصات قبة مشهد الخلفاء العباسيين

لوحة رقم (١٤)



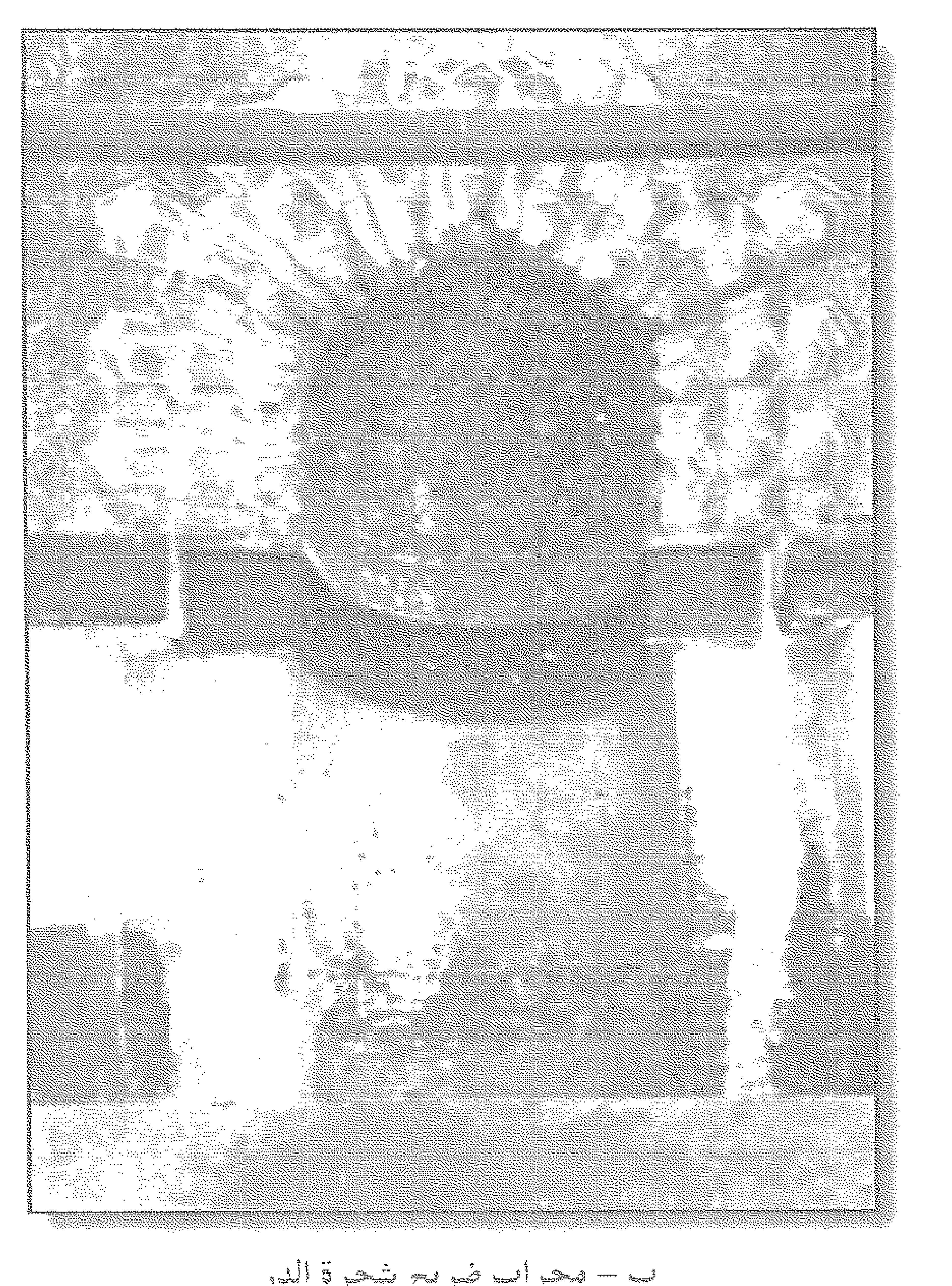
أ – طاقة زخرفية داخل مشهد الخلفاء العباسيين

ب – محراب مشهد الخلفاء العباسيين



لوحة رقم (١٥)

أ – مئذنة المشهد الحسينى



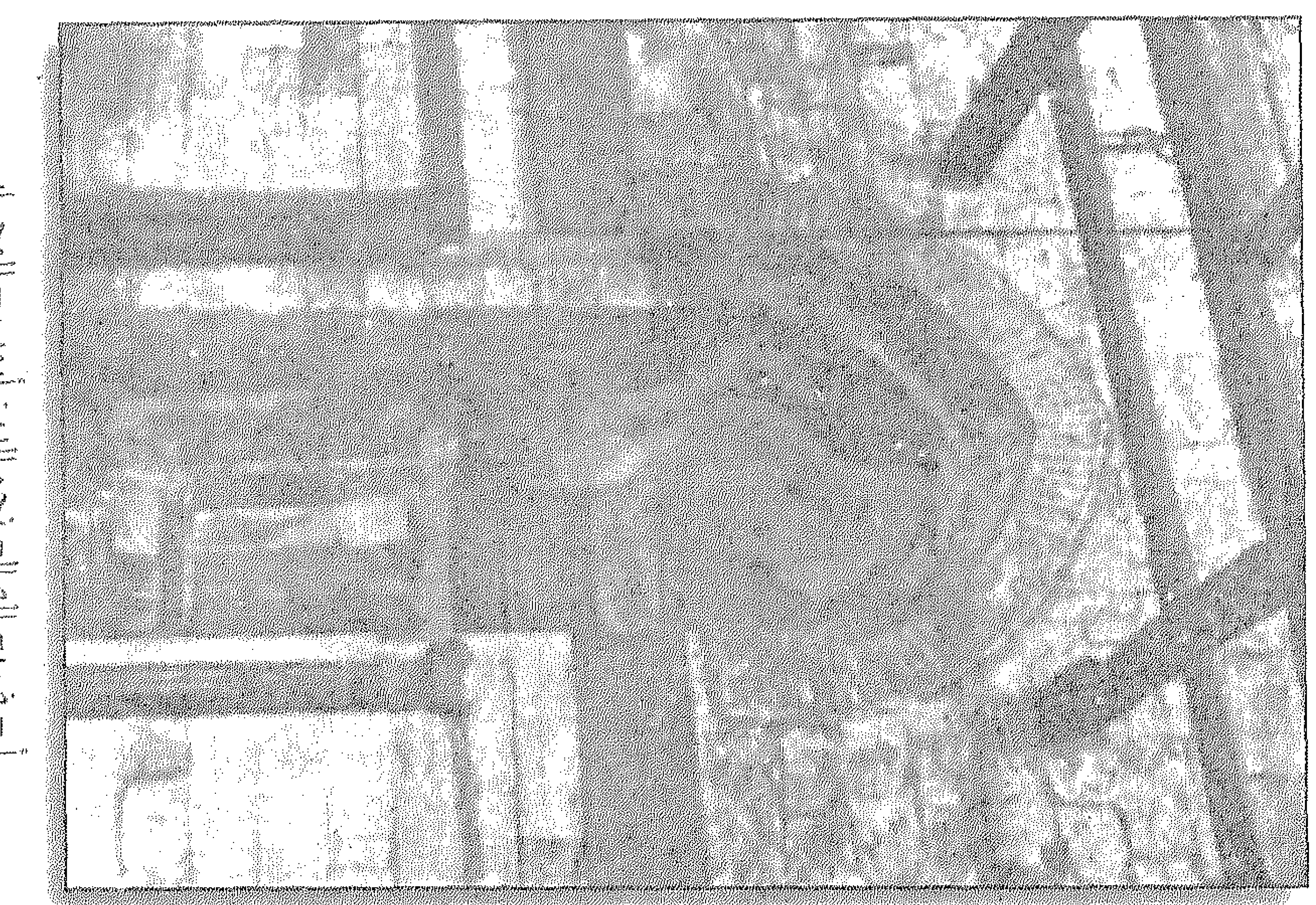
ب – محراب ضريح شجرة الدر

لوحة رقم (١٦)

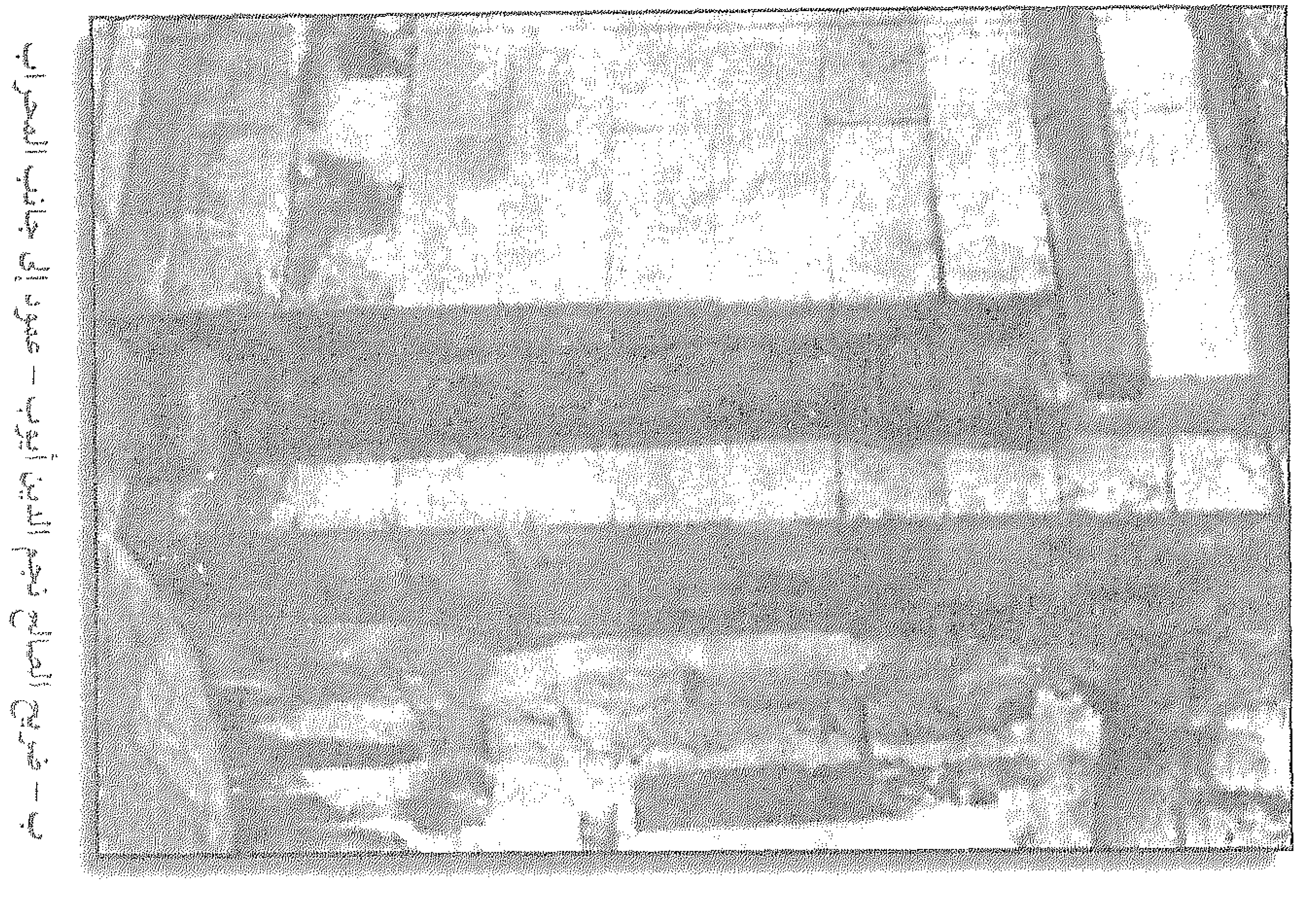


مقرنصات قبة شجرة الدر

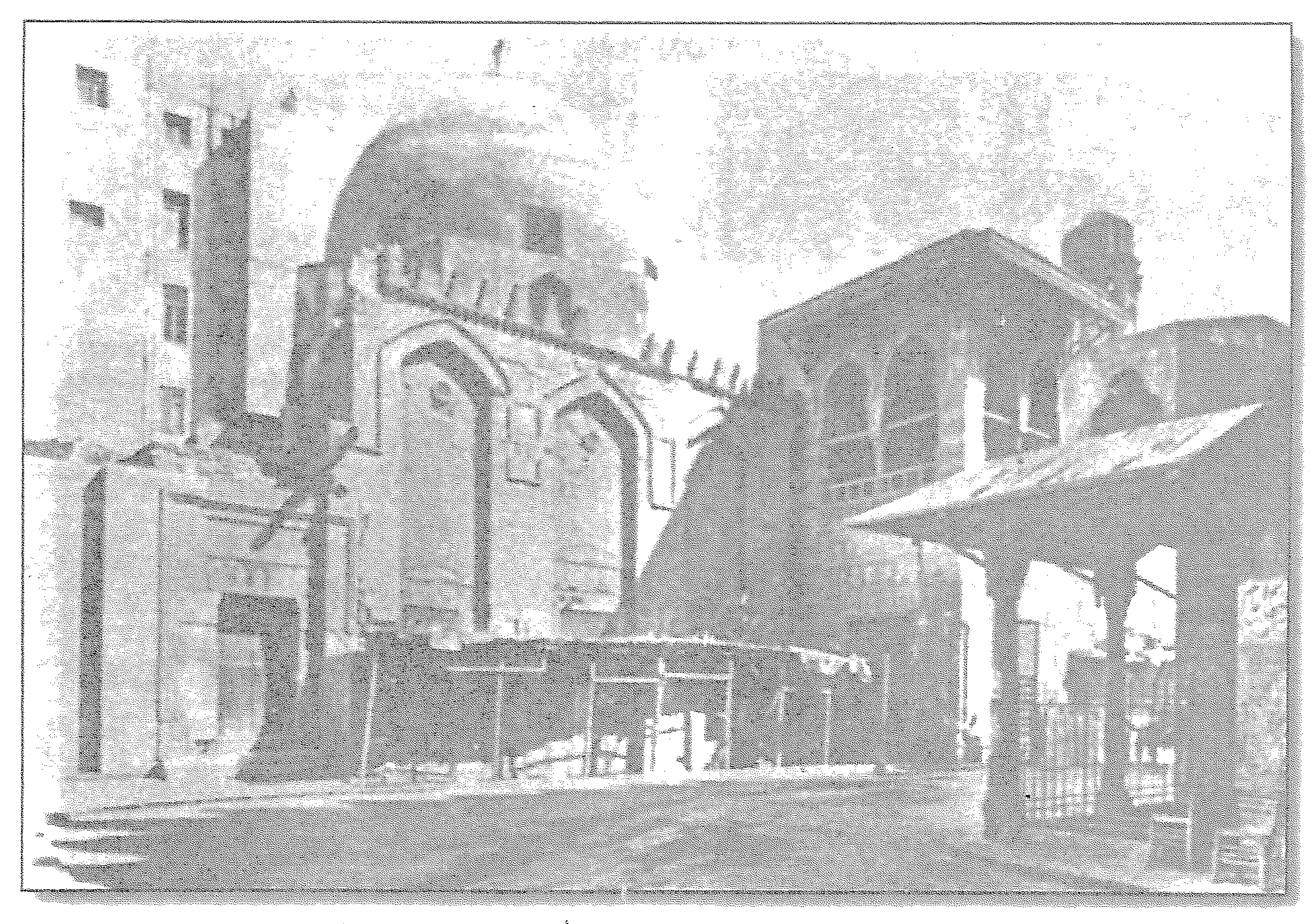
لوحة رقم (١٧)



أ – ضريح الصالح نجم الدين أيوب – المحراب



ب – ضريح الصالح نجم الدين أيوب – عمود إلى جانب المحراب

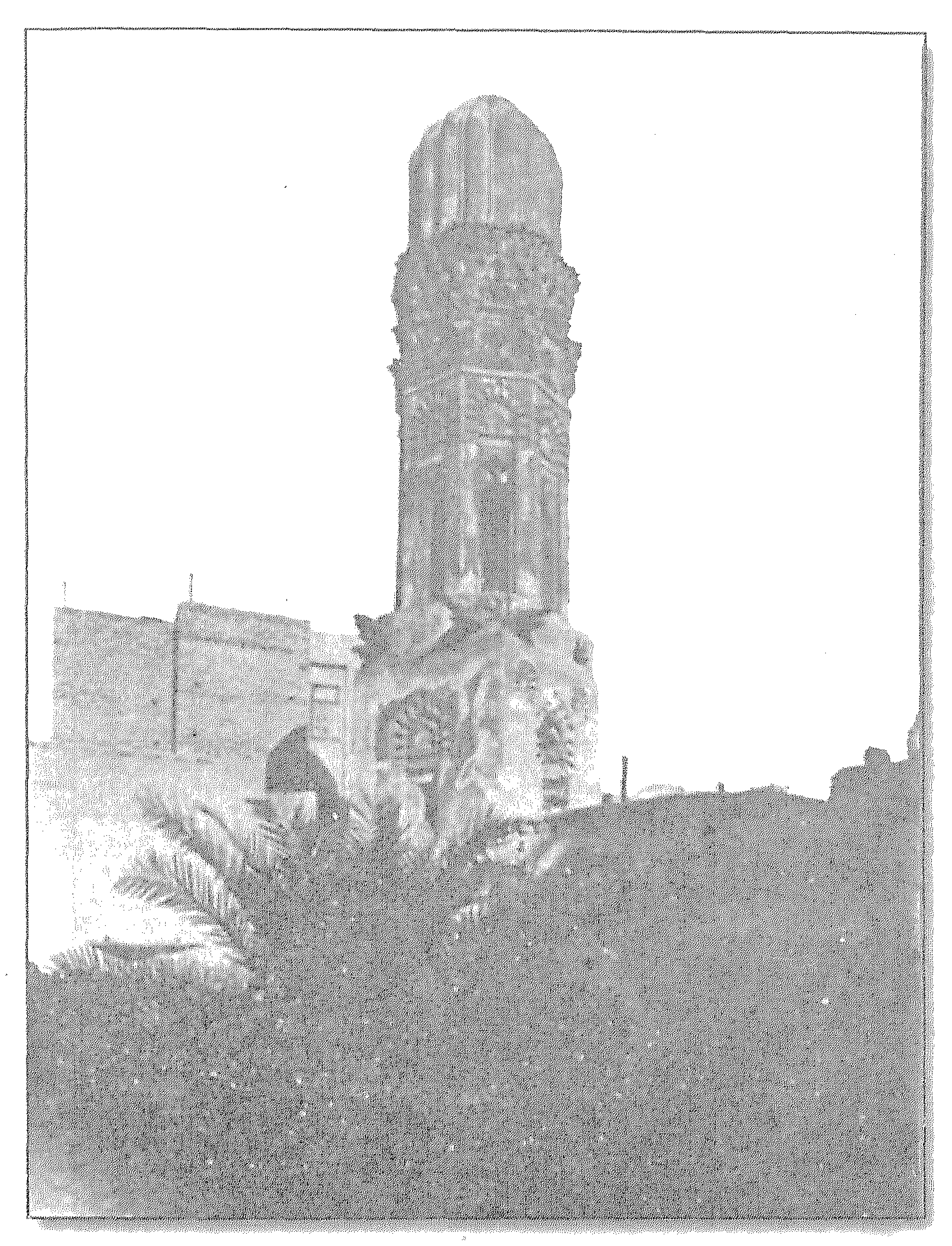


لوحة رقم (١٨) ضريح الصالح نجم الدين أيوب – منظر خارجى للقبة والمدخل

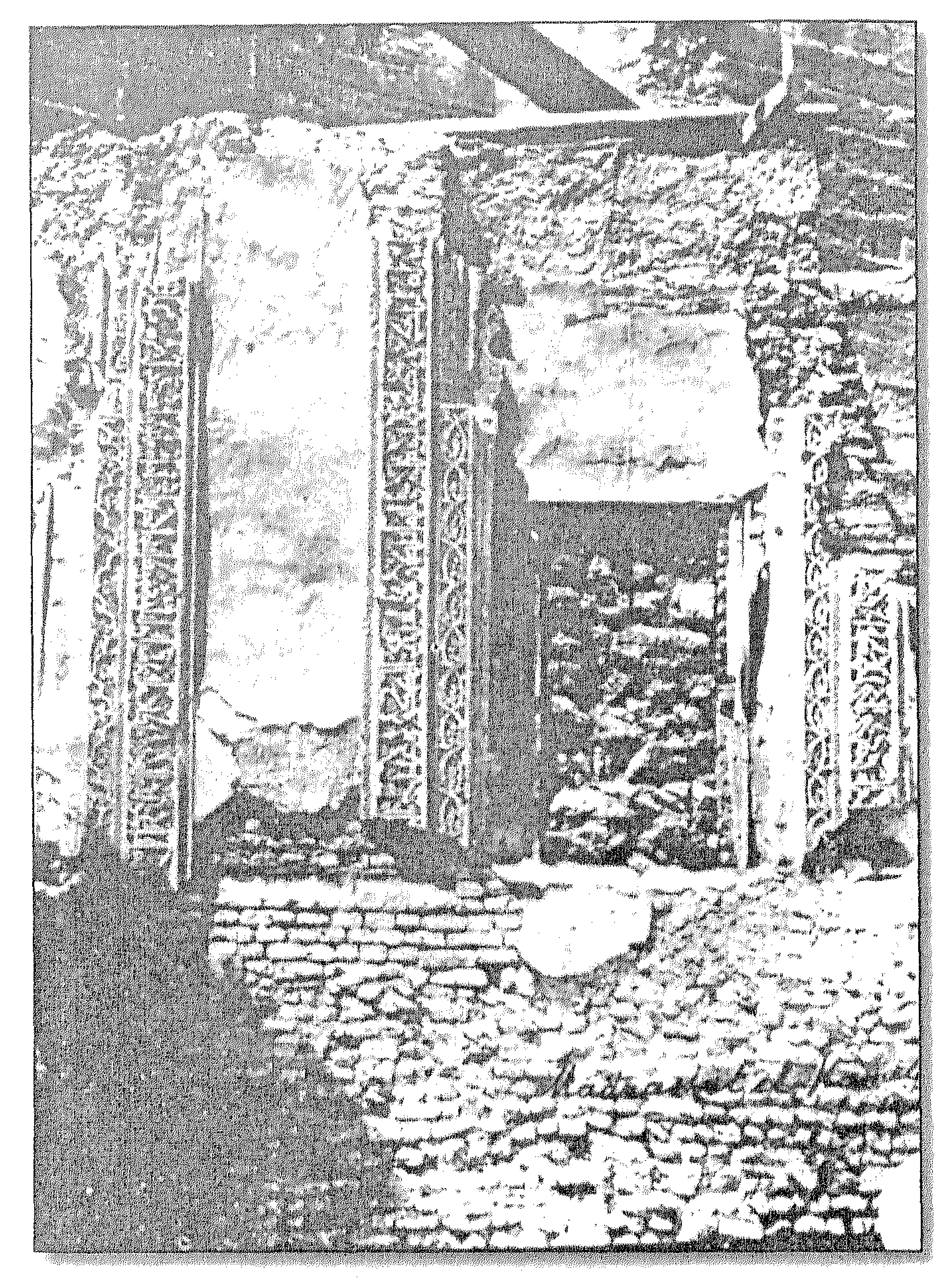
لوحة رقم (١٩)



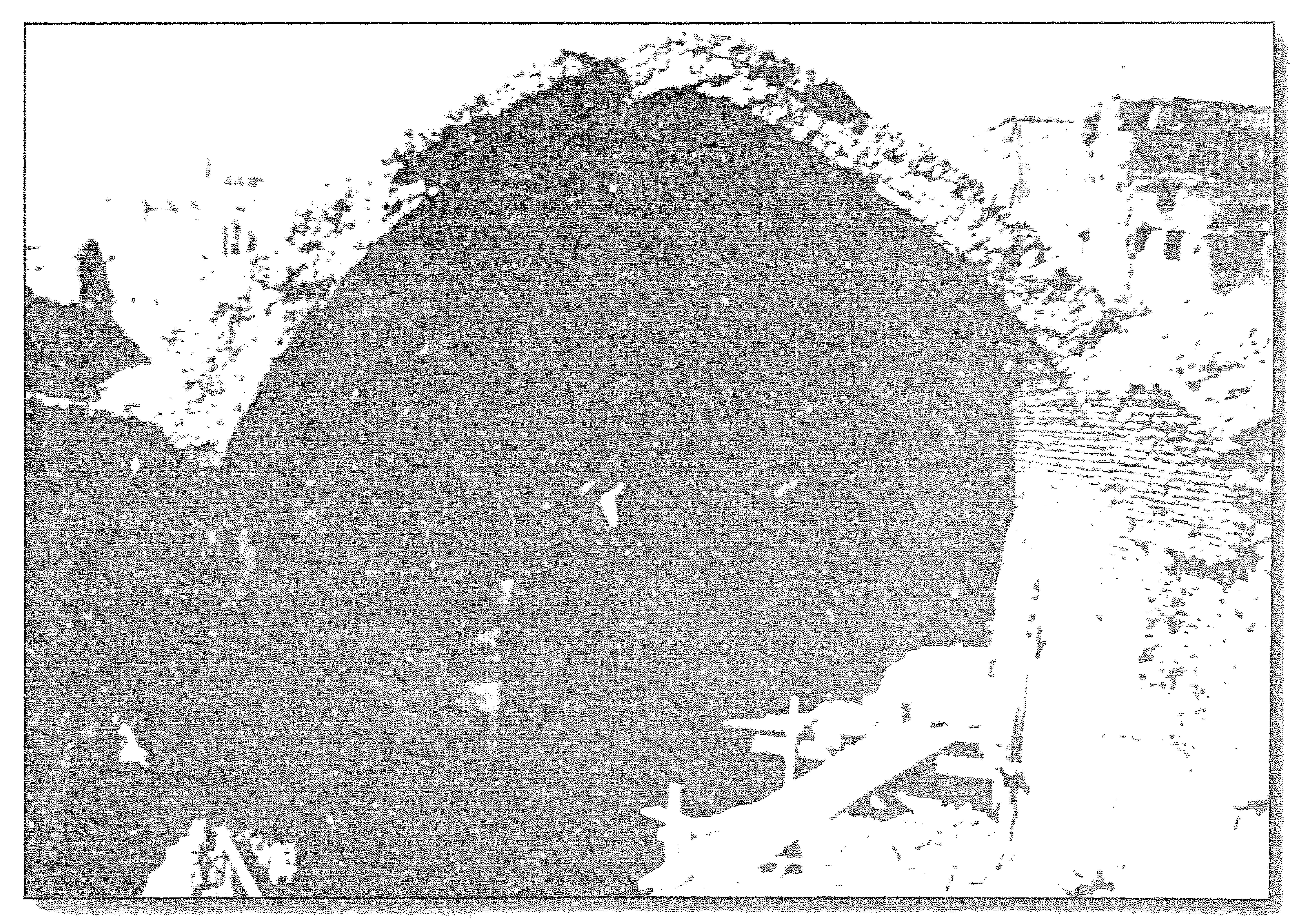
مقرنصات قبة الصالح نجم الدين أيوب



لوحة رقم (٢٠) مئذنة زاوية الهنود



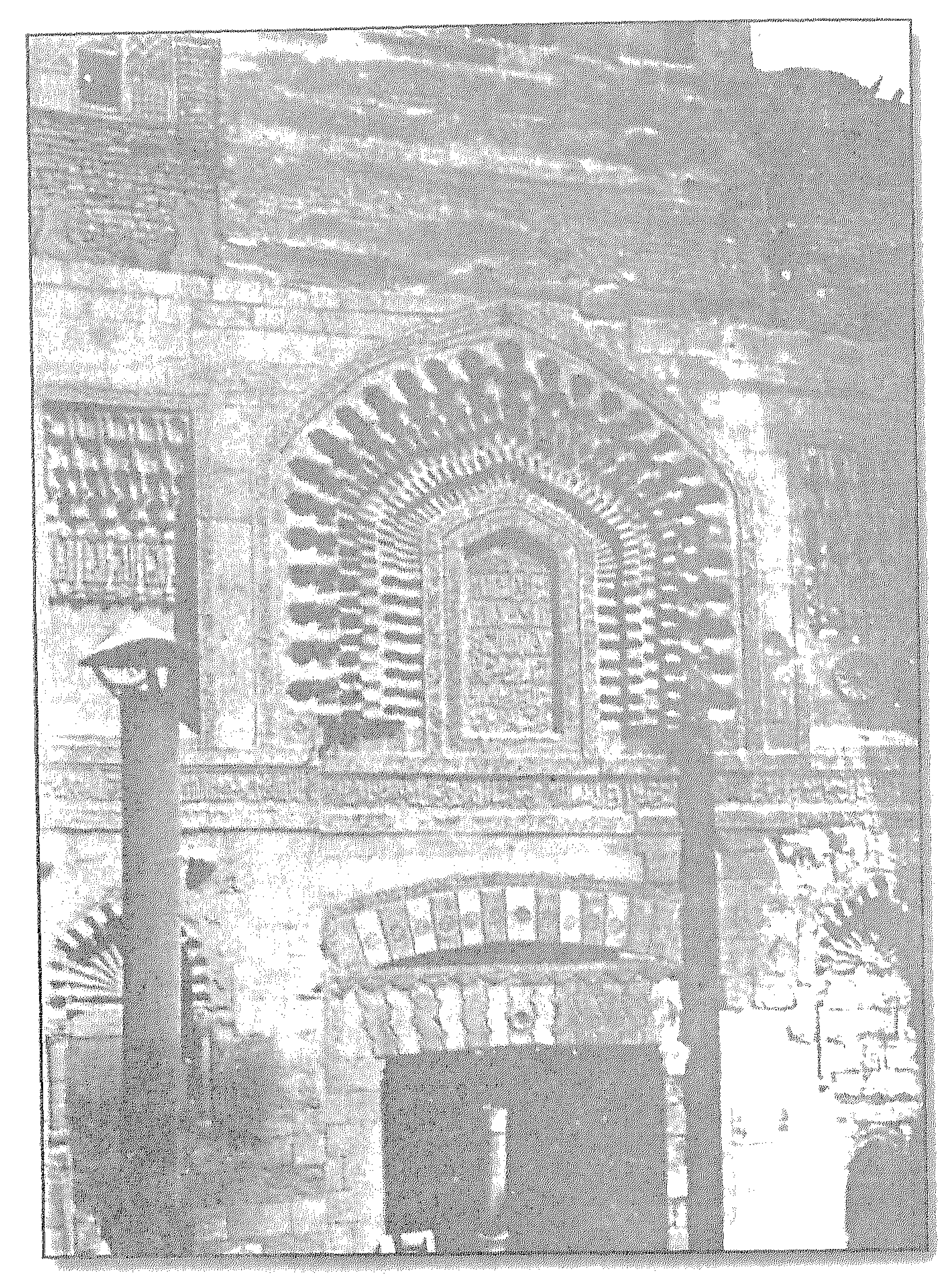
لوحة رقم (٢١) إطار نافذة من المدرسة الكاملية



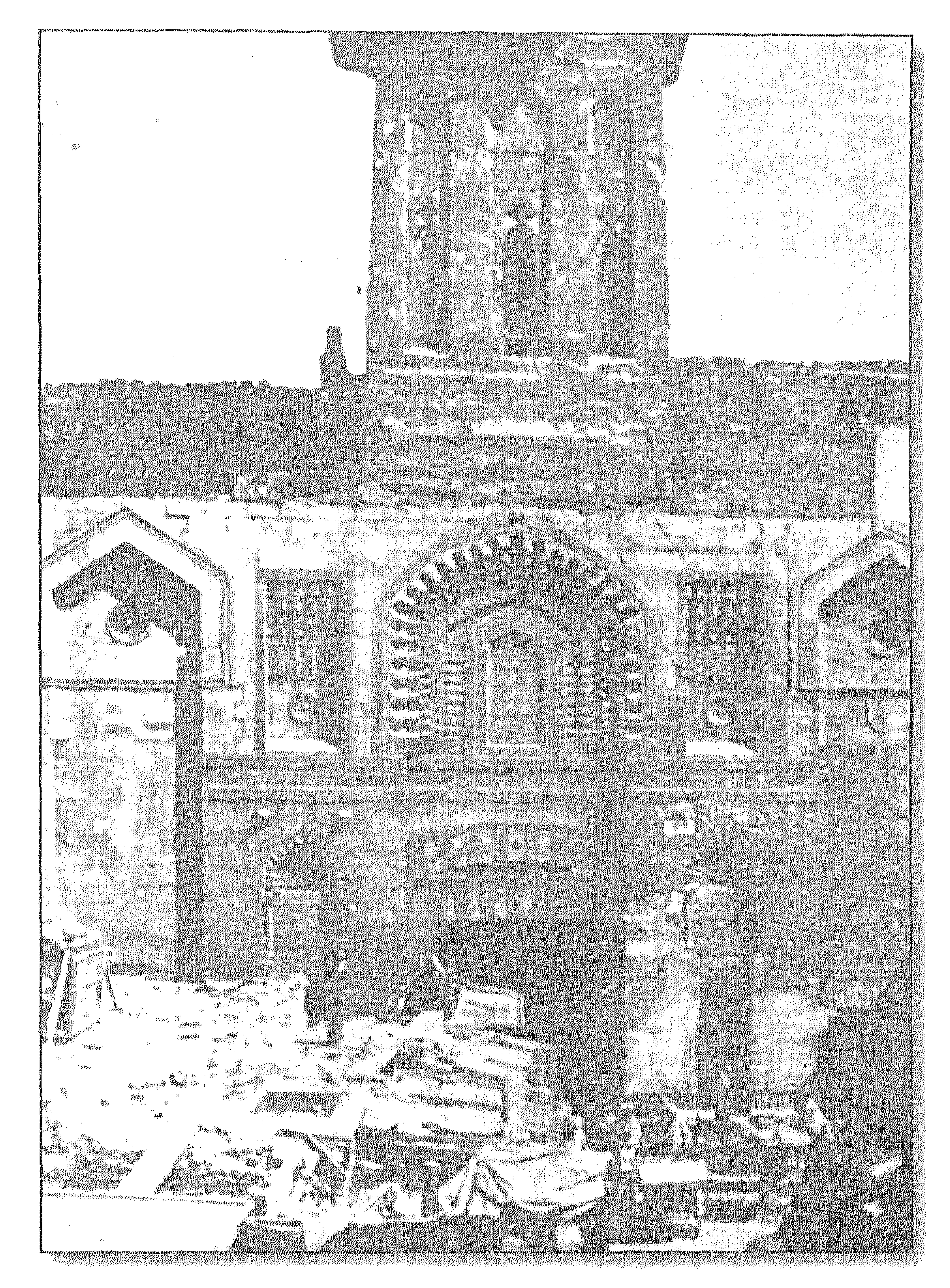
لوحة رقم (٣٢) قبوة متبقية من المدرسة الكاملية

لوحة رقم (٢٣)   آثار بيت الصلاة فى المدارس الصالحية

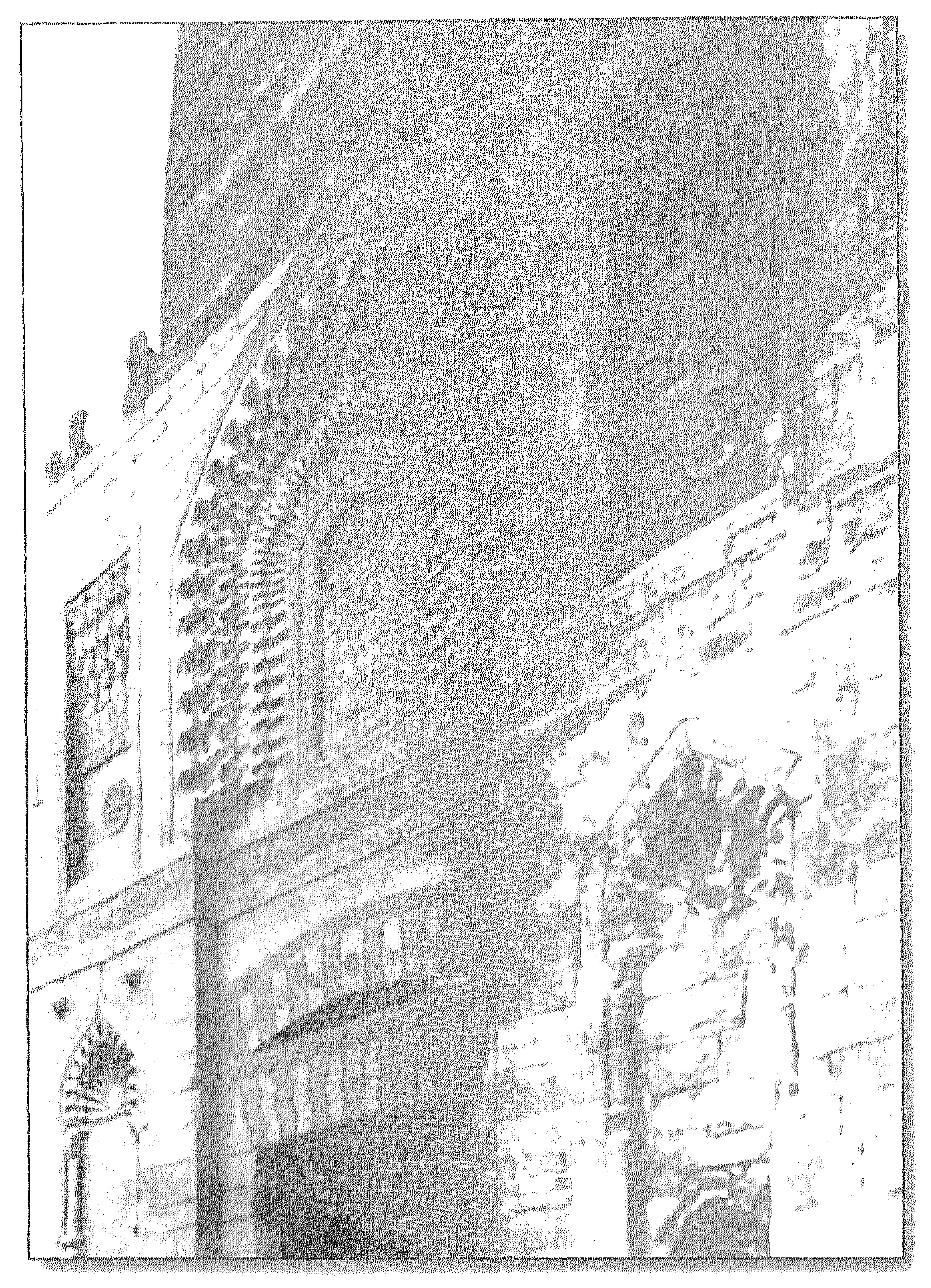
لوحة رقم (٣٤) قبة المدرسة المالكية فى المدارس الصالحية



لوحة رقم (٢٥) مدخل المدارس الصالحية وعليه لوحة إنشائها في سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م

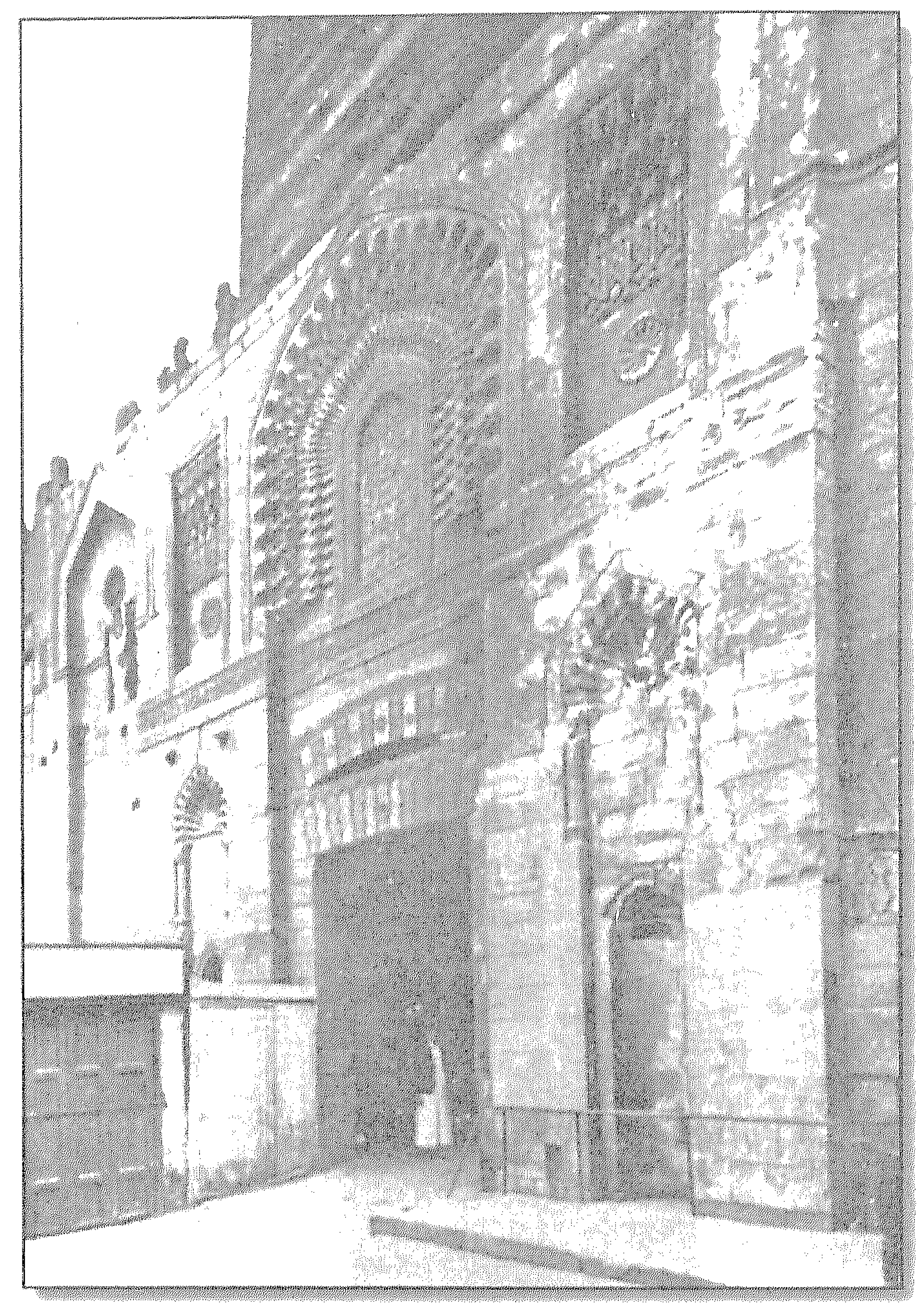


لوحة رقم (٢٦) بوابة المدارس الصالحية

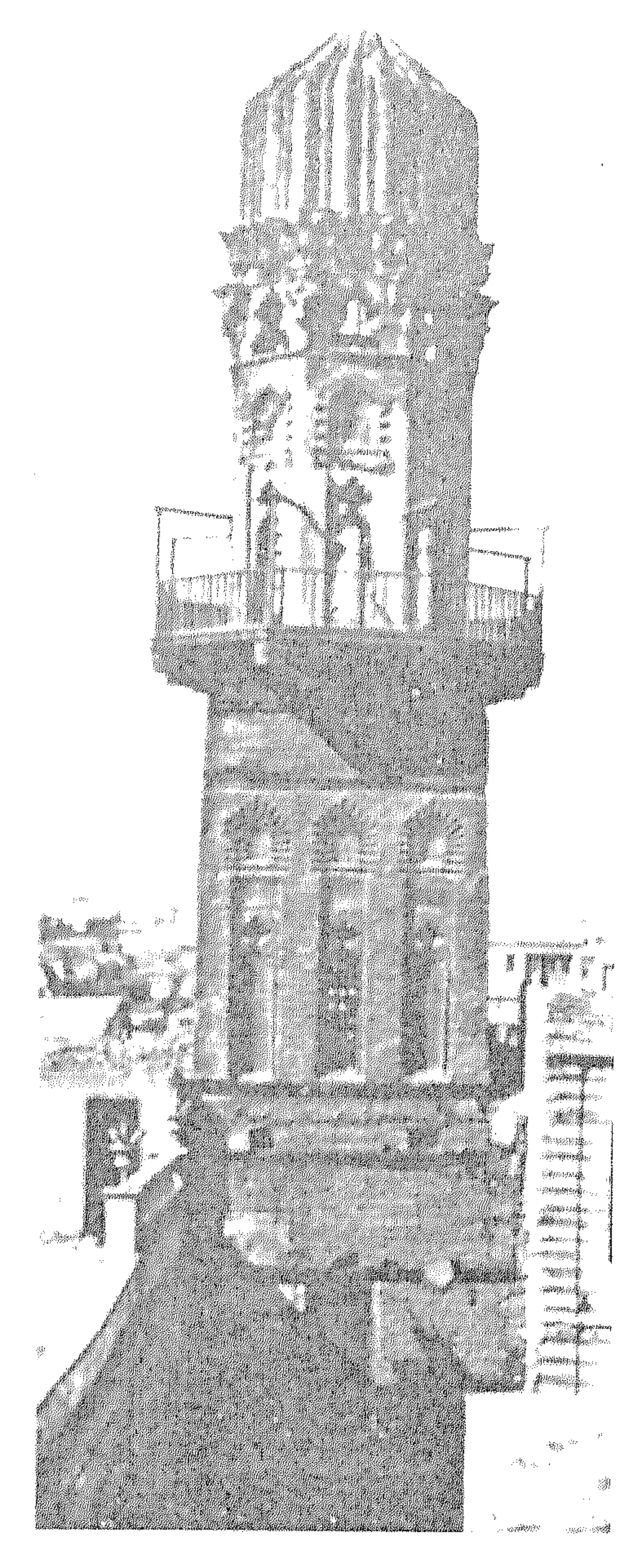


لوحة رقم (٢٧) بوابة المدارس الصالحية وجانب من واجهتها

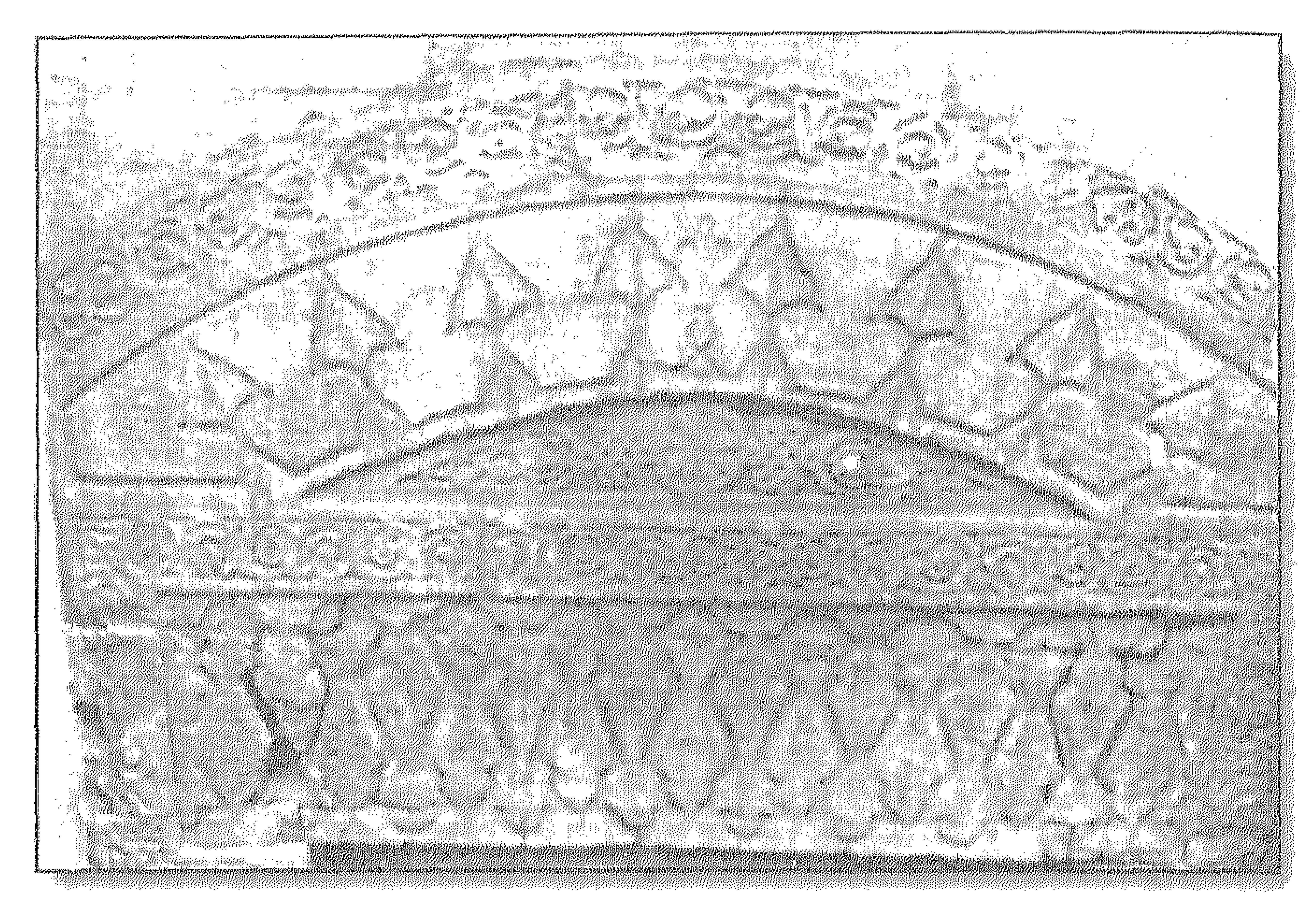
لوحة رقم (٢٨) واجهة المدارس الصالحية - القسم الشرقي

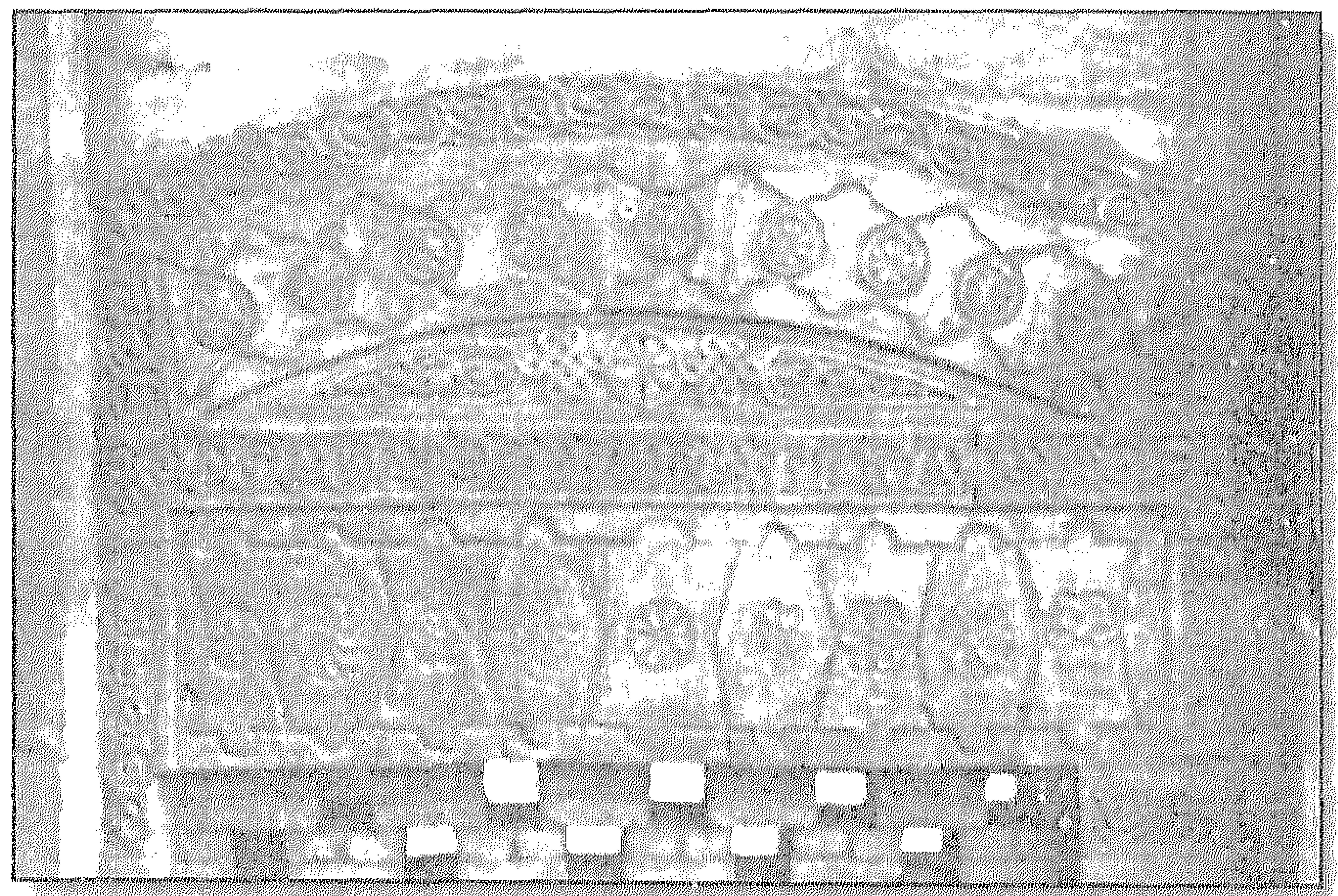


لوحة رقم (٢٩) جانب من واجهة المدارس الصالحية وبوابتها



لوحة رقم (٣٠) مئذنة المدارس الصالحية





لوحة رقم (٣١) زخارف رؤوس النوافذ وعتباتها فى المدارس الصالحية





لوحة رقم (٣٢) زخارف العقود المنبطحة وعتبات النوافذ فى المدارس الصالحية

الكشاف العام وبيان موضوعات الكتاب

١ - فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(غ)

(ف)

(ق)

٢ – فهرس الأماكن الجغرافية

(أ)

(ب)

(ك)

(ل)

(م)

٣ – فهرس القبائل والبطون

٤ – فهرس الآيات القرآنية

٥ – فهرس الأحاديث النبوية

٦ – فهرس الأشعار

٧ – فهرس الكتب الواردة فى الكتاب

(ن)

(هـ)

(و)

بيان بموضوعات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

يمتاز العصر الأيوبى بتطور العناصر المعمارية مثل القباب والقبوات والمآذن ومن حيث ازدهار الأشكال الزخرفية مثل التوشيح العربى والخط العربى .

والكتاب يستعرض تاريخ اتساع القاهرة فى العصر الأيوبى وازدهار الفنون فيها والآثار التى تخلفت عن ذلك العصر من أسوار ومشاهد ومآذن . كما يستعرض المدارس التى أنشئت فى القاهرة وما اندثر منها وما تبقت منها من آثار مع شرح هذه الآثار وإيضاح معالمها وعناصرها المعمارية والزخرفية مع التركيز على نظم المدارس الأثرية المعروفة حتى نهاية العصر الأيوبى مستخلصاً الصفات المشتركة فيها ومستعيناً بالنصوص التاريخية المعروفة عن نشأة التدريس وإنشاء المدارس فى الإسلام والوظائف المناطة بها .

يناقش المؤلف آراء علماء الآثار المستشرقين حول أصول نظم المدارس ومصادرها ووظائفها ويبين كيف اختلفت تلك الآثار وتضاربت لتخرج فى النهاية برأى مدعوم بالنصوص التاريخية والعناصر المعمارية التاريخية .



٠١٧٥٢٧/٠١

